أربعون للأسى .. وللتذكار

الدكتورة نجاح العطّار
وزيرة الثقافة

أربعون والحزنُ خيطٌ رفيعٌ بينَ حضورِكَ والغيابِ ،
أربعون والحزنُ شفيفُ غمامةٍ تتشرّبُ في مداها الذكرياتِ ،
أربعون وفي مدّعى الصّبْرِ ، والتصبُّرِ ، كانتْ لابنِكِ وقالدِنا ، شيمتان ،
كبرياءُ الرجولةِ مدّى ، وصمتُ الثّرى ندّى ،
وبينَهما تخايُل الدّمعِ نظرةً إليك ، إلى وراء ،
أيتُها التي كانت ، حينَ كان ، ههنا ، فوحُ الإباء ،
ثم ارتحلتْ ، ومعها ارتحلْنا ، في الخاطرةِ والجنّان ؛
وها نحنُ نزور ، والأمُّ ، على البعدِ ، تُزار .

• • •

أربعون والفارسُ المتكيء على مَقبِضِ السيف ، يتكيء على رَجْع الأسى ،

فالوفاء ، بِرَّ بنوَّةٍ ، مُنتماهُ أبدا إلى خُلُق العُلَى ،

والقلبُ شطران : في ملاعبِ الصبا ، وقراعِ العِدى ،

والإغضاءُ يُغْضَى له ، وقفةٌ مع النفْس الجَريح ،

لا مِن ترَفِ الشموخ ، ومن حقّه أن يكون ،

بل من لاعجةٍ ، تبْرُقُ بينَ الهُدْبِ والهُدْب عزْماً ،

ومن مُصابَرةٍ على المكارِه في الوُثوب على الأذى ،

يُوري زِنادُها مشاعلَ تُضيء الكونَ في حالكةِ الدُّجى ،

فإذا القسوةُ في النِّزال ، حنانٌ وارِفٌ في الطِّيب نُبلاً ،

وإذا الخافِقُ الحمولُ للنائبات ، حمولٌ للمكرُماتِ في النَّدى دُهْراً ،

وإذا الجنانُ ، في مُثارِ النقْعِ ، صمودٌ للنَّوازِلِ تيهاً وكبراً ،

وإذا الخُطوبُ بدَدٌ وأشْلاء تتْرَى ونتْرى ،

لأنه هو ، في طَلَّةِ الخيل ، على مشارف الوغى ،

يتقدّمُ الركبَ ، ويُومِيء ، فتكفي منه الإيماءةُ وقْفاً وازْدِلافا ،

وتكفي منه الإشارةُ انتِخاءً واندفاعاً وانْخطافا ،

ويكْفي أن يكونَ ، كي يكونَ النصْرُ فتْحاً ثم فتْحا ،

من فَرْطِ ثقة لا من فَرْطِ واجب ، يُمْلَى ويُمْلَى ويُمْلَى ،
ومن فرطِ إيمانٍ بالله ، وبالوَطَنِ ، يُعْلَى فيُفْدى .

• • •

فيا بانيَ الدولةِ وحافِظَها ، حُفِظْتَ من وقْفَةٍ أنتَ بها أدْرى ،
لأنكَ والكَلِم عاجِز ، تعذرُ العَجْز ولا تعذرُ الدمع ،
والدمع لو يُؤاتي ، لسحَّ من المآقي ، حقاً وصدقاً ،
لأن التي رحلَتْ ، والتي في مَطاوي الثرى جسْماً والعليين رُوحاً ،
تُدرِكُ ما كابدتَ ، وما تُكابدُ ، وما أجزلتَ ، وتُجزِل وفاءً وبراً ،
فقد أفأتَ وزدتَ ، وهذا حَسْبُ الأموات من الأحياء ،
وهذا حسبُكَ في ما عانيتَ ، وقاسيْتَ ، وصبرتَ ، وتجلَّدتَ ،
فالزورقُ الذي انحطَم على صخرةِ النهايةِ لن يؤُوب ،
والراحلةُ التي صارتِ الآن على الضفةِ الأُخرى لن تؤُوب ،
ومن حقِّها ، في الراحةِ التي صارتْ إليها ، أن تُخْلِدَ إلى الراحة ،
وأن تنعمَ في دفءِ المودَّات التي لها في قلوب أبنائها ،
وأن تَنْعَمَ ، أكثر ، في جِوارِ ربها الذي اصْطفاها فانتقاها ،
وارتحلها من الفانية إلى الباقية وهي قصدُنا جميعاً ،
يوم نأتي وكلٌّ منا يحمِلُ كتابهَ في يَمينه ،
ولا شافِعَ لنا ، إلا ما كُتِبَ لنا أو علينا ، في هذا الكتاب .

أربعون ، والأيّام توالَى ، ووجهُ الأمِّ باقٍ ما بقيتِ الحياة ،
لأنها هي ، الأم ، من أعطتْ ، وبسخاء ، هذه الحيَاة ،
وكانتْ ناعسةُ الأسد ، في سريرةِ الغيبِ ومدَى الظنّ ،
لا يبلغُ بها الظنّ ، أنها ستُنْجبُ من أنجبَتْ ،
وستكونُ أمّاً للذي يقودُ مسيرتَنا في الطريقِ المستقيم ،
فيسغبُ لنشبَعَ ، ويظمأُ لنرْتويَ ، ويُفادي لنأمنَ ،
ذلك أنّ السماءَ ، في المِنْحة الكُبْرى ، تمنَحُ دونَ إشارة ، دونَ بِشارة ،
كي يكونَ ، ما هو مكتوبٌ في اللوح . غَلَباً هو المفاجأةُ ، وهو الأمارَة ،
وقد فوجِئْنا ، بالبِشارة والأمَارة ، وبالقائدِ الطّالعِ من رَحِمِ النبوءةِ ليكونَ نُبوءة ،
بأنّ الآتيَ مع رياح العاصفةِ ، سيكونُ هو العاصِفة ،
وهو الذي يأخذُ بنا في طريقِ الكِفاح طويلاً ومَريراً ،
وكذلكَ ، في تاريخِ التّاريخ ، يطولُ الكفاحُ ويحلُو المرّ ،
إنما بعد أن يُدفَعَ المَهْرُ ؛ وقد دفعناه ، ولا نزالُ على استعداد للدّفع .

* * *

أربعون ، أيتُها الخالدةُ فينا ، لأنّنا الخالدُون بك ومَعَك ،
ونحنُ نرقُب نَجْماً ، هو النجمُ الذي اهتدَى به الملّاحُ التّائه ،

الدراسات والبحوث

الأيديولوجيا والعلم
عزت السيد أحمد

الطاقة الهائلة للإنسان وتحديات العصر
عبد اللطيف زرنه جي

التربية الثقافية للطفل العربي
بهاء الدين الزهوري

بذور التفكير النفسي - الاجتماعي في حضارات الوطن العربي القديمة
د. نزار عيون السود

«أوديب» في التحليل النفسي والبنيوي
د. عبد الكريم حسن

الأيديولوجيا والعلم

عـزت السيد أحمد

لعل كلمة « ايديولوجيا » هي الاكثر ذيوعا واستخداما بين اوساط المثقفين خاصة ، ولكن الدلالة الاكثر شيوعا وانتشارا لهذه الكلمة، والتي تعني «الفكرة او جملة الافكار التي يعتقدها المرء ويعتنقها ، فتتحكم وتوجه فهمه وثقافته وتطلعاته » لا تعدو كونها واحدة من الدلالات التي مرت بها هذه الكلمة منذ ولادتها وحتى الآن .

ـ عزت السيد احمد : باحث من سورية ، يهتم بالدراسات الفلسفية والاجتماعية ، ينشر في الدوريات المحلية والعربية .

وإن كان هذا الفهم يلقى تقبل جل الباحثين والمفكرين واستحسانهم، إلا انه يثير مشاكل ومسائل عديدة ، ابرزها في استجلاء ابعاد هذه الدلالة ، واشدها خطورة في مدى التأثير الايديولوجي على ضروب العلم والمعرفة .

وهاتان المسألتان هما اللتان سنعنى الآن بالكشف عن مضامينهما محاولة منا للوقوف على أهمية وخطورة الدور الذي تمارسه الايديولوجيا في حياتنا ، وكيما يتسنى لنا ذلك . لا بد لنا من المرور ولو سريعا على اهم الدلالات التي ضمنها المفكرون للايديولوجيا ، ومدى بعد هذه الدلالات عن المعنى الاصلي الاول الذي قصده واضع هذا المصطلح .

ما الايديولوجيا ؟

لا شك اننا مدينون للماركسية بالجانب الاهم من الفهم المعاصر لمصطلح الايديولوجيا ، لكثرة ما اطنب الماركسيون في الحديث عن الايديولوجيا والدور الذي تمارسه في مختلف ضروب النشاط والوعي ، حتى كان للماركسية الحظ الاوفر في تحديد المعنى الشائع لهذا المصطلح، الأمر الذي جعل الناس معظمهم يجنحون الى الاعتقاد بأن المصطلح ايديولوجيا يتصل « اتصالا وثيقا بالماركسية ، ولهذا السبب نجد ان ــ ردودهم ــ واستجاباتهم عن هذا الاصطلاح مقررة سلفا على الاكثرية بتلك الصلة ، مع العلم ان هذا الاصطلاح سابق على الماركسية »(١) .

يعني هذا المصطلح في اصله اللاتيني « علم الأفكار » فهو مركب من لفظتين هما « ideo = فكرة » و « logos = علم » وقد « ظهر مصطلح الايديولوجيا للمرة الاولى على قلم الفيلسوف الفرنسي (دستوت دوتراسي ــ ١٧٥٤ ــ ١٨٣٦) وذلك في كتاب له بعنوان (مذكرة حول ملكة التفكير) ثم توسع في شرح هذا المصطلح ضمن كتاب آخر عنوانه (تخطيط لعناصر الايديولوجيا) ، وقد عرف هذا الكتاب الاخير الايديولوجيا بأنها : « العلم الذي يدرس الافكار بالمعنى الواسع لكلمة افكار ، اي مجمل واقعات الوعي من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقاتها بالعلائم التي تمثلها ، ولاسيما اصلها »(٢) .

والحق ان هذا التحديد الذي اطره (دوتراسي) للايديولوجيا قد ظل الموئل الذي يمتح المفكرون منه نسغ تعريفاتهم وتأطيراتهم . واياً كان التباين والاختلاف في فهم (الايديولوجيا) يمكن رده الى هذا التعريف الذي لا يمكن لنا إلا ان نفهمه على انه ، لا علم الافكار بالمعنى « الايبستمولوجي ـ علم العلم » ولا بالمعنى « الغنوسولوجي ـ علم المعرفة » ، بل على انها الافكار ذاتها التي تهيمن على الباحث او المفكر وتقود وعيه وفهمه لما هو قائم من افكار وقيم ومفاهيم على نحو يعزز العقائد التي يعتنقها ، وتحفزه على استيلاء الافكار والقيم الجديدة التي تدعم عقائده ، او ما يمكن ان نسميه الفكر القابع خلف الفكر ، او جملة الافكار القبلية التي نعتنقها وتقود فهمنا وتفسيراتنا لظواهر الطبيعة والمجتمع ، بصورة شعورية او لا شعورية .

ويتضح هذا المعنى على لسان (دوتراسي) ذاته إذ يقول : « ثمة علمان ليسا مختلفين فحسب ، بل متعارضين ، يبالغ الناس في الاصرار على الخلط بينهما ، اعني الميتافيزيقا اللاهوتية القديمة ، او الميتافيزيقا بالمعنى الحقيقي للكلمة، والميتافيزيقا الفلسفة الحديثة،او الايديولوجيا(٣) لتبدو الايديولوجيا وكأنها الأفكار التي تقف وراء كل فلسفة . ويعزز (دوتراسي) هذا الفهم اذ يبين « ان علمه المقترح يمكن ان يوصف بأنه ايديولوجيا اذا نظرنا الى محتواه ، ونحوا عاما اذا نظرنا الى وسيلته ، ومنطقا اذا نظرنا الى هدفه »(٤) .

ورغم ذلك كله فاننا لا نستطيع ان ننكر البتة ان (دوتراسي) كان يقصد ان يؤسس لعلم جديد يعنى بأصل الافكار وصفاتها وقوانينها وعلاقاتها ، ولكن المشكلة هنا ان ثمة علما خاصا بالمعرفة ، هو ما يمكن تسميه علم المعرفة (الغنوسولوجيا) هذا العلم الذي يعنى باصل المعرفة ونشأتها وطبيعتها وحقائقها .... ونظرا لوثيق الصلة وتلازمها غير المنفك بين الفكر والمعرفة ، فقد بات لزاما على علم الافكار كيما يكون اصيلا فعلا الا يكون صورة مطابقة ، او نسخة ثانية ءنعلم المعرفة ، ولذلك كان عليه ان يتخذ منحى آخر مميزا ، وان يبحث عن حقل جديد لممارسته ، وهذا ما كان فعلا ، إذ « اندفع علم الافكار نحو البحث عن ـ اصل الفكر غير

المطابق للواقع – وبدأ بتسليط الأضواء على تأثير التقاليد والمعتقدات والأفكار الموروثة ، في صرف النظر عن استقامة مفترضة لمساره الطبيعي »(٥) .

وكان من الممكن ان تظل الايديولوجيا علما للفكر ، لولا ان المفكرين والباحثين سرعان ما تلقفوا تعريف هذا العلم دون غايته – لأنها كانت بالنسبة لهم بحكم تحصيل الحاصل – **ليحولوه كما هو دونما تغيير الى مفهوم يدل على ظاهرة معينة بذاتها ، وإن اختلفت تفاسيرها ومضامينها تبعا للناظرين اليها ، وقصروا معنى الايديولوجيا عليها ، لتتجرد بذلك من كونها علما** ، ووراء هذا الاختلاف بحد ذاته يكمن جوهر الايديولوجيا بالمعنى الخاص ، أو بالمعنى الاصطلاحي المعاصر والشائع ، « ونذكر المعنى الخاص لمفهوم الايديولوجيا عندما يشير الاصطلاح الى ما يغمر قلوبنا من شكوك وريب ، وما يعتور نفوسنا من تردد عن الآراء والأفكار والتصورات التي يتقدم بها المعارضون لنا ، تعتبر تلك الآراء والتصورات اقنعة شعورية واعية تحجب الطبيعة الحقيقية للوضعية الاجتماعية ، لأن المعرفة الحقيقية بتلك الوضعية لا تتفق مع مصالح المعارضين »(٦) .

وبهذا المعنى كانت الايديولوجيا عند (ريمون آرون) هي فكرة الخصم ، وعند (ماركس – ١٨١٨ – ١٨٨٣) قناع يخفي تقدم التاريخ ، وعند (نيتشه – ١٩٠٠) ستار يبعد عن الحياة(٧) وعند (كارل مانهايم) هي « تلك التفسيرات للوضع التي ليست تجارب مجسدة ، ولكنها نوع من المعرفة المحرفة لهذه التجارب ، تفيد إخفاء الوضع الحقيقي »(٨) .

ومع (كارل يسبرز – ١٨٨٣ – ١٩٦٩) نقترب من الموضوعية اكثر فاكثر ، فلم تعد الايديولوجيا فكرة الخصم ، وإنما هي « تركيبة من الأفكار او التمثلات تبدو في نظر الذات تفسيرا للعالم او لوضعها الخاص ، يمثل لها الحقيقة المطلقة ، ولكن على شكل وهم »(٩) وبالتالي فليس ثمة ذات خلو من هذه التمثلات والأفكار ، وهكذا نصل الى المفهوم الذي حددناه مسبقا للايديولوجيا بقولنا : هي الفكرة او جملة الافكار التي يعتقدها المرء ويعتنقها ، فتتحكم وتوجه فهمه وثقافته وتطلعاته على النحو

الذي يؤكد ويعزز الافكار التي اتخذها معتقدا ، وعلى هذا النحو فليس ثمة انسان خلو من الايديولوجيا ، فلكل انسان ايديولوجيته الخاصة ، كما ان لكل امرىء فلسفته الخاصة ، بل إن الايديولوجيا هي الفلسفة عندما تتحول الى وعي ينهد لتاكيد محتواه وتبريره للذات اولا وللآخرين ثانيـا .

آلية التأثير الايديولوجي

ولكن كيف تقود الافكار من يعتنقها وكيف توجهه ولماذا ؟

إن الاجابة عن هذه التساؤلات تعني بصورة او بأخرى الكشف عن آلية التأثير الايديولوجي في عمل الباحث او الفكر عموما ، فما هي الالية ؟

« إن كل استعمال لمفهوم الايديولوجيا مرتبط بمجال وبعلة وبوظيفة ويقـود حتما الى نظريـة ، ويخلق نوعـا من التفكير .... إن غالبية المستعملين اليوم ينسون او يتناسون هذه الارتباطات المنطقية ، لكنهم لا يستطيعون محوها من تفكيرهم ، فتؤثر في تحليلاتهم ، وتحدد اختياراتهم وتفرض عليهم مناهجهم رغما عنهم »(١٠) .

والحقيقة ان هذا التأثير وتحديد الاختيارات وفرض المناهج ، او ما يمكن ان نسميه في جملته آلية التأثير الايديولوجي ذو شقين متكاملين متلازمين بآن معا ، هما الجانب الشعوري والجانب اللاشعوري ، حيث ان الافكار التي يعتنقها المرء تؤثر فيه وتقوده شعوريا ، اي انه يدرك ان ما يقوم به إنما هو بدافع ما يعتنقه من افكار ومثل ومبادىء ... كما انها تؤثر فيه وتقوده لاشعوريا من حيث هي موروث فكري قابع في طوايا العقل الباطن الذي يفعل فعله وهو متوار ؛ بعيد عن ادراك المرء ووعيه .

وقبل ان نعرج على هذين الجانبين اللذين يشكلان محور آلية التأثير لا بد من الاشارة الى الأساس الذي يستندان اليه وينطلقان منه ، لانه هو الذي يسوغ التأثير بكليته ويعطيه اهمية وضرورة في نظر المرء ، وهذا الأساس يتمثل في حقيقة الامر في مضمون الايديولوجيا ودلالة الافكار المكونة لها ، وهنا يمكن الحديث عن الصعيدين التاليين :

١ ـ شمولية الرؤية

يميل الانسان بما يحمل من معارف وثقافات وتجارب وخبرات ، ولا سيما البحاثة ، الى تكوين رؤية خاصـة للكون والحياة ، ولكن هذه الرؤية تظل غامضة غير متمايزة اذا لم يعها الانسان ، فاذا وعاها فانها تتجه الى التبلور والتحدد ، وتبدو في نظر صاحبها رؤية شاملة تفسر العالم ، ويشرئب الى ايصال هذا التفسير الى جميع الناس ، واقناعهم به ، وبهذا المعنى يتحدث (ياكوب باريون) عن سمتين أساسيتين تدخلان في تشكيل كل موقف ايديولوجي ، هما « النزوع نحو الكلية والشمولية ، فالايديولوجيا تقوم أساسا على تقديم تفسير شامل وجامع للعالم .... وطموح الايديولوجيا الى جعل نفسها مقياسا للحياة الانسانية وسعيها من أجل سريان مفعولها على جميع الناس وكل مجالات الحياة »(١١) .

٢ ـ مصداقية الرؤية

ولكن لماذا يشرئب العقائدي ـ الايديولوجي الى فرض رؤيته على جميع الناس ؟ إن السبب الجوهري الذي يقف وراء ذلك هو ما يمكن أن نسميه مصداقية الرؤية ، هذه المصداقية المرتبطة بصاحبها ارتباطا وثيقا ، وبهذا المعنى فان الايديولوجيا « تكتسي صبغة سلبية أو ايجابية حسب هوية المستعمل ، يرى المتكلم ايديولوجيته الخاصة عقيدة تعبر عن الوفاء والتضحية والتسامي ، ويرى في ايديولوجيات الخصوم أقنعة تستر وراءها نوايا خفية ولا واعية يحجبها أصحابها حتى عن أنفسهم ، لأنها حقيرة لئيمة .

إن ايديولوجيا المتكلم تنير الطريق فتهدي الخلق الى دنيا الحق ، والعدل ، بينمـا تعمي ايديولوجيا الخصوم الناس عن سبيل الحقيقة والسعادة »(١٢) ولذلك فان وفاء وحرص واخلاص الايديولوجي للآخرين وللانسـانية ، يفرض عليه أن يخلصهم مـن الانجراف وراء المخادعين المضللين الذين يبعدونهم عن جادة الحق والصواب .

وهنا يندفع الايديولوجي للاضطلاع بمهمة تنوير الناس واطلاعهم على حقائقـه التي توصل اليها باخلاصه وحرصـه ، مكرسا جهوده لاثبات

ما توصل اليه من حقائق لاقناع الآخرين بها ، وهنا يلعب التأثر الشعوري واللاشعوري دوره في توجيه الباحث وقيادته الى طرائق محددة فيمعالجة مسائله وإثباتها ، وانتقاء ما يتناسب مع ايديولوجيته من الأفكار والمبادىء والأسس ... وغض الطرف عما سواها .

الجانب الشعوري

يستمد هذا الجانب قدرته التأثيرية في الباحث من كون الايديولوجيا ظاهرة اجتماعية او جمعية ، مـن حيث هي مجموعة الأفكار والمبادىء والأسس ... التي تهيمن في مجتمع ما على أشكال مختلفة متباينة غالبا ما تتخذ شكل العادات والتقاليد والأعراف ، بالمعاني والدلالات الأوسع لهذه الكلمات، لتغدو الايديولوجيا بهذا المعنى ـ كما يقول (كارل ماركس) و (فريدريك انجلز ـ ١٨٩٥) ـ « الأفكار السائدة في عصر معين والتي هي على الدوام أفكار الطبقة السائدة في ذلك العصر . حيث تعتبر الأفكار السائدة من هذا المنظور التعبير المثالي عن العلاقات التي تجعل الطبقة الواحدة طبقة سائدة »(١٣) .

على ان سيادة هذه الطبقة قد تكون بالمعنى السلطوي والسياسي وبذلك تضيق حدود هذه الطبقة ويقل عدد أفرادها ، وقد تكون السيادة بالمعنى النظري من حيث انها الشريحة الاوسع في المجتمع التي تهيمن أفكارها وتسود على عموم المجتمع . ولتغدو الايديولوجيا بهذا المعنى « جـزءا عضويا من كل وحدة مجتمعية ... وبنيـة ضرورية للحياة التاريخيـة للمجتمعات ، لا يمكن ان تظل حيـة دون هذه التشكيلات النوعية ، هذه الأنظمة للتطورات التي هي الايديولوجيا ، ... إن هذه المجتمعات تعـزز الايديولوجيا كما لو أنها المناخ او البيئـة الضرورية لتنفسها ، لحياتها التاريخية »(١٤) .

وفي الحالين كليهمـا تكون الايديولوجيا بمثابة بـؤرة تلتقي حولها ارادات الافراد الذين يعتنقونها ويجدون انفسهم مرغمين على الانقياد لها والدفاع عنها لاعتبارات متعددة ومختلفة ، سيان كان ذلك شعوريا ، ويتجلى ذلك عند الذين يعتنقون هذه الايديولوجيا بصورة واعية ، أو

لا شعوريا عند عامة الأفراد الذين ينتمون اليها ، ويتجلى الانقياد للايديولوجيا أكثر ــ شعوريا ــ خصوصا ــ ولا شعوريا ؛ أيضا ــ عند حدوث تغيرات نوعية في المجتمع أو الطبقة المهيمنة خصوصا ، حيث تجد الطبقات الجديدة السائدة ذاتها أمام تحديات عصبية تفرض عليها تسويغ سيادتها وتوكيد مواقفها وترسيخ مواقعها ، وأن تظهر للآخرين على أنها هي الأصح وهي الأحرص على المصلحة العامة ، ذلك أن « كل طبقة تحتل مكان طبقة كانت سائدة قبلها ، مضطرة ولو بمجرد تحقيق أهدافها الى تمثيل مصلحتها على انها المصلحة المشتركة لجميع اعضاء المجتمع ، يعني انه ينبغي لها ان تعطي أفكارها شكل العمومية ، وأن تمثلها على أنها الافكار الوحيدة الصالحة بصورة شاملة »(١٥) .

والحقيقة اننا لا نستطيع هنا الفصل بين الجانب الشعوري والجانب اللاشعوري في تأثير الايديولوجيا على الأفراد الذين يعتنقونها ، ذلك أن « بنية كل ايديولوجيا هي ــ بنية ــ انعكاسية باستدعائها الأفراد كفاعلين باسم ذات وحيدة ومطلقة ، اي في المرآة ؛ وهي مزدوجة الانعكاس ، وهذا الازدواج في الانعكاس هو الذي يكون الايديولوجيا ويؤمن سيرها ــ إذ ان ــ كل ايديولوجيا ــ بحد ذاتها ــ ممركزة ؛ والذات المطلقة تحتل المكان الوحيد في المركز ، وتستدعي حولها الأفراد الذين لا حصر لهم كفاعلين او ذوات »(١٦) .

ولأن هذه البنية الانعكاسية المزدوجة للايديولوجيا ــ كما يرى (لويس ألتوسر ــ) تقوم في الوقت ذاته بـ :

« ١ ــ استدعاء الأفراد الفاعلين .

٢ ــ اخضاعهم للذات .

٣ ــ الاعتراف المتبادل بين الفاعلين والذات، وبين الفاعلين انفسهم، وفي النهاية تعرف الفاعل على نفسه .

٤ ــ الضمانة المطلقة بأن كل شيء هو كذلك ، وبأن كل شيء يسير على ما يرام ، شرط أن يعترف الفاعلون بما هم عليه ، وأن يتصرفوا على

هذا الأساس »(١٧) فان اللبس يبدو جليا بأن آلية التأثير الايديولوجي آلية لاشعورية صرفة، حيث يسير الفاعلون وحدهم منقادين للايديولوجيا بصورة لاشعورية خالية من الوعي ، والحقيقة أن هذه الآلية كما أشرنا آلية مزدوجة تضم الجانبين الشعوري واللاشعوري بآن معا ، بحيث يتعسر الفصل بينهما ، وينجلي ذلك اذا نحن حللنا ما تنطوي عليه عبارة الفاعل من دلالات ، والتي تتضمـن حسبما يشير (التـوسر) معنيين اثنين :

١ ــ ذاتية حرة : مركز مبادرات ، فاعل ومسؤول عن أعماله .

٢ ــ كائن مستعبد ، خاضع لسلطة عليا ، أي عديم الحرية الا فيما يخص الموافقة بحرية على خضوعه »(١٨) فالذاتية الحرة باعتبارها مركز مبادرات مسؤولا ، يعني انقياده للتأثير الايديولوجي عن وعي وادراك ، وهذا ما يمثل الجانب الشعوري ، أما الفاعل بوصفه كائنا مستعبـدا مسلوب الحرية ، فهو المنقاد لاشعوريا للايديولوجيا ، الا اذا وافـق بحرية على خضوعه . فان آلية التأثير الايديولوجي فيه تكون مزدوجة ، أي شعورية ولا شعورية

الجانب اللاشعوري

لعل الجانب اللاشعوري هو الاكثر والاشد تأثيرا في الباحث ، ذلك انه يترافق مع الجانب الشعوري على نحو يصعب فيه الفصل بينهمـا من جهة ، ويمارس تأثيره مستقلا من جهة ثانية . لان ايمان الانسان بحقيقة ما يجعله ينظر الى كل الظواهر بمنظار هذه الحقيقة التي يؤمن بها ، بصورة لاشعورية ، سواء آمن بهذه الحقيقة عن قناعة وبرهـان ووعي ، أو تلقاها مع ما تلقى من ميراث فكري ، وللايديولوجيا أهميتهـا الكبيرة والخطيرة في حياة الانسان « فهي تزوده بتوجيه اجمالي في حياته وتضع امامه الاهداف والمهام ، مثلما تمده بالدوافع على تحقيـق هـذه الاهداف وانجاز تلك المهام »(١٩) .

ولذلك يجد الباحث نفسه مدفوعا بدوافـع لاشعورية مصدرهـا ايديولوجيته الراسخة في اعماق عقله الباطن ، الى قراءة مختلف ظواهر

الكون والحياة بما يتفق وحقائقه التي يعتنقها من غير ان يدري بالضرورة حقيقة هذه الدوافع . ذلك أن الايديولوجيا كما يقرر (انجلز) « تعني مجموعة من الافكار التي تحيا حياة مستقلة متقيدة فقط بقوانينها الخاصة، إن كون شروط الحياة المادية التي يحيا الناس الذين نتابع هذه السيرورة الايديولوجية في اذهانهم ، يقرر في التحليل الاخير مجرى هذه السيرورة فهذه الواقعة تبقى مجهولة منهم كليا »(٢٠) .

وليس هذا فحسب ، **بل أن المفكر الذي ينقاد متأثرا بحامله الايديولوجي ، قد يعتقد في كثير من الاحيان أنه يعي العوامل التي تدفعه وتقود خطاه ، فيما هو في حقيقة الامر يجهلها** . ولقد ابان (انجلز) هذه الحقيقة بصريح العبارة في رسالته الشهيرة الى (مهرينغ) في الرابع من تموز عام ١٨٩٣ . اذ قال : ان « الايديولوجيا هي عملية يمارسها فعلا المفكر المدعي بوعي ولكنه وعي زائف ، ذلك انه يظل يجهل القوى المحركة الحقيقية ، ولولا ذلك لما كانت هذه العملية عملية ايديولوجية »(٢١) وكأنه يجعل بذلك من التأثير الايديولوجي آلية لاشعورية محضة يظل تأثيرها مخفيا عن الانسان ، حتى اذا علمه لم يعد تأثيرا ايديولوجيا . وهذا أمر فيه خلاف .

وبناء على ذلك فانه من كبير « الخطأ أخذ القول الايديولوجي بالحسبان على مجرد مستوى مضامينه الصريحة ــ ولنقل على مستوى ما يدل عليه ــ في حين ان من المناسب تحليله بوصفه شبكة من ضروب الدال المحددة على وجه التقريب ... وهذا من الصحة بحيث ان اي ايديولوجيا هي على القالب تمفصل الموضوعات والرموز ، التي كانت موجودة ... تمفصلا جديدا مختلفا ... والسبب في الواقع أن كل ايديولوجيا تؤمن نسبة مختلفة من العلاقة بين ضروب الدال وما تدل عليه »(٢٢) .

الفرق بين الايديولوجيا والعلم

سبق وبينا المقصود بالايديولوجيا ، وحتى نبين الفرق بينها وبين العلم لابد أن نفصح عن المقصود بالعلم ، والحق ان تعريف العلم مازال

حتى الان مثار خلاف واشكالات عديدة ، ولن نخوض غمار تفاصيل هذه الخلافات ، ونكتفي بأن **نعرف العلم بانه « معرفة الشيء على ما هو به »**(٢٣) **« وأصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته »**(٢٤) وبهذا التعريف نستطيع ان ندرج العلوم الاجتماعية في ميدان العلم الى جانب العلوم الدقيقة الرياضية والمنطقية والعلوم التجريبية والطبيعة ، على اننا لابد ان نشير الى « اهم الخصائص التي يجب ان تتوافر في التفكير العلمي وهي :

١ ــ دقة المفاهيم الواردة في الصياغة العلمية

٢ ــ التعميم

٣ ــ امكان اختبار الصدق

٤ ــ ثبات الصدق

٥ ــ البناء النسقي(٢٥) .

ومن ذلك يبدو ان ثمة تقاطعا بين العلم والايديولوجيا ، هذا التقاطب نابع من اغراض كليهما ومراميه على اقل تقدير « فالمرمى العلمي موضوعي كوني احادي المعنى (ما يثبت معناه مهما اختلفت اشكاله) : انه يريد الوصول الى الواقع في بناه وفي وظائفه ، كما هو . والمرمى الايديولوجي يبين واقعا على ما يتمنى لو يكون ، والايديولوجيا تبين عن مرمى معياري يزعم نفسه موضوعيا . ومن هنا كان الابهام صفتها الجوهرية ، انها (رؤية) دلالية معا لحقيقة معينة لحال واقع ، وفي الوقت ذاته لقصد يضفي قيمة ولكنه يقلب الحقيقة »(٢٦) .

ولان الايديولوجيا تقترن في الاغلب الاعم بتزييف الوعي ، وقراءة الواقع قراءة متفقة مع الافكار المسبقة التي يعتنقها المرء فاننا نضيف لتوضيح الفرق بين العلم والايديولوجيا حدا جديدا هو « الواقع ــ الذي يفترض في العلم السعي الى بلوغه والتعبير عنه بقوانين ، بينما يفترض في الايديولوجيا تحريفه تبعا لقيم معينة تود لو تجدها مدمجة فيه »(٢٧)

وبهذا المعنى يؤكد (باريون) على ان « الايديولوجيا تقف حقا على اطراف النقيض من روح العلم ، وعلى ان الانظمة او المذاهب التي تدعي امتلاك معرفة كلية ذات حقيقة مطلقة ، يتعذر تأييدها العلمي ، مثلما يمتنع دحضها من زاوية العلم ، انها ليست من ثمار العلم ، بل هي محتويات ايمان تدعي لنفسها الحقيقة المطلقة »(٢٨) .

كما يؤكد (التوسر) ايضا ان « نمط الانتاج النظري للايديولوجيا يختلف كل الاختلاف عن نمط الانتاج النظري للعلم ، وذلك يكون النمط الاول ، لايفصل حين يصوغ مسائله غير التعبير النظري عن الشروط التي لفقت لتكون مرآة نظرية وتسويغا عمليا في وقت واحد ، لان هذا الحل تفترضه سلطات ومقتضيات خارجة عن حدود النظر ، اي تفرضه مصالح دينية او اخلاقية او سياسية او سواها »(٢٩) .

العلاقة بين العلم والايديولوجيا

ان التقاطب بين الايديولوجيا والعلم لا يعدو كونه تقاطبا في الغايات والاهداف وحسب ، بل تبين ان ثمة تداخلا وتلازما بين العلم والايديولوجيا وهذا التداخل والتلازم على درجة من التعقيد بحيث لا يمكن الحديث عنه على نحو واحد ، كمالايمكن حصره في اطار علاقة واحدة أو حتى مستوى متواز من العلاقات ، وبهذا المعنى يمكننا الحديث عن علاقات قد تبدو متناقضة ، فنقول ان العلم يحتاج للايديولوجيا ،والايديولوجيا تحتاج للعلم ، وان الايديولوجيا تعرقل العلم وتحفزه بآن معا .

١ ــ تلازم العلاقة

يرى ماكس فيبر (١٨٦٤ ــ ١٩٢٠) أن الشيء الموضوعي العلمي هو ما كان خاليا من التقويم ومن اي أثر ايديولوجي ، والحق ان هذا القول لا اختلاف فيه البتة ، ولكنه بهذا التشديد يكاد يقصي الموضوعية عن جل العلوم المعروفة ، ولاسيما العلوم الاجتماعية على وجه التخصيص، ولادراكه هذه الحقيقة فقد بذل جهودا كثيرة وكبيرة لاقامة العلم على اسس قويمة محصنة من تداخلات القيم الشخصية للباحث ، ولكنه

على الرغم من ذلك فقد « بقي مضطرا الى الاعتراف بالدور الثابت الذي لابد أن تلعبه قيم الباحث وافتراضاته المسبقة ، ليس في تحديد مبدأ انتقاء مادة دراسته وحسب ، بل وفي تعيين الوجهة التي يمضي نحوها عمله »(٣٠) وليس ذلك فحسب ، بل « ان (مانهايم) يصل الى حد القول بأن الافكار في العلوم التي تدرس الانسان تكاد تمسي وظيفة أو دالة لمن يعتنقها ، ولوضعه في وسط اجتماعي »(٣١) .

ان هذا التلازم الوثيق بين البحث العلمي والخلفية الايديولوجية يرجع في واقع الامر الى آلية التاثير الايديولوجي في الباحث ، بشقيها الشعوري واللاشعوري ، هذه الآلية التي بيناها قبل قليل ، والتي تقودنا بالضرورة الى عدم خلو أي علم من رؤية ايديولوجية وتطلع الى اجواء هذا العلم ضمن المنظومة الايديولوجية التي يعتنقها الباحث ، سيان كان ذلك من خلال فهم معطيات هذا العلم فهما ايديولوجيا ، أو محاولة توجيه دفته بما يخدم مصالح ايديولوجيته ، أو متابعة البحث العلمي انطلاقا من الافكار المسبقة « والبحث النظري الذي صاغ اهدافه بواسطة بعض التصورات النظرية يكتسب بذلك بعدا ايديولوجيا هذا رغم تحديده لواجبه على انه التحرر من كل (ثقل ايديولوجي)»(٣٢).

وهذا ليس في العلوم الانسانية وحدها ، بل حتى في العلوم الطبيعية « فالعالم الطبيعي يعمل باليد ما تبقى من تصورات ، في معظمها نتاج لفكر سالفه ... فلكل تجربة مهما كانت بسيطة ، تفسير يمكن على الاقل وضعه في اطار أي تصوير نظري سالف »(٣٣) .

ومن خلال ذلك يتبين لنا أن العلاقة بين العلم والايديولوجيا متلازمة بوثاقة غير منفكة ، رغم قيام تعارض حاد بين مرامي واغراض كل منهما ، حتى لنستطيع القول أن العلم والايديولوجيا كليهما يكاد يكون صورة للاخر ، وأن ند العلم الطبيعي ، بعض الشيء عن هذا الحكم الا انه لن يستطيع البتة الخروج عنه بشكل كامل تام ، وسيظل حتما أحد ميادين الممارسة الايديولوجية شاء ام ابى ، وهذا ما سنعرض له ونبينه بعد قليل .

٢ ــ منطــق العلاقــة

ولكن ما الاساس الذي يرتكز عليه هذا التلازم الوثيق بين العلم والايديولوجيا ؟ لاشك أن هذا الاساس يرتد بصورة مباشرة الى العلاقة الماثلة بين الذات والموضوع ، في العملية المعرفية ، حيث الذات هي العارف ، والموضوع هو المعروف ، وبنظرة استشرافية اولية يتجلى لنا بوضوح انه كلما كان الموضــوع مستقلا عن الذات أكثر دنا من الموضوعية والعلمية أكثر ، أو لنقل بصورة اخرى : كلما كان موضوع المعرفة مستقلا عن الذات العارفة ، كان بمأمن اكثر من تأثيرات الذات وتداخلاتها بمختلف صورها واشكالها .

آ ــ وهنا نجدنا امام ضربين من المعرفة العلمية ، هما اللذان درج الباحثون على تسميتهما بالعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أو الانسانية، وقد اكدت العلوم الطبيعية عبر مسيرتها الطويلة استقلاليتها شبه الكلية عن الذات العارفة بحيث لا نكاد نجد اي اثر واضح لتدخل الباحث أو الذات العارفة في سير المعرفة العلمية ، أو حتى فهمها بعيداً عن دلالاتها المتضمنة فيها ، إن الذات هنا « تقيس وتحسب وتستنتج على نحو يمكن لكل انسان التحقق منه، والتي تكون بالتالي فاعليتها الابستيمية مشتركة بين كل الذوات ، حتى إن استبدلنا بهذه الذوات آلات (اليكترونية) أو (سيبرنطيقية) زودت مسبقاً بمنطق وعلم رياضيات مشاكلين للمنطق وعلم الرياضيات اللذين تعدهما الادمغة البشرية ، ... وتاريخ الفيزياء كله هو تاريخ انفتاح أنقص الى أقل حد التشويهات الراجعة الى الذات المتمركزة في ذاتها كي يخضعها الى اقصى حد لقوانين الذات الابستيمية ، ومعنى هذا ان الموضوعية قد غدت ممكنة ، وأن الموضوع قد جعل مستقلا استقلالا نسبياً عن الذوات »(٣٤) .

ولقد بات من الواضح جداً أن أهم المقاييس التي يعول عليها للوقوف على مدى استقلال الموضوع عن الذات العارفة ، وبالتالي مدى موضوعية وعلمية المعرفة ، هو قدرة البحث العلمي على تقمص الطريقة الرياضية والتعامل بلغة الكم أو الارقام ، ولذلك سعى الكثير من الباحثين بجهود

حثيثة الى صياغة علومهم صياغة كمية وادماجها في صلب الطريقة الرياضية ، الا ان هذه الجهود لم تثمر الا في ميادين العلوم الطبيعية التي هي بالاصل مستقلة عن الذات العارفة .

ورغم هذه الاستقلالية للعلوم الطبيعية عن الذات العارفة ، ورغم خضوع ظواهرها للتجريب واعادة التجريب مرات متكررة ضمن ظروف وشروط تكاد تكون متماثلة ، بعيدة كل البعد عن الاهواء الايديولوجية ، فان معظمها لا يزال عرضة لميول الباحث واعتقاداته الى حد ما ، ولعل اكثرها طواعية للهوى الايديولوجي علم الحياة بمختلف فروعه ، ثم علم الفلك والكيمياء ، وحتى الفيزياء ، ولا سيما مع تعاظم انجازاتها وتشعب اختصاصاتها ، ولذلك فاننا لا نعدم حتى الآن من تفسيرات كثيرة لكثير من ظواهر ضروب العلم الطبيعي ، مرتبطة بعوامل ايديولوجية معينة .

ولو عدنا الى الوراء قليلا لوجدنا الامر متجلياً بشكل واضح ، فلقد كتب (لينين ـ ت ١٩٥٤) قائلا : لقد « فرضت الفيزياء الجديدة في المثالية لأن الفيزيائيين بشكل رئيسي ، وبالتحديد ، لم يكونوا ليعرفوا بالجدل (Dialectic) »(٢٥) ليؤكد لنا من خلال ذلك أنه لم يجد ما يصبو اليه لتدعيم ايديولوجيته في الفيزياء الحديثة .

ولقد كتب (انجلز) فيما قبل محاولا اظهار منهجه وايديولوجيته على انها الأصلح والأقدر على رؤية الواقع رؤية علمية موضوعية : « الجدل (Dialectic) تحديداً هو الذي يمثل الشكل الاكثر اهمية بالنسبة الى المعارف الطبيعية المعاصرة ، فهو ـ أي الجدل ـ فقط النظير (Analogi) ولهذا فهو الطريقة لتفسير عمليات التطور الجارية في الطبيعة وعلاقاتها العامة ، ولتفسير الانتقالات من مجال بحث الى مجال آخر »(٢٦) وانطلاقاً من هذه الرؤية ذاتها قرأ (انجلز) ظواهر علم الحياة وفسرها بمنطقه الجدلي بما يتفق وايديولوجيته المادية التاريخية ـ الطبيعية ، وقد توصل بهذا الصدد الى « الاستنتاج بأن الحياة لا بد أن تتعلق بوثوق بالبروتينات (الموجودة) على هيئة (الجبلة ـ (Protoplasm) » ولذا فقد عرض (انجلز) علم الأحياء على انه كيمياء البروتينات ، معبراً بميله هذا عن

فكرة انتقال أحد هذين العلمين الى الآخر ، وبالتالي انتقال أحد أشكال حركة المادة الى شكل آخر »(٣٧) .

ويبدو البعد الايديولوجي واضحاً جلياً في هذه القراءة لعلم الاحياء ، ولأن هذا العلم هو الاكثر طواعية للميل والهوى الايديولوجي فقد كان تربة خصبة لممارسات الايديولوجيات المختلفة ، وانطلاقاً من ذلك جاء (إ. ي. إيليين) احد الماركسيين المعاصرين ليقدم لنا قراءة ماركسية لعلم الأحياء ، فيقول في كتابه (البحث العلمي والصراع الفلسفي في (البيولوجيا ـ علم الأحياء) : وفي واقع الامر فان تاريخ علم الاحياء في العقود الاخيرة كان شاهداً على محاولات عديدة لبعث المدارس المثالية وأشباه المدارس في اطار علم الاحياء نفسه تحت لافتات جديدة ، غير ان المادية التاريخية ـ الطبيعية ـ تقف حجر عثرة في وجه محاولات إنشاء مدرسة (علم احياء) مثالية ذات تأثير ولو ضئيل ، مستخدمة في ذلك عربدة بعض علماء الأحياء المثاليين »(٣٨) .

ب ـ قلنا إن التجريب واحد من العوامل الاساسية التي توفر مناخاً ملائماً للموضوعية في العلوم الطبيعية ، من حيث امكانية اعادة التجربة ضمن ظروف تكاد تكون متماثلة تفرض ذاتها على الذات العارفة أياً كان انتماؤها الايديولوجي ، والحق أن التجربة واعادتها مرة فأخرى يقتضي عزل الواقعة المبحوثة عن جملة من الشروط المرافقة التي نعدها في البحث ثانوية ، هذا الى جانب امكانية التحكم بشروط التجربة ، ولكن ينبغي الا ننسى هنا « أن عزلنا لهذا الجانب ـ الواقعة ـ هو عزل مشروط ، إذ انه ليس كذلك في الواقع »(٣٩) .

ولعل في هذا ما يمكن ان نعده ثغرة تنفذ منها الايديولوجيا ـ ضمن حدود معينة ـ ذلك ان اعادة احداث الواقعة مخبرياً بشروط مماثلة تماماً للشروط الواقعية التي حدثت وتحدث فيها ، أمر مستحيل تماماً ، على الاقل في افق الامكانيات العلمية القائمة والمتاحة حالياً .

وإذا كانت « اعادة انتاج اي جانب من الحقيقة المزمع بحثها بشكل معزول امراً مقبولاً في العلوم الطبيعية ـ فإن ـ خاصية البحث الاجتماعي

تكمن في استحالة عزل اية حقيقة ، أو اي جانب من جوانبها دون المخاطرة باقتلاع هـذه الحقيقـة من الظاهرة الاجتماعيـة عن مجمل الظواهـر الاخرى »(٤٠) « ذلك أن العلوم الانسانية ـ الاجتماعية ـ لما كان موضوعها الانسان في فاعلياته التي لا تحصى ، ولما كانت معـدة من قبل الانسـان بفاعلياته المعرفية ، تجد نفسها وقد وضعت في هذا الوضع الخاص ، موضع توقفها على الانسان بوصفه في آن واحد ذاتاً وموضوعاً ، ممـا يثير سلسلة من المسائل الخاصة الصعبة ، وهذا امر مسلم به »(٤١) .

ولعل اهم هذه الصعوبات وابرزها هي التي تتجلى في عدم مقارنة اليقين والموضوعية ، والانفتاح الكبير امام الممارسة الايديولوجية ، ذلك ان الاندماج بين الذات العارفة وموضوع المعرفة ، بين العارف والمعروف، يعني طواعية موضوع المعرفة ومرونته الكبيرة امام تأثيرات الذات العارفة، وقابليته للانقياد السهل امام هذه الذات التي ستفرض عليه توجهاتها وميولها الايديولوجية بصورة او باخرى .

إن معاناة العلوم الانسانية على هذا الصعيد معاناة مزدوجة ، فهي بقدر ما تعاني من انفتاح وتخلخل امام الاهواء الايديولوجية ، تعاني ايضا من انغلاق ـ بقدر ـ امام الموضوعية ، او لنقل إن المعاناة الثانية تتمثل بصعوبة الانفتاح امام الموضوعيـة « وذلك لسببين كلاهما منهجي الى حد ما ، الاول هو أن الحد الفاصل بين الذات المتمركزة في ذاتها والذات الابيستيمية يقل وضوحه بمقدار ما ينخرط انا الملاحظ في الظواهر التي يجب ان يكون قادراً على دراستها من الخارج ، والثاني هو ان الملاحظ يحمل بمقدار ما يكون « معنياً » وبمقدار ما ينسب قيماً الى الوقائع التي تهمه ، على الاعتقاد بانه يعرفها معرفة حدسية ويقل بقدر ذلك إحساسه بضرورة التقنيات الموضوعية »(٤٢) .

هذا الجانب الاول من الصعوبات التي تعرقل انفتاح العلوم الانسانية على الموضوعية وتيسر هذا الانفتاح امام التأثيرات الايديولوجية ، وقـد سميناه الجانب المنهجي ، ولكن ثمة جانب آخر من الصعوبات هو ما يمكن ان نسميه الجانب التجريبي ، وقد اشرنا قبل قليل الى ان التجريب في

العلوم الطبيعية أمر يسير وسهل ، وإن وجد أمامه من صعوبات فهي صعوبات تقنية لا اكثر ، اما وضع « علوم الانسان فهو أكثر تعقيداً بكثير ، لأن الشخص الذي يلاحظ ذاته أو يجري تجارب عليها ، أو على الآخرين يمكن ، من جهة ، أن تغيره الظواهر الملاحظة ، أو ان يكون من جهة أخرى، منبعاً لتغيرات تطرأ على هـذه الظواهر من حيث انبساطها وطبيعتها بالذات . وتبعاً لمثل هذه الاوضاع ، إنما يخلق كون المرء في آن واحـد ذاتاً وموضوعاً »(٤٣) .

والحق أن « صعوبات التجريب هذه ليست خاصة ــ فقط ــ بعلوم الانسان . ولا تنجم كلها عن كون موضوع الدراسات هو أن جماعة الملاحظ جزء مكمل لها ، أو يمكن ان يكون كذلك ، الصعوبة أولا هي من طراز آخر أعم وسببها استحالة التأثير في موضوعات الملاحظة كما نريد عندما تكون هذه الموضوعات قائمة في سلالم أعلى من الفعل الفردي »(٤٤) .

٣ ــ الأيديولوجيا تعرقل العلم :

ولكن حق لنا أن نتساءل الآن ، انطلاقاً من هيمنة الايديولوجيا على تصورات الباحث وتحليلاته ومنهجيته « هل يمكن حقاً تصور أن البحث ، حتى الخالص أو الاساسي حيز مميز في (منأى) من كل تأثير ايديولوجي ، بينما هو واقع بين حيزين آخرين ــ التأهيل الذي يتلقاه العالم وظروف العمل الميسرة له من جهـة ، والتأويل المعرفي أو الفلسفي والاستخدام التقاني Technology لأعمالـه التي تخضـع بالتأكيـد للتأثيرات الأيديولوجيـة ؟ »(٤٥) .

رغم أنه « يبدو متعـذراً تصور إصابة الفكـر العلمي بعـدوى من ايديولوجيات سياسية أو دينية أو اجتماعية أو اقتصادية ــ إلا أننـا لا نستطيع أن ننكر البتة أن هذه الايديولوجيات ــ تؤثر على التعليم الذي يتلقاه عالم المستقبل ــ كما تؤثر أيضاً ــ على ظروف ممارسة التطبيقات العلمية ، لكننا نجزم أن ما من محكمة تفتيش قدرت أن تمنع (غاليلية ــ ١٥٦٤ ــ ١٦٤٢) من السير في اكتشاف قوانين الحركة (Mechanics)

السماوية »(٤٦) ولا ان تمنع اية سلطة ايديولوجية اخرى غيره من الباحثين والعلماء من تسجيل الاكتشافات والاختراعات المختلفة على اختلاف وتباين صعد العلم .

هذه حقيقة لا يمكن التنكر لها البتة ، ورغم جلاء هذه الحقيقة وسطوعها فإننا لا نستطيع ان ننكر ايضاً ان ثمة ممارسات ايديولوجية تحريفية تحاول ان تطال العلم ، إذ « ان النظر الى رغباتنا على انها حقائق هوكنه المسعى الايديولوجي ، فالايديولوجيا أياً كانت تضعنا في عالم امين اخلاقياً مريحعقلياً حيث تصرفاتنا مبررة ورغباتنا مسوغة »(٤٧).

ولذلك تسعى الايديولوجيا الى صياغة النتائج العلمية — بصورة أو باخرى — بما يتفق معها ويعززها ، ولان طبيعة البحث العلمي تشرئب دوماً الى إقصاء تأثيرات الذات العارفة كان « هناك اذن تأثير غير مباشر للأيديولوجيا على البحث العلمي بواسطة الثابات (التقانية) المفروضة على العالم . والوسائل الموضوعة في تصرفه »(٤٨) .

والى جانب هذه التأثيرات التحريفية التي نستطيع ان نسميها بانها لاشعورية ، هناك تأثيرات تحريفية شعورية ، هي الأخطر ما في الموضوع ، حيث يلجأ الباحث الى تزوير الحقائق العلمية بصورة متعمدة ومباشرة . وينقلها بعد هذا التزييف على انها حقائق علمية قاد اليها البحث والتجريب ، وكثيراً ما يحدث مثل هذا ، ومن امثلة ذلك ما فعله العالم الألماني (هيكل — ١٩١٩ — E. Heackel) الذي « زوّر مرة في صورة لجنين حيوان حتى تبدو قريبة الشبه بجنين الانسان ، فيثبت بهذا نظريته في التطور »(٤٩) ومن الامثلة الساطعة على ذلك ايضاً « تنشيط اجهزة المخابرات الامريكية لدراسات (علم الاناسة — Anthropology) حول الشعوب المتخلفة »(٥٠) متطلعة من وراء ذلك الى اغراض متعددة لعل اهمها تعزيز هيمنتها على هذه الشعوب بتكريس تخلف هذه الشعوب عبر آلية داخلية نابعة من اعتقاد هذه الشعوب بأنها متخلفة بالطبيعة والخلقة ولن ينفعها سعي ولا جيد الخروج من هذه البوتقة .

وبالاستنادالى ذلك لا يمكننا إلا ان نوافق (باربون) على انه قد «كشف

المشروع الايديولوجي عن قصره في استيعاب الواقع وفهمه ، والاسهام في بناء صرحه وتكوينه »(٥١) .

٤ ـ حاجة الايديولوجيا للعلم :

كما أن الأيديولوجيا آلية تأثيرية مزدوجة ، شعورية ولاشعورية ، كذلك فإن استفادة الايديولوجيا من العلم ذات آلية مزدوجة ، مباشرة وغير مباشرة ، فهي إما أن توجه دقة البحث العلمي ليصل الى نتائج تعززها وتؤكدها ، وهذه الاستفادة المباشرة ، وهي نابعة من صميم خصائص الايديولوجيا ، وقد ميز (كارل لونشتاين) الايديولوجيا انطلاقا من هذا المعنى بعنصرين أساسيين «حيث يرى انها تشتمل عنصرا نظريا وعنصرا عمليا ، لكي يصل من هذا الى أن نشوء الايديولوجيا يقتضي تحويل العنصر النظري الذي تستمده أساسا من النظريات الفلسفية الى نظرة شاملة للعالم ، وذلك حين يقوم بتحويل هذه النظريات الى عقائد جامدة ، وتجريها على نحو قاطع دافع ، كما انها تتشبث بها وتعتنقها كالعقائد الايمانية »(٥٢) .

أما الاستفادة غير المباشرة فتتمثل في تسقط الايديولوجيا للنتائج العلمية التي تدعمها وتعزز مواقفها ، دون أن يقصد أصحابها بالاصل أي موقف ايديولوجي (فبافلوف ـ ١٩٣٣ ـ E. P. pavlov) مثلا الذي « اكتسبت دراساته أهمية كبيرة جداً في اوساط الجدل (Dialectic) السوفياتي كان كثيراً ما يكرر أنه يجهل كل شيء عن هذه الفلسفة ، ولم يكن لهذا الامر أية أهمية إذ أن آثاره تحتمل منهجية متحققة بالفعل اخذ آخرون على عاتقهم استخلاصها استخلاصاً تاملياً »(٥٣) .

والحقيقة أن حاجة الايديولوجيا للعلم مرتبطة بآلية معينة ومحددة يفرضها موقع الايديولوجيا ومكانتها إزاء ذاتها اولا ، وفي مواجهة الايديولوجيات الاخرى المنافسة والمناهضة ، ويمكننا ان نجمل مركبات هذه الآلية بالعناصر التالية :

١ ـ تعزيز الوحدة : ان كل ايديولوجيا بحاجة ماسة ودائمة الى

تعزيز وحدتها وتماسكها الداخلي كيما تستطيع الصمود والبقاء و « حاجة الايديولوجيا الى تعزيز وحدتها باستمرار ودعم قوتها في الاخضاع تلزمها بصراع دائم ضد (الهراطقة) هؤلاء الاعداء الداخليين ، فالهرطقة تؤدي وظيفتين : انها ، من جهة ، تتيح للايديولوجيا أن تدخل التغيير بأن تنفيه بما هو كذلك وتخفيه على وجه الدقة في التأكيد على مساسية القول المقدس الذي ينبغي السهر على طهارته من أولئك الذين زلوا ؛ وهي من جهة ثانية ، تبيح لجهاز ايديولوجي تهدد الشيخوخة ملاكه أن يتجدد »(٥٤) ولتحقيق هذا الغرض فهي بحاجة لا الى العلم وحده بل الى مختلف ضروب المعرفة .

ب ــ تأكيد العصمة : ونعني بذلك ان الايديولوجيا بحاجة دائما الى ان تظهر امام افرادها خصوصا ، والآخرين عموما ، على أنها هي الرؤية الصحيحة الصادقة التي تفسر ظواهر الكون والحياة تفسيرا صحيحا معصوما من الغلط والاغراض والهوى ، « وبالنظر الى أن الواجب على الايديولوجيا أن تؤكد عصمتها ، فانه لا يمكنها ان تبحث عن شرح لخيبات املها في تحليل الذاتيا ، وفي عدم التطابق بين قوتها ومسلكها .

انها مسوقة بالتالي الى ان تختار فكرة عدوان العدو والتآمر على أنها الشرح . انها لارادة عدوة وخبيثة تلك التي تشرح كل شيء . فثمة هنا سيرورة شبيهة بالحاكمة الذهانية، (الهذيانية) ، التي ترى دائما في الخارج سبب نزاع داخلي محجوب ، وتبسط ضربا من (الجدل) اللا محدود في الاضطهاد الذي يتصف فيه فعل الآخر ، أيا كان هـذا الفعل ، بانه كاشف عن نفاقه ، فالصراع ضد عدو خارجي وتحويل التمزق الداخلي الى عداوة خارجية ودعم وحدة القول على هذا النحو ، ــ ذلك هو هوى الايديولوجيا »(٥٥) وهذا ما يصعب تحقيقه أيضا الا باجتذاب الحقائق العلمية التي تتفق مع هذه الايديولوجيا ، والمغالاة في اظهارها ، والاستفاضة في الحديث عن مدى تأكيدها وتوافقها مع هذه الايدلولوجيا ، واظهار الخصوم على أنهم يشوهون العلم ويعبثون بالحقائق العلمية بسبب بطل دعواهم وزيف مبادئهم وافكارهم .

ج ـ **الهيمنة النفسية** : « ان حاجة الايديولوجيا الى ان تضفي الطابع النفسي على كل شيء نتيجة طبيعية لهذه السيرورة ، فاذا كانت كوارث صلاتها مع العالم تحيل الى شيء آخر غير العمل المخرب للعدو ، فانها سترى ان قيمة تحليلها موضوعة موضع التساؤل »(٥٦) وخير وسيلة تحول دون اثارة التساؤلات هي أن تدخل الايديولوجيا الى نفوس افرادها بصورة محببة ومقنعة كيما تهيمن على هذه النفوس وتبعد عن ذاتها اخطار الشكوك والتساؤلات ، ونفاذ الايديولوجيا الى نفوس الافراد يتطلب منها ان تلبس اللبوس المحبب المقبول ، الذي يرضي ميول هؤلاء الافراد من جهة ، وان تكون مقنعة من جهة ثانية ، وحتى تكون مقنعة لا بد لها ان تلبس لبوس العلم ، وتستشهد لتدعيم ذاتها بالحقائق العلمية الدامغة ، او حتى الادعاء بأنها دامغة كيما يسلم بها الأفراد دون ادنى مناقشة أو جدال .

د ـ **عقلنة ذاتها** : ان وحدة الايديولوجيا وتماسكها على هذا النحو لا يعدو كونه وحدة بصلات هشة وتماسكا بروابط واهية ، اي ان هذه الوحدة وهذا التماسك غير مقبولين ولا معقولين ... كل ايديولوجيا بقدر وحدود تزاد وتنقص من ايديولوجيا الى اخرى ـ ولذلك فان كل ايديولوجيا بحاجة ماسة الى أن تضفي على ذاتها طابع العقلانية ، وانها ليست ضربا من الخيال أو التوهم . او الابتعاد عن اساليب المعالجة والتحليل العقلية ، وهذا يعني بالضرورة حاجة الايديولوجيا الى الاستناد الى الحقائق العلمية والتعويل عليها في شرح ذاتها وتبيانها لافرادها وللآخرين .

بل ان كل ايديولوجيا تسعى جاهدة لتؤكد ان النتائج والحقائق العلمية تنهد لتصب في معينها وتتجه لتؤكد صحة ودقة مبادئها وافكارها . ولولا تحريف الخصوم لكانت قد حققت ذلك منذ زمن بعيد ، وبهذا المعنى يرى (لينين) انه « على الرغم من ان ايا من المدارس الطبيعية في اي مجال من مجالات المعرفة الطبيعية لم تستطع الارتفاع الى مستوى المادية (الجدلية) مباشرة وتوا . فان الفيزياء المعاصرة هي التي تقوم بهذه

الخطوة ، وسوف تقوم بها ، بيد أنها ــ ولانها ولدت في حضن المثالية كما يرى ــ لا تخطو الطريقة الصحيحة الوحيدة ، نحو المعرفة الطبيعية الوحيدة مباشرة ، بل مداورة ، ليس عن وعي بل بعفوية ، ودون أن ترى بوضوح هدفها النهائي : بل هي تقترب منه متلمسة اياه ومترنحة حتى الارتدادات الى الوراء . ان الفيزياء المعاصرة منطرحة تعاني مخاضا ، انها تلد المادية (الجدلية) »(٥٧) .

٥ ــ حاجة العلم للايديولوجيا :

قد يبدو من قبيل المفارقة ان نقول ان العلم بحاجة الى الايديولوجيا وقد سبق واشرنا قبل قليل الى ان الايديولوجيا تلعب دورا بارزا في كثير من الأحيان في عرقلة مسيرة العلم وحرفه عن مساره الحقيقي ، والحق ان تعقد العلاقة وتشابكها بين الايديولوجيا والعلم يجعل الحديث عن هذين الدورين المتناقضين حديثا مسوغا ومشروعا ، لأن هذا ما يشهد به الواقع ويؤكده ، ذلك ان « الايديولوجيا لا تؤدي بالضرورة الى انطماس الصورة الواقعية لموضوع التفكير وان العلاقة بين الايديولوجيا والمصلحة لا تحول بالضرورة دون اكتشاف ماهية الظواهر المدروسة »(٥٨) .

وكلما كان الباحث متجردا أكثر ، ميالا الى الموضوعية ، نزاعا الى عدم التدخل في سيرورة البحث العلمي : وكلما كان موضوع البحث مستقلا أكثر عن الذات العارفة ، كان الوصول الى الدقة ممكنا أكثر ، وبغض النظر عن كل ذلك فان « العلم ينمو بوصفه عملية معرفية اجتماعية في شروط تاريخية واجتماعية وسياسية وفكرية معينة . ويمكن القول ان لهذه الشروط حدودا وآفاقا وامكانيات يتعذر تخطيها »(٥٩) وكأن نمو العلم بذلك مرتبط بالغايات الايديولوجية ، والشروط والظروف المشخصة المحيطة بهذه الايديولوجيا ، وليغد التطور العلمي جزءاً من آلية كل ايديولوجيا شاءت ام ابت ، وهذا حق لان « المعرفة في المجال الاجتماعي لم تجر الا من موقع او تطلع اجتماعي معين ، والتقدم العلمي ينتجه . اناس حياديون مترفعون عن صراعات عصرهم وهموم البشرية ومصالحها ، بل بالدرجة الاولى أولئك الذين يحملون في صدورهم مطامح

وعواطف كبرى وفي رؤوسهم مثلا عليا محركة . ويمثلون مطامح فئات اجتماعية ويعملون للدفاع عنها »(٦٠) .

وبالاستناد الى هذه الفكرة ذاتها والى ان عملية المعرفة بحد ذاتها تمثل صراعا بين الذات الباحثة والواقع او موضوع المعرفة ، يمكننا القول « ان عملية المعرفة وسر ولادة الافكار تمثيان صراعا فاجعيا (Dramatic) ليس بين الواقع وبين محاولاتنا ادراكه فحسب ، بل بين هذه المحاولات نفسها وبين الافكار ، التي هي بمثابة نتائج للمحاولات ، كما وينشب صراع المعرفة البشرية العظيمة باعتباره بحثا عن الحقيقة واستكمالا لحوار علمي يبلغ من العمر (آلاف) السنين ، وصراعا متقدا بين الافكار ، توجهه وتحرض عليه عوامل ليست دائما جوهرية في العلم »(٦١)

« وهكذا يغدو التعدد الايديولوجي نفسه شرطا ملائماً لتقدم البحث العلمي ولاجراء انفتاحات تحد من دور العوامل الحقيقية لعملية البحث العلمي ، فالمشكلة ليست في تحرير العلم من التقويم والايديولوجي الذي يتضمن ولا شك ما لا يدخل في اية معرفة علمية ، بل في ادراك ان الموضوعية العلمية لا تقتضي قطع الصلة بكل تقويم ايديولوجي ، وان التقدم العلمي مرتهن بحوافز ايديولوجية مناسبة ، وان كانت خارجية بالنسبة للحركة المنطقية لعملية البحث العلمي »(٦٢) **ولذلك فاننا نستطيع القول بحق : لا علم بلا أيديولوجيا ، ولا أيديولوجيا بلا علم ، فالايديولوجيا تلد العلم والعلم يلد الايديولوجيا في الوقت ذاته ،أو لنقل إن كليهما يخرج الآخر من ذاته ليحتضنه ويحيطه ببالغ رعايته وعنايته .**

هوامش البحث :

(١) كارل مانهايم ـ الايديولوجيا والطوباوية ـ ترجمة عبد الجليل ضاهر ـ بغداد ـ ١٩٦٨ ـ ص ١٢٦

(٢) رشيد مسعود ـ ملاحظات حول الفهم الفلسفي للايديولوجيا ـ مجلة الفكر العربي العدد ـ١٥ـ ١٩٨٠ ـ ص ٥٥ .

(٣) رشيد مسعود ـ مادة الايديولوجيا ـ الموسوعة الفلسفية العربية ـ المجلد الأول ـ المصطلحات والمفاهيم ـ معهد الانماء العربي ـ ١٩٨٦ ـ ص ١٥٩ .

(٤) عبد الله العروي ـ مفهوم الايديولوجيا ـ دار الفارابي ـ المركز الثقافي العربي / الدار البيضاء ـ ١٩٨٠ ـ ص ٢٣ .

(٥) م.س ـ ذاته

(٦) كارل مانهايم ـ م.س ـ ص ١٣٦ .

(٧) عبد الله العروي ـ م.س ـ ص ٣٩ .

(٨) ميشيل فادية ـ الايديولوجيا . وثائق من الاصول الفلسفية ـ ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي ـ دار التنوير ـ بيروت ـ ١٩٨٢ ـ ص ٢٢ .

(٩) م.س ـ ص ٤٣

(١٠) عبد الله العروي ـ م.س ـ ص ١٢ ـ ١٣ .

(١١) ياكوب باريون ـ ماهي الايديولوجيا ؟ ـ ترجمة أسعد رزوق ـ الدار العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧١ ـ ص ٧٦ ـ ٩٩

(١٢) عبد الله العروي ـ م.س ـ ص ١٠ .

(١٣) كارل ماركس وفريدريك انجلز ـ الايديولوجيا الالمانية ـ ترجمة فؤاد أيوب ـ دار دمشق ـ دمشق ـ ١٩٧٦ ـ ص ٥٦ .

(١٤) ميشيل فادية ـ م.س ـ ص ٩٣ .

(١٥) الايديولوجيا الالمانية ـ م.س ـ ص ٥٧ .

(١٦) لويس ألتوسر ـ الايديولوجيا وأجهزة الدولة الايديولوجية ـ ضمن كتاب : دراسات لا انسانوية من لويس ألتوسر وجورج كانغيلم ـ ترجمة سهيل القش ـ الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨١ ـ ص ١١٧ .

(١٧) التوسر ـ م.س ـ ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(١٨) م.س ـ ص ١١٨ .

(١٩) ياكوب باريون ــ م.س ــ ص ١١٥ .

(٢٠) الموسوعة الفلسفية العربية ــ م.س ــ ص ١٦١ .

(٢١) ميشيل هادية ــ م.س ــ ص ٢ .

(٢٢) اندره ٢كون ــ الايديولوجيا ــ ضمن كتاب « المجتمع الحديث » ترجمة وجيه اسعد ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٨٣ ــ ج٢ ــ ص ٢٠٤ .

(٢٣) أبو البقاء الكفوي ــ الكليات ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ج٣ ــ ١٩٨٢ ــ ٢٠٤ .

(٢٤) الكفوي ــ الكليات ــ ج٤ ــ ١٩٨٢ ــ ص ٢٩٦ .

(٢٥) صادق جلال العظم ــ مناهج البحث في العلوم التجريبية ــ مطبعة خالد بن الوليد ــ دمشق ــ ١٩٨١ ــ ص ٦ ــ ١٧ .

(٢٦) جيرار بوي ــ العلم والايديولوجيا ــ ضمن كتاب الايديولوجيات في العالم الحاضر ــ ترجمة صلاح الدين برمدا ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٨٣ ــ ص ٤٢ .

(٢٧) م.س ــ ذاتـه .

(٢٨) ياكوب باريون ــ م.س ــ ص ٧٨ .

(٢٩) لويس ألتوسير ــ من رأس المال الى فلسفة ماركس ــ ضمن كتاب : قراءة راس المال ، باشراف لويس التوسير ــ ترجمة تيسير شيخ الارض ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٧٢ ــ ج١ ــ ص ٧٥ .

(٣٠) صلاح قنصوه ــ الموضوعية في العلوم الانسانية ــ دار التنوير ــ بيروت ط٢ ــ ١٩٨٤ ــ ص ١٨٦ .

(٣١) م.س ــ ص ٦٣ .

(٣٢) م. أندرييف ــ الدور المنهجي للنظرية في مختلف مراحل البحث الاجتماعي ــ مجـلة الفكر العربي ــ العدد /٦/ ــ ١٩٧٨ ــ ص ١١٥ .

(٣٣) م.س ــ ص ١١٤ .

(٣٤) جان بياجه ــ وضع علوم الانسان في منظومة العلوم ــ ترجمة الدكتور اسعد عربي درقاوي ــ ضمن كتاب : الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والانسانية ــ وزارة التعليم العالي ــ دمشق ــ ١٩٧٦ ــ ج١ ــ ص ٩٠ .

(٣٥) إ. ي. ايلين ــ البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا ــ ترجمة محمد احمد شومان ــ دار الفارابي ــ بيروت ــ ط١ ــ ١٩٨٤ ــ ص ٢٠ .

(٣٦) م.س ــ ص ١٧ .

(٣٧) م.س ــ ص ٢٢ .

←

(٣٨) م.س – ص ٣٧ .

(٣٩) م. اندرييفا – م.س – ص ١١٦ .

(٤٠) م.س – ذاتـه .

(٤١) جان بيـاجـه – م.س – ص ٨٩ .

(٤٢) م.س – ص ٩١ .

(٤٣) م.س – ص ٩٠ – ٩١ .

(٤٤) م.س – ص ١٠٤ .

(٤٥) جيرار بوي – م . س – ٤٩ .

(٤٦) م.س – ص ٤٨ .

(٤٧) جان – وليام – لابيير – ما معنى الايديولوجيا – ضمن كتاب الايديولوجيات في العالم الحاضر – م.س – ص ١٧ .

(٤٨) جيرار بوي – م.س – ص ٤٨

(٤٩) د. توفيق الطويل – أسس الفلسفة – دار النهضة العربية القاهرة – ط٦ – ١٩٧٦ – ص ٢٠٧ .

(٥٠) د. نايف بلوز – مناهج البحث في العلوم الاجتماعية – مطبعة الداودي – دمشق – ١٩٨٤ – ص ٢٤١ .

(٥١) ياكوب باريون – م.س – ص ٢٠ – ٢١ .

(٥٢) م.س – ص ١١٠ .

(٥٣) جان بياجه – م.س – ص ١٢٢ .

(٥٤) آندره آكون – م.س – ٢٢٩ .

(٥٥) م.س – ص ٢٢٩–٢٣٠ .

(٥٦) م.س – ص ٢٣٠ .

(٥٧) ا. ي. ايليين – م.س – ص ٢٠ .

(٥٨) د. نايف بلوز – م.س – ص ٢٣٩ .

(٦٠) م.س – ص ٢٤١ .

(٥٩) م.س – ص ٢٣٧ .

(٦١) ا. ي. ايليين – م.س – ص ١٠ .

(٦٢) نايف بلوز – م.س – ص ٢٤٢ .

* * *

الطاقة الهائلة للإنسان وتحديات العصر

عبد اللطيف زرنه جي

١ ـ المقدمة :

يجمع العلماء والمؤرخون والفلاسفة والباحثون على ان اعظم ما في هذا الكون هو الكرة الارضية ذلك الكوكب الفضي الجميل ، الذي تكون منذ زهاء ٥ر٤ مليار سنة وان اعظم ما على هذا الكوكب هو الانسان سيد الكائنات الحية الذي وجد منذ نحو ٤ مليون سنة

ـ عبد اللطيف زرنةجي : باحث من سورية ، يعمل في مجال الهندسة ، له عدد من الأبحاث في تقنيات التصنيع في الوطن العربي ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية.

وان اعظم ما في الانسان بل يفوق جميع الاختراعات هو الدماغ البشري الذي تطور عبر عصور طويلة تمتد حتى ٢ مليون سنة خلت .

لقد كان الدماغ البشري في العصور القديمة بسيطا في تركيبه ووظائفه ثم تطور ببطء وبعدئذ بسرعة واخيرا أخذ بالتسارع مع زيادة عدد السكان وتطورهم الى أن وصل الى ما هو عليه الآن من تقدم ورقي .

برغم كل هذا التطور فان العصر الحديث يسأل عن مزيد من قدرات الدماغ من حيث الادراك والتصور والتذكر والتفكير واسترجاع المعلومات بالاضافة الى تنمية الذاكرة والقدرة على التحليل والاستنتاج مقابل مطالبة متواضعة للعضلات وضرورة تحويلها الى مهارات واسعة وانامل رشيقة ، ويتصور كثير من العلماء المعاصرين ان الانسان في القرن القادم سيكون ضخما بقدراته الدماغية والعقلية متواضعا بطاقاته البدنية والعضلية ، وفي جميع الاحوال فان الانسان عموما يمتلك قدرات هائلة دماغية وبدنية فاقت جميعها التطور والارتقاء .

ولكي نتعرف على قدرات دماغ الانسان لا بد أولا من التعرف على جوانب من بنيته وبعض خواصه .

٢ ـ بنية الدماغ البشري وخواصه :

تعد كتلة دماغ الانسان بالنسبة الى كتلة جسمه اعلى النسب بالنسبة الى مختلف الكائنات الحية والجدول التالي يوضح ذلك :

الكائن	متوسط كتلة الدماغ	نسبة كتلة الدماغ	الى كتلة الجسم
الانسان	١٣٧٥ غ	١	٥٠ :
الدلفين	١٤٠٠ غ	١	١٠٠ :
الشمبانزي	٣٨٠ غ	١	١٥٠ :
الغوريلا	٥٤٠ غ	١	٥٠٠ :
الفيل	٧ كغ	١	١٠٠٠٠ :
الحوت	٩ كغ	١	١١٠٠٠ :

نلاحظ من الجدول السابق ان كتلة دماغ الانسان بالنسبة الى جسمه هي ٢٪ وبالاضافة لذلك تقدر عدد خلايا الدماغ البشري بين ١٢ ــ ١٤ مليار خلية عصبية (عصبون) فعندما يولد الطفل تكون كتلة دماغه ٣٥٠ غرام ويشكل ذلك نحو ١٢٪ بالنسبة الى كتلة جسمه اي ستة اضعاف نسبة الكتلتين عند البلوغ وبمعنى آخر فان الطفل يولد بدماغ كبير وجسم صغير ثم ينمو دماغ الطفل بسرعة خصوصا في ثلاث السنوات الاولى من عمره ، اذ عندما يبلغ الطفل عامه الاول تصل نسبة كتلة الدماغ الى الجسم ٦٪ وتتحول هذه الخلايا تدريجيا من خلايا منفصلة الى خلايا متصلة وكأنها تمد أيديها لبعضها لتبادل المعلومات وتصل بعد ٦ اشهر من الولادة الى ٥٠٪ من القدرة التي تكون عادة لدى البالغين وعند السنة الثالثة تكون قد بلغت ٨٠٪ وهي على استعداد لاستقبال كل المعلومات المحيطة بعالمها الخارجي وعند دخول الطفل المدرسة في عمر يكون عادة ٦ سنوات يكون دماغ الطفل قد وصل الى ٩٠٪ من كتلته النهائية عند البلوغ ، بينما يكون جسم الطفل بحدود ٢٠٪ من كتلته عند البلوغ ، وبدءا من مرحلة الشباب تكون الخلايا قد وصل عددها الى ١٢ ــ ١٤ مليار خلية وتتصل كل خلية بزهاء ١٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠ خلية اخرى ، كما يقدر طول أعصاب الانسان التي هي بمثابة اسلاك نقل المعلومات والاوامر في اجهزة الاتصالات نحو ١٠٠ الف كم كما تصل سرعة نقل المعلومات والاوامر العصبية الى ٣٠٠ ميل بالساعة ويتميز الدماغ بالشراهة للاوكسجين حيث يستهلك ٢٠٪ من كامل حاجة الجسم وكذلك للدم حيث يأخذ ١٥٪ من كامل دم الانسان وبرغم ذلك فان الاستطاعة التي يستهلكها لا تتعدى ١٠ واط بالاضافة لذلك فانه من حيث التعقيد يستطيع ان يخزن في ذاكرته ١٢٥ مليون وحدة معلومات اي ما يعادل المعلومات التي جمعت وسجلت عبر التاريخ كافة واذا اردنا أن نفحص كل خلية على حدة ولمدة دقيقة لاحتاج الامر الى ٤٠٠٠٠ سنة ، كما تجدر الاشارة الى ان الدماغ يفقد كل ساعة ١٠٠٠ خلية عصبية بدون تعويض اي يخسر خلال حياة الانسان أكثر من ٥٠٠ مليون خلية ويبقى في حالة عمل ، كما أنه من المعروف ان خلايا

الدماغ لا تتعب ولا تتوقف عن العمل ولا تحتاج عموما الى اصلاح طيلة مدة الحياة ، وتمتاز بالمرونة والوثوقية والاقتصادية المذهلة في استهلاك الطاقة ، ويعاب عليها انها بحاجة عادة الى استراحة طويلة ، كما ان سرعة العمل والدقة محدودتان .

لقد كان الدماغ البشري على الدوام المثل الاعلى لكل المصممين ولا سيما في مجال الحاسبات الالكترونية والتحكم وقد حاول العلماء البحث عن ذاكرة تشبه ذاكرة الانسان منذ تصميم أول حاسب الكتروني عام ١٩٤٥ فوجدوا ما يلي :

كي نصنع جهازا يشبه الدماغ البشري (بدون امكانية الابداع والخلق) فان الجهاز المطلوب اذا صنع بحسب الجيل الاول من الحاسبات (جيل الصمامات) فانه يجب ان يكون بحجم باريس ونحتاج الى تشغيله الى القدرة الكهربائية المتوفرة حاليا في شبكة مترو باريس ، واذا اردنا ان نصنع ما يقابله من الجيل الثاني للحاسبات (جيل الترانزستورات) فانه يتطلب مبنى بحجم دار الاوبرا في باريس ونحتاج عندئذ الى محطة كهربائية باستطاعة ١٠ ميغاواط .

اما اذا اردنا صنعه بحسب الجيل الثالث للحاسبات (جيل الدارات المتكاملة) فان حجمه سيصبح بحدود سيارة شحن ويمكن تغذيته عندئذ من التيار الكهربائي العام وبفضل الجيل الرابع للحاسبات اصبح حجمه بحجم التلفزيون وفي عام ١٩٧٨ لم يعد يزيد حجمه عن حجم الآلة الكاتبة وابتداء من مطلع الثمانينات اصبح اصغر حجما من الدماغ البشري نفسه .

٣ ــ امثلة على الطاقات المتميزة للانسان قديما وحديثا :

ان طاقات الانسان قد تغيرت وتبدلت كما ذكرنا آنفا عبر مراحل التاريخ المختلفة ، حيث كانت القوة العضلية للانسان القديم هي اكثر ما يهمه ويميزه والامثلة على ذلك كثيرة منها القدرات البدنية الهائلة لهيرقل وعنترة وامتاز آخرون بقدراتهم القيادية مثل يوليوس قيصر

واسكندر المقدوني حتى يقال انهما كانا يعرفان جنودهما فردا فردا برغم ان عدد هؤلاء الجنود كان ضخما يصل الى ٣٠ الفا ، كما يجب أن لا ننسى قدرات البطل العربي الكبير خالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبي وقدراتهما الهائلة على القيادة واحراز النصر في الحروب وفي العصر الحاضر يوجد أناس بقدرات متميزة ، كما نراهم على سبيل المثال في البرنامج التلفزيوني (امور لا تصدق) ومن بين هؤلاء الابطال بطل ماليزيا « ر. لتشماناه » الذي تمكن في عام ١٩٨٩ من جر طائرة بوينغ ٧٢٧ لمسافة ١٥ متر مربع بواسطة شعره وهنـاك بعض الامثلة على القدرات الذهنية المتميزة للانسـان ، اذ عندما كلف أحد الناشرين الرسام الفرنسي الشهير (غوستاف دوريه) رسم صورة لاحد مناظر جبال الالب ، انصرف هذا الرسام من دون ان يأخذ الصورة معه ، لكنه عاد بعد ايام وقد رسم الصورة بشكل مطابق للصورة الاصلية تماما ومن المعروف أيضا أن افضل صورة للرئيس الامريكي « لنكولن » قد رسمها احد المعجبين الريفيين الذي رأى الرئيس لمرة واحدة فقط ، كما يروى عن الموسيقار « موتسارت » انه سجل بكل دقة سيمفونية طويلة معقدة سمعها مرة واحدة ، كما كان يمقدور العازف الكبير « رحمانيفوف » ان يعيد عزف كونشرتو بيانو كامل سمعه مرة واحدة ، اما بطل الشطرنج « اليوخين » فقد كان يذكر جميع الادوار التي لعبها ويستطيع ان يلاعب ٣٠ ـ ٤٠ شخصا في وقت واحد دون النظر الى رقعة الشطرنج والجدير بالذكر ان ذاكرة الانسان توصف بالتوافقية فالذكريات تتداعى الواحدة تلو الاخـرى .

ومن الامثلة المدهشة حقا من عصرنا الحاضر عالم الفلك الكبير المعاصر (استيفن هوكنز) الذي يعد اكبر دماغ في هذا القرن برغم انه مشلول بشكل كامل وجسمه ضامر لا يستطيع أن يحرك عضلة بما في ذلك العين واليدولا يوجد في جسمهمايمكن تحريكه سوى اصبع اواثنين برغمذلك فانه يمد الحاسب الالكتروني الموصـول به بكامل المعلـومات والحسابات والمعادلات المعقدة عن الفلك والكون ولا يمر عام حتى يحصل على اكبر الجوائز في العلوم ولماذا نذهب بعيدا فان كلا من ابي العلاء المعري

وطه حسين مثالان ساطعان من تاريخنا على القدرة والابداع وعمق البصيرة ، كما كان للانبياء ولبعض رجال التاريخ مثل « غاندي » وحاليا « نلسون مانديلا » قدرات هائلة على التحمل والصبر .

لقد كان اهتمام العلماء في النصف الاول من هذا القرن منصبا على دراسة وتنمية الذكاء لدى الانسان وسرعان ما تحول في النصف الثاني من هذا القرن الى الاهتمام بالابداع والمبدعين ويقولون ان كل مبدع لا بد ان يكون ذكيا ولكن لا يشترط بكل ذكي أن يكون مبدعا كما يقدرون عدد المبدعين بانسانين لكل مليون مواطن ، ولقد اجريت دراسة الذكاء على ٢٥٠ الفا فتبين بحسب سلم الذكاء الذي يتراوح من ٤٠٪ الى ١٧٠٪ ان نحو ١٥٠٠ انسان كان معدل ذكاؤهم ١٤٠٪ وهو بداية حد الابداع وان ٨٠ آخرين وصل ذكاؤهم الى ١٧٠٪ .

كما تشير بعض الدراسات الاخرى الى ان ٤٦٪ من الناس يكون ذكاؤهم وسطا يتراوح بين ٩٠ — ١١٠٪ وان ٣٪ يصل ذكاؤهم الى ١٣٠٪ و ١٪ يصل ذكاؤهم الى ما فوق ١٤٠٪ وان ١ — ٣٪ يكون ذكاؤهم دون ٢٥٪ تقع حافة التخلف بين ٨٥ — ٩٥٪ والتخلف بين ٥٥ — ٦٩٪ كما اجرت العالمة « كاترين كوكس » على ١٧ شخصية تاريخية اختبار الذكاء فكان المعدل ١٦٦٪ منهم :

- الشاعر الالماني (غوتـه) ٢١٠٪ كتب الشعر في سن الثامنة
- فولتير الناقد الشهير ١٩٠٪
- نيوتن أكبر علماء الفيزياء ١٩٠٪
- غاليلو العالم الفلكي المشهور ١٨٥٪
- ديكارت الرياضي الكبير ١٨٠٪
- موتزارت الموسيقي العظيم ١٦٥٪ كان يعزف على ٣ آلات موسيقية في سن السادسة
- نابليون بونابرت بطل فرنسي ١٤٥٪

كما يقدر العلماء ان الانسان يمتلك ١٢٠ قدرة ذهنية مختلفة كما يؤكدون على ان السنوات الاكثر ابداعا لدى الاطفال هي ٣ — ٦ — ٩ —

١٧ لهذا فان الدول المتقدمة تتنافس فيما بينها وتولي عناية متزايدة بتربية الاطفال وتنمية قدراتهم العقلية لاعتقادهم بأن المبدعين اصبحوا يصنعون أكثر مما يخلقون .

تعد اليابان أكثر الدول التي تولي حاليا عناية بالاطفال وتنمية مواهبهم وقدراتهم العقلية ، حيث لا توجد مؤسسة كبيرة الا ولها فروع لدراسة ذكاء الاطفال وتنمية قدراتهم الابداعية ، كما ان اكثر العلماء لديهم يمضون اواخر حياتهم في دراسة عقول الاطفال والعمل على تطويرها والارتقاء بها الى سويات اعلى من الذكاء والمواهب ويدعون الاطفال ساعات طويلة في الرسم أو في العزف على الالات الموسيقية مؤكدين بانها تؤدي الى تربية الانامل على الرشاقة والقدرة على القيادة ، كما يزعمون انهم استطاعوا خلق جيل قادر على التنفيذ ومحاكاة الاخرين وعليهم الان خلق جيل مبدع بأعداد كبيرة ، اي انهم خلقوا جنودا وعليهم بعد الان ان يخلقوا ضباطا وقادة .

ان أكثر ما يشغل علماء الدول المتقدمة كما ذكرنا سابقا هو كيفية خلق جيل مبدع بقدرات متميزة ، لهذا فانهم يركزون اهتمامهم على تطوير القدرات الرمادية للاجيال (القدرات الدماغية) ويسعون الى اعطاء هذه القدرات قفزات نحو الاعلى عن طريق تعديل بنية الانسان بما يعرف اليوم باسم « الهندسة الوراثية » التي هي بحد ذاتها سلاح ذو حدين اذ يمكن ان تطور الانسان او تدمره .

ان بعض العلماء المعاصرين وعلى رأسهم عميد الطاقة في فرنسا يصنف ويحدد مستقبل الدول على ضوء القدرات الرمادية المتوفرة أو التي يمكن ان تتوافر لديها على النحو التالي :

آ ـ دول المرتبة الاولى :

هي تلك الدول التي تمتلك ثروات باطنية واخرى رمادية فهذه الدول لا خوف عليها ولا وجل من المستقبل مثل اميركا وروسيا الاتحادية .. وغيرها .

ب ــ دول المرتبة الثانية :

هي تلك الدول التي تمتلك قدرات رمادية كبيرة او التي يمكن أن تملك مثل هذه القدرات برغم افتقارها للثروات الباطنية مثل اليابان ، كوريـا . . . الخ .

ج ــ دول المرتبة الثالثة :

هي تلك الدول التي تمتلك ثروات باطنية ولكن تفتقر الى ثروات رمادية فان لم تستطع أن تحققها فان حاضرها براق ولكن مستقبلها محفوف بالمخاطر ومشكوك فيـه .

د ــ دول المرتبة الرابعة :

هي تلك الدول التي لا تمتلك ثروات باطنية ولا أخرى رمادية وهي فقيرة بكل شيء مثل بنغلادش وبعض دول افريقيا المتوقع لها ان تعاني الامرين وسيكون مستقبلها أغلب الاحتمالات صعبا وقاسيا .

حقيقة الامر ان العلماء والبشر كافة الذين عاشوا في السابـق لـم يستفيدوا من قدراتهم البدنية والعقلية ضمن الحدود الممكنة او القصوى وتذهب بعض الدول حاليا ليس للاستفادة من العلماء خلال حياتهم فقط بل ايضا بعد موتهم ، فعلى سبيل المثال يذهب كثير من العلماء في الصين الى مراكز البحـوث للادلاء بآرائهـم ومعلوماتهم وخبراتهم الشخصية للحاسبات الالكترونية للاستفادة منها بعد وفاتهم لازمنه طويلة .

لقد تضاعفت حقيقة قدرات الانسان كثيرا في هذا القرن بسـبب التقدم العلمي والتكنولوجي والتفجر المعرفي ، لكن برغم ذلك فان العصر يقول هل من مزيد ؟

وباعتقادي ان قدرات الانسان أكبر مما ذكر بكثير ولا تعرف الحدود وهي بحاجة الى رعاية وتبني بعض الصواعق الصغيرة لتفجيرها مثـل الكلمة الجميلة والتشجيع . والتبني .

ان عقول الناس لكي تعمل بشكل صحيح وتعطي نتائج طيبة وصحيحة مثلها مثل الحاسبات الالكترونية بحاجة الى توافر اهم الشروط التالية :

١ ــ ان تكون بنية هذه العقول سليمة

٢ ــ ان تزود بالحد الادنى من المعلومات المطلوبة

٣ ــ ان تكون هذه المعلومات صحيحة

٤ ــ توافر البيئة الصالحة

٤ ــ تحديات العصر :

لم يعرف عصر من العصور السابقة مثل هذه التغيرات التي نشهدها في هذا العصر الحديث ولاسيما في القرن العشرين ، من حيث تفجر المعرفة بلا حدود والثورة المعلوماتية والتقدم العلمي والتكنولوجي المذهلان وتفجر الطاقة الخلاقة لدى الانسان وتزايد وتنوع الاختراعات والابتكارات حتى ان الشطآن قد فاضت بما يمكن تحمله وبلغ السيل الزبى ولم يعد هناك متسع لجديد واذا اردنا معرفة مدى دينامية هذا العصر لابد لنا من العودة الى الـ ٥٠ الف سنة الاخيرة المميزة لحياة الانسان وتاريخه، حيث يقول العلماء والباحثون انها لو قسمت الى اعمار متساوية كل منها /٦٢/ عاما لكان ناتج القسمة ٨٠٠ عمر ، حيث انفق الانسان ٦٥٠ عمرا منها داخل الكهف وخلال الاعمار السبعين الاخيرة فقط امكن التواصل بين عمر واخر عن طريق الكتابة ، وان الكلمة المطبوعة لم تعرف الا منذ /٦/ اعمار ولم يتوافر للانسان اية وسيلة دقيقة لقياس الوقت الا منذ اربعة الاعمار الاخيرة ، وان الانسان لم يعرف المحرك الكهربائي الا منذ عمرين فقط وان الاغلبية الساحقة من الادوات والتجهيزات والاختراعات قد برزت للوجود خلال العمر الحالي وهو العمر /٨٠٠/ ، هذا العمر الذي يمثل علامة فارقة حادة بين ماضي الانسان وحاضره .

ويقول الاقتصادي الكبير « كنت بولدنج » معبرا عن المعنى نفسه ان العالم اليوم يختلف عن العالم الذي ولدت فيه كاختلاف الاخير عن عالم

يوليوس قيصر ، فكأنني بذلك قد ولدت في منتصف التاريخ البشري لان ما حدث منذ ولادتي وحتى الآن يماثل تقريبا كل ما حدث قبل ان اولد .

ان تفجر المعرفة في هذا العصر لايدع احدا يلتقط أنفاسه مهما حاول الانسان اللحاق بها وبخاصة في المجالات العلمية او التكنولوجية التي يجد الانسان نفسه مقصرا ، وانه يركض وراء المجهول وما زال الطريق أمامه طويلة وشاقة ، كما ان من احدى سمات هذا العصر الاختزال الكبير لاشياء كثيرة مثل المسافات ، الاوزان ، الحجوم ، الزمن ، حتى أصبحت الكرة الارضية اشبه بقرية كونية واحدة صغيرة .

ولكي نعرف المزيد عن هذا العصر الذي نعيش فيه لابد لنا من التطرق الى اهم خصائصه :

آ ـ انتشار المعرفة :

لقد تضاعفت المعرفة عبر التاريخ وفق الجدول الزمني التالي :

/١/ ميلادية الى /١٠٠٠/ م تضاعفت المعرفة لاول مرة خلال /١٠٠٠/عام

١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ م تضاعفت المعرفة للمرة الثانية خلال /٥٠٠/ عام

١٥٠٠ ـ ١٨٠٠ م تضاعفت المعرفة للمرة الثالثة خلال /٣٠٠/ عام

١٨٠٠ ـ ١٩٠٠ م تضاعفت المعرفة للمرة الرابعة خلال /١٠٠/ عام

١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ م تضاعفت المعرفة للمرة الخامسة خلال /٤٥/ عام

١٩٤٥ ـ ١٩٦٠ م تضاعفت المعرفة للمرة السادسة خلال /١٥/عام

١٩٦٠ ـ ١٩٦٨ م تضاعفت المعرفة للمرة السابعة خلال /٨/ اعوام

وحاليا تتضاعف كل / ٥ / سنوات وان المعلومات التي تبثها وسائل الاعلام في يوم واحد حاليا تفوق المعلومات التي تم بثها خلال القرن الماضي كافة كما يمكن نقل اي خبر عبر وسائل الاعلام الى /٨٠/ دولة في العالم (أي نصف دول العالم) بآن واحد خلال دقيقة واحدة بل الاكثر من ذلك يمكن بواسطة الليزر نقل الموسوعة البريطانية بكاملها خلال ثانية واحدة.

ان بعض الحاسبات السريعة والمتفوقة حاليا تستطيع أن تحسب من العمليات الحسابية خلال ثانية واحدة ما يحتاجه عالم لمدة / ١٠٠٠ / سنة ، اذا استغرقت معه كل عملية حسابية / ١٠ / ثوان فقط وعمل / ١٠ / ساعات متواصلة في اليوم ولمدة / ٣٦٥ / يوما في السنة . لقد امكن اختزال الحاسب الاول الذي صمم والذي كان وزنه قرابة / ٥٠ / طناً وثمنه / ٢٢ / مليون دولار الى / ١٠ / غرامات وزناً وبثمن لا يتعدى / ١٨ / دولارا ويقوم بأعمال الاول نفسه .

بل أكثر من ذلك فاننا بدأنا نشهد حاسبات جديدة ذكية تستطيع ان تقوم بالاعمال التالية :

١ ـ القدرة على محاكاة الذكاء البشري في بعض المجالات .

٢ ـ القدرة على الاحساس : السمع ، البصر ، اللمس .

٣ ـ القدرة على التعبير باللغة الصينية او بلغات اخرى .

٤ ـ امكانية ممارسة العديد من النشاطات الابداعية .

٥ ـ القيام بوظيفة المستشار .

٦ ـ امكانية صياغة البرامج للذات او للغير .

٧ ـ وظيفة التصحيح الذاتي والتعلم من الخطا وعدم تكراره .

لناخذ مثالا آخر عن تطور عدد انواع المجلات العلمية منذ عام ١٨٠٠ ولحتى الآن فاننا نجد ما يلي :

السنة	عدد انواع المجلات العلمية
١٨٠٠	١٠٠
١٨٥٠	١٠٠٠
١٩٠٠	١٠٠٠٠
١٩٥٠	١٠٠٠٠٠
حاليا	اكثر من مليون نوع من المجلات

ب ـ التقدم العلمي والتكنولوجي :

ربما يكون التقدم العلمي والتكنولوجي اشد نشاطات الحياة تسارعا اذ بينما استغرقت الثورة الزراعية / ٣٠٠٠ / سنة على الاقل لتحقيقها اذ بالثورة الصناعية تتحقق خلال / ٢٠٠ / سنة الاخيرة . فقد استطاعت انكلترا تحقيقها خلال / ١٣٠ / سنة وفرنسا خلال / ٧٠ / سنة والمانيا خلال / ٤٤ / سنة ، الصين / ٣٤ / سنة ، الاتحاد السوفيتي واليابان / ٣٦ / سنة ، لقد تضاعف الانتاج الصناعي / ٥٠ / مرة خلال مئة السنة الاخيرة منها / ٨٠ ٪ / حدث في السنوات الاربعين المنصرمة وان العالم يتداول اليوم لفظة تكنولوجيا في ساعة واحدة اكثر مما تداولها خلال / ٥٠ / عاما .

كما ان العالم الكيمياني المختص الذي يجيد / ٣٠ / لغة اجنبية مختلفة (وهذا غير معقول) ويبتلع في اليوم / ٢٠ / مقالة بدون أيام راحة او اجازات غير قادر حتى قراءة واحد من عشرة من الابحاث المنشورة في الدوريات العلمية المتعلقة باختصاصه ، كما تجدر الاشارة الى ان عدد الكلمات التي تترجم سنويا من لغة الى اخرى يتراوح بين ٨٠ ـ ٢٤٠ مليار كلمة ويوجد حاليا في العالم اكثر من ربع مليون مترجم عدا آلات الترجمة الاخرى .

ج ـ المؤتمرات :

يبلغ عدد المؤتمرات التي تعقد سنويا في العالم في مجالات مختلفة اكثر من / ١٠ / آلاف مؤتمر تتناول جميع جوانب الحياة .

د ـ الكتب :

يزيد عدد الكتب الجديدة او المجددة سنويا عن / ٥٠٠ / الف كتاب .

هـ ـ الاختراعات :

برغم صعوبة حصر عدد الاختراعات التي تظهر سنويا في العالم الا اننا يمكن ان نشير الى ما قاله « دونالد كويج » المسؤول عن مكتب براءات

الاختراعات في أميركا ، انه تم تسجيل / ٣٨١٢٤ / براءة اختراع من قبل الاميركيين عام ١٩٨٦ مقابل / ٣٢ / الفا للاجانب من بينهم اليابانيون حيث سجلوا / ١٣٨٥٧ / في السنة ذاتها .

بالاضافة لذلك ، فان الارقام القياسية التي نشهدها يوميا في كل المجالات العلمية والادبية والفنية والرياضية لخير دليل على مدى تطور الانسان عقليا وبدنيا وعلى دينامية هذا العصر ، ان هذا التطور العاصف الذي يخطف الابصار اجبر التقنيات على ضرورة الاسراع للحاق به وهذا قاد بدوره الى ضرورة تطوير القوى البشرية والارتقاء بها كمعارف ومهارات واتجاهات للوصول الى الاهداف المنشودة وهذا ما كان ليتم بدون التعليم والتعلم مدى الحياة تعليما نظاميا وتأهيلا مستمرا ، اذ لم يعد مقبولا أن يكون عدد المبدعين محدودا يجود بهم الزمن بين وقت وآخر ، بل أصبح من الضروري تعميم الابداع وخلق مبدعين بأعداد وفيرة وفق خطط تنموية محددة .

ان الاعتماد الرئيسي في هذا العصر يقع على الركائز الاساسية الثلاث التالية :

المادة ــ الطاقة ــ المعلومات ويفضل ان يضاف اليها عنصر هام جدا، هو القيم والا يصبح كل شيء بلا معنى او انها تغدو مدمرة للانسان والكون .

كما من المتوقع أن تحل المعلومات مكان الطاقة من حيث الاهمية في نهاية هذا القرن او في القرن الحادي والعشرين اي نحن مقبلون على عصر المعلوماتية .

أن الكثير من الاشياء في وقتنا الحاضر تخضع لعلاقة هندسية او علاقة قوة او علاقة اسمية فعلى سبيل المثال : التزايد السكاني ، تزايد ديون العالم الثالث ، التضخم ، تزايد المعرفة ، تزايد الطلب على الطاقة والجدول التالي يظهر لنا تضاعف اية قيمة وفق نسب تزايد مختلفة .

نسب التزايد	٣٪	٥٪	٨٪	١٠	١٥٪	٢٥٪
عدد سنوات المضاعفة	٢٥	١٥	٩	٧ر٥	٥	٣ر٢٥

فمثلا تزايد السكان في العالم الثالث والوطن العربي ٣٪ فهذا يعني ان السكان يتضاعفون كل / ٢٥ / سنة ، وان نسبة نمو ٥٪ تحققهـا اليابان حاليا تعني ان دخلها القومي سيتضاعف كل / ١٥ / سنة وان نسبة ٨٪ هي فوائد الديون على بعض دول العالم الثالث تعني هـذه الديون ستزداد الى الضعف كل / ٩ / سنوات وان نسبة ١٠٪ معدل النمو الاقتصادي الحالي لكورية الجنوبية الذي سيضاعف دخلها كل ٧ر٥ سنة ، كمـا ان نسبة ١٥٪ تمثل زيادة الطلب على الطاقـة مما ستجعلنا نحتاج الى ضعف الطاقة كل ٥ سنوات كما أن كثيرا من دول العالم الثالث تحقق تضخما سنويا بمقدار ٢٥٪ وهذا يعني ان التضخم سيتضاعف كل ٣ر٢٥ سنة وهكذا .

مع الاسف الشديد ليست جميع وجوه هذا العصر جميلة كما يبدو او كما نريد ، ولكن يحمل هذا العصر كثيرا من الوجوه الكالحة المأساوية وبخاصة فيما يتعلق بالتناقضات الصارخة بين مختلف الشعوب والى الاجحاف والقهر وفقدان العدالة والى تدني القيم الانسانية الى الحضيض واحتلال قانون شريعةالغاب مكانالصدارة اذ اصبحنا نشهد انسانا واحدا يملك أكثر من دولة بكاملها وان دولة واحدة يزيد دخلها القومي على دخل قارة باكملها ، بل ان الدخل القومي مثلا لالمانيا والبالغ ١٧٢٠ مليار دولار يساوي أو يزيد دخل دول العالم الثالث مجتمعة اي دول آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، بما في ذلك الصين ، البالغ مجموعها بحدود ٤٠٠٠ مليون انسان كما أن متوسط دخل الفرد في دولة متقدمة ينوف عن ١٥ الف دولار في السنة ودخل فرد آخر في دولة نامية لا يزيد عن ١٠٠ دولار سنويا .

وان ما يأكله الشعب الاميركي البالغ ٢٥٠ مليون انسان يكفي لاطعام ١٥٠٠ مليون صيني أي ما يعادل ربع سكان الارض عام ٢٠٠٠ ، وان

ما تخصصه اميركا من ميزانية للقوى الجوية سنويا يزيد على مجمل الانفاق على تعليم جميع اطفال العالم الثالث ؛ وان ما ينفقه الانسان في اميركا من طاقة يعادل ما يصرفه ١٠٠٠ انسان في النيبال والشواهد على ذلك كثيرة جدا يصعب حصرها او تعدادها .

٥ ــ التحديات التي تواجه العالم الثالث والوطن العربي :

آ ــ التحديات التي تواجه العالم الثالث :

يعاني العالم الثالث حاليـا من صعوبات جمة ومشاكل متصاعدة لا حصر لها ولا يعرف كيفية الخروج من هذه المآزق دفعة واحدة او على مراحل أو هل سيخرج منها أم لا . من اهم المشاكل والتحديات التي تحول دون تقدمه وبناء حضارته هي :

١ ــ التزايد السكاني :

لكي نعرف مشاكل التزايد السكاني حاليا في العالم ومؤثراته وبخاصة في دول العالم الثالث لا بد لنا من العودة الى جـذور التاريخ الاولى التي تقول لنا بدأ الانسان يتزايد على سطح الكرة الارضية بشكل بطيء واستمر هذا التزايد مليون سنة حتى أصبح عدد سكان الكرة الارضية قرابة ٥ ملايين ومن ثم تطور العدد وفق ما يلي :

العـام	عدد السكان بالملايين
٢٠٠ ق.م	١٩٠
١ م	٢٥٠ ــ ٣٠٠
١٠٠٠ م	٣٠٠
١٢٠٠ م	٣٦٠
١٤٠٠ م	٣٥٠ انخفض العدد بسبب الحروب والامراض مثل الطاعـون
١٦٠٠ م	٥٤٥

١٨١٢ م	١٠٠٠
١٩٣٠ م	٢٠٠٠
١٩٦١ م	٣٠٠٠
١٩٧٥ م	٤٠٠٠
١٩٨٧ م	٥٠٠٠
٢٠٠٠ م	٦٢٠٠ (متوقع)
٢٠٢٥ م	١٤٠٠٠ (متوقع)

لقد كان التزايد السكاني خلال القرون الخمسة عشر التي اعقبت الميلاد لا يزيد عن / ١ / بالالف .

ان عملية مضاعفة الديموغرافية السكانية التي تمت بعدئذ هي اختزال مذهل للزمن ، حيث سارت وفق الترتيب التالي :

كل مليون سنة ، ثم كل الف سنة ، بعدئذ كل / ٢٠٠ / سنة اعقبها كل / ٨٠ / سنة وحاليا كل / ٣٧ / سنة

وتقدر الزيادة السكانية في العالم حاليا :

/٣/ نسمة كل ثانية

/١٨٠/ نسمة كل دقيقة

/١٠.٨٠٠/ نسمة كل ساعة

/٢٥٩٢٠٠/ نسمة كل يوم

/٧ر٧٧٦ر٠٠٠/ نسمة كل شهر

/٩٣ر٣١٢ر٠٠٠/ نسمة كل سنة .

علما بان توزع هذه الزيادة غير متساو حيث يبلغ في أوربا ٦ر٠٪ فقط اي ان مضاعفة السكان ستتم كل /١٢٠/ سنة على الاقل وفي أمريكا الشمالية ٧٥ر٠٪ ، بينما تبلغ في افريقيا ٥٥ر٢٪ ان ٩٠٪ من الزيادة

السكانية في العالم تتم الآن في العالم الثالث فكل /١٢/ سنة تقريبا يزداد العدد مليار انسان ، كما تجدر الاشارة الى ان نسبة توزع السكان في العالم كان ٧٤٪ في الدول النامية و ٢٦٪ في الدول المتقدمة عام ١٩٨١ وستصبح ٨٣٪ على التوالي سنة ٢٠٠٠ .

يقول احد العلماء انه لا يمكن اقامة بناء بدون أساس ولكن بالاساس وحده لا يمكن ان يعيش الانسان وعلى ضوء ذلك اذا اردنا ان نقتصر على تامين الغذاء والماء فقط للقادمين الجدد فاننا سنحتاج الى /٥ر٠/ طن من الغذاء و /١/ طن من الماء لكل انسان سنويا (تقدر احتياجات الانسان اليومية /١٥/ كغ من الهواء ، ٥ر٢ كغ من الماء ، ٥ر١ كغ من الغذاء) علما باننا اهملنا بقية متطلبات الحياة من المسكن والملابس والتعليم والصحة وتأمين فرص العمل .... الخ فعلينا ان نتصور ما هي التحديات التي تواجه العالم الثالث ؟؟

٢ ـ الديون الخارجية ـ القروض المساعدات :

لقد مر العالم الثالث بمرحلة انتعاش ونهوض وطني واقتصادي في مطلع الخمسينات من هذا القرن ولغاية أواسط الستينات ولكن سرعان ما أصيب بنكسات وتراجعات سواء على مستوى الدخل القومي او الدخل الفردي ، فعلى سبيل المثال ان مجمل الدخل القومي حاليا للعالم الثالث بما في ذلك الصين وآسيا وافريقيا ودول امريكا اللاتينية كما ذكر آنفا لا يصل الى مستوى الدخل القومي لالمانيا البالغ /١٧٢٠/ مليار دولار ، كما أن دخل الفرد اليومي لاكثر دول العالم الثالث لا يتجاوز دخلـه في الستينات وان اكثر من نصف سكان العالم الثالث لا يتجاوز متوسط دخل الفرد اليومي /١/ دولار ، كما لا يحق للفرد زيادة سنوية بأكثر من /١ ـ ٥/ دولار .

ان من أهم أسباب تردي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعلمية للعالم الثالث تقع على عاتق دول الشمال التي أوقعت دول العالم الثالث بمصيدتها عن طريق الديون الخارجية التي ازدادت بوتائر عالية كما يلي :

الديون الخارجية مليارات الدولار	السنة
٢٤	١٩٧٤
٣٨	١٩٧٨
٣٦٠	١٩٨٠
٥٣٠	١٩٨١
٦٠٠	١٩٨٢
٨٠٠	١٩٨٣
١٢٦١	١٩٨٥
١٢٦٥	١٩٨٨
١٣٢٠	١٩٨٩
١٣٤١	١٩٩٠
١٣٥٤	١٩٩١ (متوقع)

كما ان خدمة الديون من اقساط وفوائد كانت :

عام ١٩٨٩ ١٣٥ر٧ مليار دولار واصبحت

عام ١٩٩٠ ١٤٠ر٥ مليار دولار

لقد دفعت دول العالم الثالث ١٤٥٦ مليار دولار خدمة لديونها في الثمانينيات وتشكل خدمة الديون بالنسبة الى الصادرات ما يلي :

السنة	خدمة نسبة الديون الى الصادرات
١٩٨٦	٣٠٪
١٩٨٨	٢٦ر٨٪
١٩٩٠	٢١ر١٪
١٩٨٩	٢٢ر١٪

واذا اردنا ان ناخذ فكرة عن حجم الديون بالموازنة مع الدخل القومي فاننا ناخذ مثالا دول اميركا اللاتينية لتوفر الارقام :

الدول	حجم الديون بمليارات الدولارات	النسبة المئوية من اجمالي الدخل القومي
البرازيل	١٢١	٣٧٪
المكسيك	١٠٦	٧٦٪
الارجنتين	٥٥	٧٩٪
فنزويلا	٣٦	٤٧٪
تشيلي	٢١	١٠٣٪
البيرو	١٨	٧٩٪
كولومبيا	١٧	٨٩٪
الاكوادور	١١	٧٩٪
الارغواي	٦	٨٩٪

كما بلغ التضخم في البرازيل عام ١٩٨٩/١٧٦٥٪/ وهو لا ينقص شهريا عن ١٠٠٪ علما بان البرازيل تشغل نصف اميركا الجنوبية وغنية بثرواتها الطبيعية وتنتج /٨٠/ طن من الذهب سنويا ومتقدمة صناعيا في مجالات كثيرة مثل صناعة السيارات ، الطائرات ، الصواريخ ، المحطات الذرية وغيرها ، كما انها تعد الدولة الثامنة من حيث القوة الاقتصادية وتأتي بذلك في طليعة دول العالم الثالث وكان من المنتظر أن تكون معجزة القرن الحادي والعشرين وكمثال آخر من دول اميركا اللاتينية نجد أن عدد الفقراء بلغ /٧١/ مليون عام ١٩٧٠ ووصل العدد الى ١٨٣ مليونا عام ١٩٨٩ وهذا يشكل ٤٤٪ من السكان .

ان كل الاحصائيات تشير الى ان ديون العالم الثالث تشكل عبئا ثقيلا على دول العالم الثالث فرضته عليها دول الشمال كمصيدة استنزاف ابدية ,

ان تدهور اقتصاديات أكثر دول العالم الثالث يعود الى ان دخلها القومي يعتمد بالدرجة الاولى على تصدير المواد الاولية التي تمتلك دول العالم الثالث منها ٨٠٪ من مجموع احتياطي العالم وتباع بأسعار بخسة لان اسعار هذه المواد لا تحدد من قبل الدول المنتجة بل في احدى العواصم التالية،لندن،نيويورك ، طوكيو فقط فهناك تفرض الاسعار المجحفة والتي تنحدر اسعارها سنة بعد اخرى فعلى سبيل المثال كان بامكان /٢٥/ طن من المطاط الخام شراء /٦/ جرارات عام ١٩٦٠ ، فاصبح /٣/ جرارات عام ١٩٨٥ وهبط بعدئذ الى /٢/ جرارين عام ١٩٧٥ وحاليا لا يكفي لشراء جرار واحد ، ومثال آخر كانت سيارة جيب تساوي ثمن /١٩٠/ طنا من النحاس عام ١٩٦٠ ، بينما اصبحت تعادل ثمن / ٣٥٠ / طنا عـام ١٩٨٠ .

وليس البترول في منأى عن ذلك فالعالم الثالث يخضع لعملية ابتزاز منظمة ونهب مستمر بلا هوادة والا كيف يمكن ان تكون افريقيا فقيرة الى هذا الحد بل تزداد فقراً سنة بعد أخرى وتعاني من الجوع والحرمان والقهر بكل انواعه وهي تملك عالميا ٩٧٪ من الكروم ٦٤٪ من الذهب و ٨٥٪ من البلاتين وأكثر من ٢٠٪ من اليورانيوم . وأكثر من ٢٠٪ من الجرمانيوم المستخدمة في صنع الترانزيستورات والدارات المتكاملة .

اما فيما يتعلق بالمساعدات التي تقدم من دول الشمال فهي شحيحة وتتناقص سنة بعد أخرى في معظم الاحيان وتكاد لا تغني جوعا وفي كثير من الاحيان تكون بهدف تكبيل دول العالم الثالث بمزيد من القيود او ترويج البضائع الكاسدة في الدول المتقدمة او المصانع التي انتهى عمرها وبرغم ذلك فان الامم المتحدة طالبت منذ السبعينات من الدول المتقدمة بتقديم ١٪ من دخلها القومي للدول الفقيرة لكن دون جدوى وفي الثمانينات خفضت الطلب الى ٧ر٠٪ ولكن هيهات ولم تدفع اية دولة هذه النسبة واليكم بعض الدول ونسب مساعداتها :

الدولة	نسبة المساعدة بالنسبة لمجمل الدخل القومي
هولنده ، البلدان الاسكندنافية	٠ر٢٠ ٪
فرانسا ، ايطاليا	٠ر١٥ ٪
بريطانية	٠ر٤٧ ٪ ١٩٦٥ ، ٠ر٣٦ ٪ ١٩٨٣
اميركا	٠ر٨٥ ٪ ١٩٦٥ ، ٠ر٢٤ ٪ ١٩٨٣
اليابان	٠ر٣٢ ٪

علما بان العالم الهولندي « ترنيسيرغن » يقترح أن تكون المساعدات ٢ ٪ من مجمل الدخل القومي وبخاصة بعد سياسة الوفاق والانفراج ، الدوليين الذين يسودان العالم حاليا ونامل أن يكون ذلك حقيقياً وليس على حساب دول العالم الثالث .

٣ ـ التخلف والفقر :

لقد خلف العالم الثالث منذ الاستعمار القديم وبقي في حالة تخلف مستمرة بوسائل وطرق شتى وبالتالي يعاني كثيرا من الفقر والجهل والتخلف الحضاري ، اذ تصل الامية في اميركا اللاتينية الى ١٧ ٪ من السكان وفي آسيا ٣٦ ٪ وفي افريقيا ٥٤ ٪ كما ان العمالة متدنية (العمالة : الناس القادرون على العمل بين ١٨ ـ ٥٩ سنة) اذ هي بحدود ٢٠ ٪ ، بينما تتجاوز في الدول المتقدمة ٤٠ ٪ وهناك حاليا ٥٠٠ مليون انسان عاطل عن العمل وتتفشى البطالة بين الشباب والشباب المثقف بخاصة حيث يذكر مكتب العمل الدولي ان البطالة في فئة الشباب في العالم الثالث تتراوح بين ٢٧ ـ ٧٢ ٪ ، ومن المتوقع ان يزيد عدد العاطلين عن العمل الى ٨٠٠ مليون في نهاية هذا القرن .

ان ما ينفق على الرعاية الصحية للفرد في العالم الثالث لا يتجاوز ٥ دولارات سنويا بينما هو ٤٦٠ دولارا في اوربا و ١٩٠٠/ في امريكا ، كما ان التعليم العام يعاني من مشاكل كثيرة والجدول التالي يبين اسماء بعض الدول ومتوسط دخل الفرد والانفاق على التعليم :

الدولة	السنة	دخل الفرد بالدولار سنويا	الانفاق العام على تعليم الفرد بالدولار	النسبة المئوية من الدخل القومي التعليم العام ٪	النسبة المئوية من مجمل انفاق القطاع العام المخصصة للتعليم ٪
بنغلاديش	١٩٧٣	٧٠	—	١ر٢	٢٠ر٢
الهند	١٩٧٣	١١٠	٣	٣ر٣	١٤ر٠٠
اندونوسيا	١٩٧١	٨٠	١	٢ر٦	—
ايران	١٩٧١	٤٥٠	١١	٣ر١	١٠ر٨
العراق	١٩٧٠	٣٧٠	١٩	٦ر٧	١٦ر٣
الاردن	١٩٧٣	٢٦٠	١٩	٧ر٠٠	٨ر٨
كوريا	١٩٧١	٢٩٠	١٣	٣ر٦	١٦ر٧
لبنان	١٩٧١	٦٦٠	٢١	٤ر٠٠	٢١ر٠٥
ماليزيه	١٩٧٢	٤٠٠	٣٢	٦ر٤	٢٠ر٩
باكستان	١٩٧١	١٣٠	١ر٨	١ر٢	٨ر٠٠
الفيليبين	١٩٧٢	٢٤٠	٦ر٣	٤ر٦	٢٩
سنغافورة	١٩٧٢	١٢٠٠	٤٦	٣ر١	١١ر٥
تايلاند	١٩٧٢	٢٣٤	٨	٣ر١	١٩ر١
تركيا	١٩٦٩	٣٤٠	٩	٣ر٥	١٧ر١

ملاحظـة :

برغم أن الاحصائيات قديمة ولكن الوضع لم يتحسن كثيراً في كثير من الدول بل تراجع في العديد منها ، فمثلا هبط الانفاق على التعليم من ٣ر١٧ ٪ الى ٣ر٨ ٪ في دولة زامبيا بين اعوام ١٩٧٢ ـ ١٩٨٧ .

بالاضافة لذلك تدنت كل الوسائل والمجالات الحضارية والجدول التالي يوضح جوانب من ذلك :

البيان	حصة الدول المتقدمة	حصة دول العالم الثالث
اجهزة الراديو	٧٤٪	٢٦٪
اجهزة التلفزيون	٨٠٪	٢٠٪
ورق الكتب	٨١٪	١٩٪
ورق الصحف	٨٥٪	١٥٪
البحث العلمي	٩٨٪	٢٪
وسائط النقل	٩١٪	٩٪

والجدول التالي يلقي مزيدا من الاضواء :

لكل / ١٠٠ / انسان عام ١٩٨٠

الدولة	الصحف	الراديو	التلفزيون	السينما مقعد
العالم	٨ر٩	٢ر١٣	٨ ر٢	٣ر٢
افريقيا	٢ر١	٣ر٢	٠٧ر٠	٦ر٠
امريكا الجنوبية	٥ر٢	٣ر٧	٤ ر٣	٥ر٥
آسيا	٨	١١	٠٠ر٢	٤ر٣
اوربا	٢٣	٨ر٢١	٤ ر٧	٤ر٥
استراليا	٢٩	٦ر٢٠	٨ ر٨	٧ر٧
الاتحاد السوفيتي	١ر١٨	٥ر٢٠	٠٠ر٣	٦ر٥

والمقترح ان يكون الحد الادنى لكل / ١٠٠ / انسان في دو لالعالم الثالث / ١٠ / صحف و / ١٥ / راديو و / ١٠ / تلفزيون و / ٥ / مقعد في السينما ، كما تجدر الاشارة الى أن / ٤٠ / دولة حاليا بدون وكالة انباء وطنيـة .

كما تشير احصائيات اليونسكو الى انه في عام ١٩٦٩ تم انتاج / ٥٠٠/ الف كتاب في العالم منها /٢٢٥/ الفا في أوربا (عدا الاتحاد السوفييتي) اي نسبة ٤٥٪ بينما يشكل السكان ١٣٪ من مجمل سكان الكرة الارضية

واذا اضفنا لذلك انتاج امريكا وكندا واوستراليا واليابان فان النسبة تصل الى ٨١٪ ، علما بأن مجموع السكان لهذه الدول لا يتعدى ٣٠٪ من مجمل سكان الكرة الارضية ، بينما آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية التي يشكل سكانها ٧٠٪ من سكان العالم فلم يزد انتاجها عن ١٩٪ برغم انها تضم ٦٣٪ من طلاب العالم ، كما تشير هذه الاحصائيات الى ان انتاج آسيا من ثمرات الفكر الانساني كان عام ١٩٦٩ ٥ر٢٪ من الانتاج العالمي وافريقيا ١٥ر٠٪ فقط .

كما تشير احصائيات الاجتماع الاول للمؤتمر الاسلامي للعلوم والتكنولوجيا الذي انعقد في ايار عام ١٩٨٣،الى ان عدد العلماء والباحثين في حقل التنمية والبحث العلمي في الدول الاسلامية قد وصل الى ٤٥١٣٦ بينما عددهم في اسرائيل ٣٤٨٠٠ عام ١٩٧٤ ومن المتوقع ان يصل عددهم الى ٨٦٧٠٠ عام ١٩٩٥ ، علما ان الدول الاسلامية تعادل ٢٠٠ ضعفا من اسرائيل من حيث عدد السكان .

بالاضافة لذلك فان عدد العلماء والباحثين في كل من الاتحاد السوفيتي واليابان هو اكثر من نصف مليون انسان حاليا .

٤ ـ جشع وانانية دول الشمال واللااخلاقية المتبعة :

لم يعرف العالم الثالث طعم الراحة والهناء منذ الاستعمار القديم وحتى الآن ، اذ استمر نهب ثروات العالم الثالث منذ القديم وما زال مستمرا بوتائر متصاعدة ، ليس ذلك فحسب بل استنزاف الطبيعة ذاتها ، اذ بينما كان استخراج المعادن /٥/ مليار طن سنويا في مطلع الخمسينات ، اصبح /١٢/ مليار طن في اواسط السبعينات ويزيد حاليا عن / ١٥ / مليار طن ، واكثر هذه المواد من دول العالم الثالث وتباع كما شاهدنا بأسعار بخسة تتدنى اسعارها سنة بعد اخرى بل الاكثر من ذلك تصر دول الشمال ولا سيما الدول الغربية الصناعية على تحقيق رفاهيتها المتصاعدة على حساب دول العالم الثالث ، بل ليس بعيدا ان يكون الانسان في دول العالم الثالث قد سعر هو ايضا بالاضافة لمواده الاولية .

تقول الكاتبة « روزا لوكسمبورغ » لم يثبت التاريخ لنا اكثر من ان جميع الحضارات التي قامت حتى الآن كان عمادها الدم وجماجم الفقراء بدءا من الملايين التي سحقت تحت حجارة الفراعنة ووصولا الى الملايين الافريقية التي شرب فراعنة راس المال في اوربا واميركا نخب حضاراتهم المزيفة بجماجمها في اسواق النخاسة ، ان هذا كله سيبقى جرحا غائرا في ضمير البشرية للابد » .

ان النظام الاقتصادي العالمي الذي فرضته دول الشمال على دول الجنوب يتصف كما ورد في البيان الختامي للدورة (١٥) لمنظمة تضامن الشعوب الافريقية والاسيوية المنعقد في دمشق عام ١٩٩٠ بما يلي :

ـ يقوم على الاستغلال ويساعد على تركيز السياسة والقوة الاقتصادية في ايدي عدد قليل من الدول المتقدمة .

ـ عدم تكافؤ التبادل التجاري العالمي .

ـ وضع قواعد للتجارة الخارجية والنظام النقدي والمالي العالمي بما يخدم مصالح الدول المتقدمة وعلى حساب الدول النامية .

ـ فشل هذا النظام في حل المشاكل الاساسية في الدول النامية هي (البؤس ، التخلف ، والتبعية) .

ـ زيادة العجز التجاري في الدول النامية .

ـ وضع دول العالم الثالث في مزيد من الضائقة الاقتصادية .

لهذا ليس غريبا ان يكون مجمل الدخل القومي لدول العالم الثالث لا يزيد عن ٦ر٥٪ من مجمل الدخل القومي العالمي ونصيبها في الانتاج الصناعي لا يزيد عن ٧٪ من مجمل الانتاج الصناعي العالمي ، علما انها تشكل ٧٥٪ من مجمل سكان الكرة الارضية .

كما غدت السمات الاساسية للعالم الثالث تتصف بـ الفقر الشامل ، اتساع الهوة بين الاغنياء والفقراء ، وجود الجوع والرفاهية بنفس الوقت عدم توازن الانتاج والاستهلاك ، التشوهات في العلاقات بين الدول المتقدمة

والدول النامية ، الركود الاقتصادي ، التضخم النقدي ، تزايد المديونية الخارجية ، تزايد البطالة بين الشباب ، تهريب رؤوس الاموال للخارج (يقدر حاليا المال المهرب من دول العالم الثالث الى الدول المتقدمة بـ ٥٠/ مليار دولار سنويا) ، هجرة الادمغة والكفاءات العلمية ، غزو عقول الشباب ونفوسهم واستلاب هذه العقول بغية السيطرة عليها ، يقول احد العلماء من يسيطر على عقول الناس يسيطر على حياتهم .

ان هذا كله يقودنا للقول أن العالم قد أصبح أشبه بطريق باتجاهين :

الاتجاه الاول : الدول المتقدمة ، حيث تصب فيها خيرات العالم ولا سيما خيرات العالم الثالث .

الاتجاه الثاني : الدول النامية ، حيث بالاضافة لمشاكلها الخاصة تصدر اليها كل المشاكل والصعوبات التي تعترض الدول المتقدمة بما في ذلك مشاكل تلوث البيئة .

التحديات التي تواجه الوطن العربي (الوطن العربي في سطور وأرقام):

يعد الوطن العربي جزءاً من دول العالم الثالث ، وبخاصة اذا استثنينا منه البترول من حيث أوضاعه والتحديات التي تواجهه ، بل هناك احصائيات تقول ان الوطن العربي في وضع أسوأ من دول العالم الثالث في بعض من المجالات وانه أكثر عرضة للمخاطر من غيره .

ويجمع مؤرخون غربيون على أنه لا يمر عام على الوطن العربي الا ويصاب بنكبة او اثنتين على الاقل ، وحتى لا تكون هناك اعادة وتكرار لما جاء في فقرات العالم الثالث ، فانني سأكتفي بالحديث عنه عبر سطور وارقام واترك للقارىء او المستمع عملية التحليل والاستنتاج .

١ ــ المساحة والسكان :

يقع الوطن العربي في قارتي آسيا وافريقيا حيث يشغل ٧٢٪ منه في افريقيا و ٢٨٪ في آسيا .

ـ الطول / ٧٥٠٠ / كم والعرض / ٣٠٠٠ / كم

ـ يقع بين خطي عرض/١٥ ـ ٣٥/شمالي خط الاستواء و ٤٠ شرق و ١٥ غرب

ـ المساحة : ١٤٠١ مليون هكتار ويشكل بذلك ١٠٪ من مساحة اليابسة على الكرة الارضية

ـ السكان : كان عدد السكان / ١٠٠ / مليون عام ١٩٦٥ وأصبح حاليا بحدود ٢١٥ مليونا

ـ الزيادة السكانية : نحو ٣٪ اي أنه يتضاعف قرابة كل /٢٥/ سنة بمعدل ٥ ملايين انسان سنويا .

٢ ـ الدخل القومي ومتوسط دخل الفرد :

يختلف الدخل القومي بين عام وآخر وقد بلغ ٣٨٥ مليار دولار عام ١٩٨٧ ، علما بان هولندة ذات المساحة ٣٣ ألف كم٢ والسكان زهاء ١٠ ملايين نسمة دخلها القومي ١٧٠ مليار دولار سنويا وأن كورية الجنوبية التي مساحتها بحدود ١٠٠ ألف كم٢ وسكانها بحدود ٤٤ مليون انسان والتي بدا نهوضها منذ عام ١٩٦٥ يبلغ دخلها القومي السنوي ٩٤ مليار دولار كما أن الدخل القومي لايطاليا يصل الى ٤٢٥ مليار دولار واليابان البالغ عدد سكانها ١٢٢ مليونا يصل دخلها القومي الى / ٣٠٠٠ / مليار دولار سنويا .

والجدول التالي يبين لنا المساهمات الاقتصادية وتوزعها :

القطاع	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٠
	٪	٪	٪
الزراعة والصيد والغابات	٦ر٧	٦ر٥	٥ر٤
التعدين واستخراج النفط	٥ر٣٩	٨ر٢٩	٥ر٢٠
الصناعات التحويلية	٩ر٧	١ر١٨	٣ر٢٧

التشييد	١٥ر١	١٣ر٠	٩ر٥
الكهرباء والغاز والماء	١ر٢	١ر٥	١ر٠
النقل والمواصلات	٤ر٧	٤ر٨	٤ر٨
التجارة والمال	١١ر١	١٠ر٧	١٠ر٥
الخدمـــات	١٢ر٩	١٦ر٥	٢٠ر٥
المجمـــوع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ـ متوسط دخل الفرد السنوي : يختلف من دولة الى اخرى وهو متناقض بشكل صارخ حيث متوسط دخل الفرد السنوي في الصومال على سبيل المثال / ٢٦٦ / دولارا ويصل في الامارات العربية نحو / ٤٠ / الفا وتجدر الاشارة الى وجود / ٨٠ / مليون فقير في الوطن العربي من بينهم / ٤٠ / مليون جائع .

ـ دخل الوطن العربي من النفط : كان ٦ر٤ مليار دولار عام ١٩٧٠ وارتفع الى ٢١٦ مليار دولار عام ١٩٨٠ (لا توجد امة عبر التاريخ القديم او الحديث استطاعت مضاعفة دخلها / ٥٠ / مرة خلال / ١٠ / سنوات سوى الامة العربيـــة) ومن ثم انخفض الى / ٥٢ / مليار دولار ١٩٨٦ وحاليا ارتفع ثانية بسبب ارتفاع أسعار النفط .

٣ ـ اهم ثروات الوطن العربي :

النفط : يقدر احتياطي النفط في الوطن العربي بـ ٥٧٪ من احتياط النفط العالمي ، حيث يقدر بـ /٤١٥/ مليار برميل .

الغــاز : يقدر احتياطي الغاز في الوطن العربي بـ ١٧ ٪ من الاحتياطي العالمي اي حوالي /١٧٦٠٠/ مليار م٣ .

الحديد : يقدر احتياطي الوطن العربي من الحديد ١٢ر٩ مليـــار طن وبلغ انتاجه بحسب المنظمة العربية للتنمية / ٣ر٧٨ / مليون طن عام ١٩٨٢ ووصل الى ٥ر٦٩٤ مليون طن عام ١٩٨٥ .

الفوسفات : يقدر انتاج الوطن العربي من الفوسفات بـ ٣٠٪ من الانتاج العالمي ويمثل ٥٠٪ من احتياطي العالم .

اليورانيوم : يقدر احتياطي الوطن العربي من اليورانيوم بنصف مليون طن وقد يكون احد مطامع دول الشمال حاضرا ومستقبلا .

القطن : ينتج الوطن العربي زهاء ٨٪ من المحصول العالمي للقطن .

الزيتون : ينتج الوطن العربي زهاء ١٥٪ من المحصول العالمي لزيت الزيتـون .

الصمغ : ينتج الوطن العربي نحو ٧٥٪ من انتاج الصمغ في العالم

٤ ـ **القوى العاملة والطـلاب** :

تبلغ نسبة العمالة في الوطن العربي بحدود ٢٤٪ نظريا ولكنهما عمليا دون ١٠٪ ويعمل حاليا ٤٥ مليون انسان ويطالب مكتب العمل الدولي احداث ٣٥ مليون فرصة عمل للشباب حتى نهاية هذا القرن ، كما تجدر الاشارة الى ان انتاجية الانسان تقدر بـ /٣٦/ دقيقة في اليوم وتشير بعض الاحصائيات الى $\frac{١}{٢٠}$ من انتاجية الانسان في الدول المتقدمة ، علما بأن نسبة العمالة في الدول الصناعية الاوروبية هي ٤٤٪ وفي الاتحـاد السـوفيتي ٥١٪ وفي اليابان ٦٣،٤٪

ـ **الطلاب** : بلغ عدد الطلاب عام ١٩٨٣ نحو ٣٥،٢٧٢ مليون طالب منهم في المرحلة الالزامية الابتدائية /٢٢/ مليونا ، في المرحلة الثانوية نحو /١٠/ ملايين وفي المرحلة الجامعية أكثر من مليون ونصف /١،٥/ موزعين على ٨٢ جامعة ، كما يوجد أكثر من /١٠٠/ الف طالب عربي في الدول الاجنبية وهذا يشكل زهاء سدس الطلاب الاجانب في العـالم وتخرج الجامعات سنويا نحو ٢٥٠ ـ ٣٠٠/ الف جامعي ومن المحتمل ان يصل عددهم الى /١٢/ مليون خريج جامعي في نهاية هذا القرن .

ــ **الامية** : نسبة الامية في الوطن العربي بحدود ٤٤٪ وتأتي في المرتبة الاولى في العالم كافة وفي المرتبة الثانية بعد افريقيا التي تقدر بـ ٥٤٪ .

الكوادر العلمية :

يقدر عدد حملة الدكتوراه في الوطن العربي بحدود ٣٢ الفا ويزداد العدد سنويا بحدود ١٥٠٠/ كما يوجد لدينا في الدول الاجنبية زهاء ٥٠/ الف عالم عربي وبرغم ذلك فان الانتاج العلمي في الوطن العربي لا يتعدى ٣ر٠٪ من مجمل الانتاج العلمي العالمي وان ٨٥٪ من البحوث العلمية في الوطن العربي هي من قبل أفراد .

٥ ــ **الزراعة** : تقدر مساحة الاراضي الصالحة للزراعة بـ ٢٣٦ مليون هكتار والمستفاد منها ٤٦ مليون هكتار والمفروض ان تصل هذه الاراضي الى ٧١ مليون هكتار في نهاية هذا القرن والمساحة الصالحة للتوسع الزراعي ١٩٠ مليون هكتار تكفي لاطعام ١٩٠ مليون عائلة اضافية . وبرغم ان ٥٢٪ من القوى العاملة العربية تعمل في الزراعة الا انها لا تساهم في الاقتصاد القومي بأكثر من ٧٪ ولا تنتج نصف استهلاكها بينما يعمل في امريكا ٤٪ من القوى العاملة في الزراعة يزيد انتاجها عن حاجة امريكا .

٦ ــ **الغذاء** : الجدول التالي يبين انتاج واحتياجات الوطن العربي لاهم المواد الغذائية :

المادة	الانتاج	الاحتياجات
الحبوب	٢ر١٥ مليون طن	٢ر٢١ مليون طن
السكر	٥ر٤ مليون طن	١١ مليون طن
لحم البقر	٨ر١ مليون طن	٣ مليون طن
لحم الغنم	٨ر١ مليون طن	٨ر٣ مليون طن

وعموما يستورد الوطن العربي من الخارج ٦٠٪ من احتياجاته من الحبوب و ٧٠٪ من السكر و ٣٠٪ من اللحوم ويحتاج الى ١٠٠ مليون

طن من المواد الغذائية في نهاية هذا القرن يقدر ثمنها بين ٥٠ــ ١٠٠ مليار دولار ، علما بأن حجم الاستيراد كان ٨ر١ مليار دولار في مطلع السبعينات ، ويستهلك حاليا ١٥ ٪ من التجارة العالمية من الغذاء و ٢٠ ٪ من تجارة القمح في العالم .

٧ ــ المبادلات التجارية :

أ ــ الصادرات : انخفضت الصادرات العربية من ٥ر١٢ ٪ عام ١٩٨٠ بالنسبة الى الصادرات العالمية الى ٢ر٦ ٪ عام ١٩٨٥ أي من ١ر٢٣٥ مليار دولار عام ١٩٨٠ إلى ٢ر١١١ مليار دولار عام ١٩٨٥ .

ب ــ الواردات : بلغت واردات الوطن العربي عام ١٩٨٢ بحسب الجدول التالي :

السلعة	الكمية بآلاف الأطنان	القيمة بملايين الدولارات
الحبوب	٢٦٥٧٥	٦٣٦٠
القمح	١٥٧٦٨	٣٤٨٦
السكر	٣٥١٤	١٣٩٨
اللحوم الحمراء	٧٦٠	٢٣٤٢
لحوم الدواجن	٥٤٧	٧١٦
البيض	٢٠٢	٢٦٦
الحليب السائل	٨١١٤	١٧٨٦

كما تجدر الاشارة الى أن حجم المبادلات التجارية بين الدول العربية يقدر بـ ١٣ مليار دولار أي ما يعادل ٣ر١٢ ٪ من مجمل مبادلاتها التجارية مع العالم .

٨ ــ الديون الخارجية :

تقدر الديون الخارجية العربية بـ ١٣٦ مليار دولار وتزداد /٣/ ثلاثة ملايين دولار كل ساعة أي نحو /٧٠/ مليون دولار يوميا و /٢/ مليار دولار شهريا وبما يزيد عن /٢٥٠/ مليار دولار في نهاية هذا القرن ، كما

تجدر الاشارة الى ان معظم الديون العربية تنحصر في أربعة دول عربيــة افريقية هي مصر ، الجزائر ، المغرب ، السودان ، حيث تشكل ديونها الحالية ١.٦ مليارات دولار ، بالاضافة لذلك دفع الوطن العربي / ٣ / مليارات دولار خدمة للديون عام ١٩٦٥ وارتفع هذا الرقم الى /١٠/ مليارات دولار عام ١٩٨٤ .

٩ ــ الاستثمارات العربية :

يقدر حجم الاستثمارات العربية في الخارج بـ ٧٦٠ مليار دولار ويوجد للوطن العربي /٦٠/ بنكا في انكلترا و /٤٠/ بنكا في فرنسا ، ويقول الاقتصاديون في الغرب انه كلما أودع لديهم مليار دولار كان نصفه عربيا ، واستطاعت هذه الاستثمارات توفير /٢٠/ مليون فرصة عمل في أوربا وأمريكا خلال عشر السنوات الماضية ، بينما الوطن العربي يعجز عن ايجاد فرص عمل للشباب ، وتشير التقارير الى ان توظيف الجامعيين في مصر قد توقف تقريبا منذ عام ١٩٨٢ .

١٠ ــ النشاطات الثقافية والحضارية :

أصدر الوطن العربي ٤٠٠٠ عنوان كتاب عام ١٩٦٥ ووصل الى ٧٠٠٠ عنوان عام ١٩٨٥ زهاء ٨٥٪ منها كتب دينية وأدبية او قديمة معاد طباعتها ، بينما تصدر اليابان ٣٥ الف عنوان وامريكا ٣٩ الف عنوان والاتحاد السوفيتي أكثر من ٧٠ الف عنوان وبينما كان عام ١٩٨٥ لكل ١٠٠٠ مواطن عربي ٣٧ عنوانا قابله ٥٩ عنوانا في دول العالم الثالث و ٤٩٠ عنوانا في الدول المتقدمة اي ان الدول المتقدمة تسبقنا بـ ١٣ ضعفا بغض النظر عن نوع الكتب وجودتها ومضامينها .

كان عدد الصحف في الوطن العربي ١١٠ عام ١٩٧٥ وبقي العدد نفسه حتى عام ١٩٨٤ يقدر عدد نسخ الصحف بـ ٦ مليون نسخة يوميا اي بمعدل ٥ر٣ بالنسبة إلى عدد السكان حيث يصل لكل ١٠٠٠٠ مواطن ٣٥ نسخة ، بينما في الدول المتقدمة ٣١٩ نسخة .

ــ توفر لكل الف مواطن عربي ٢٢٩ مذياعا و ٨٥ تلفزيونا عام ١٩٨٥، كما يستورد الوطن العربي من ٤٠ ــ ٦٠٪ من برامج التلفزيون من الخارج ولا سيما من اميركا..

ــ يبلغ عدد اجهزة الهاتف ٢٫٦٢٢ مليونا ، بينما يزيد عددها في العالم عن ٥٠٠ مليون .

ــ نسبة تطور وسائل الاعلام العربية أقل بكثير من نسبة نمو السكان او نمو الدخل القومي .

ــ حصل الوطن العربي على جائزة نوبل واحدة في الادب من اصل /٦٠٠/ جائزة نوبل منحت خلال هذا القرن في مختلف المجالات .

١١ ــ معلومات عامة اخرى :

حدث في الوطن العربي خلال عقدين ١٩٦٥ ــ ١٩٨٥ ما يلي :

ــ تضاعف عدد سكان الوطن العربي .

ــ تضاعف متوسط دخل الفرد مرتين .

ــ ازداد حجم المدن /٣/ مرات .

ــ ازدادت المدارس والجامعات /٤/ مرات .

ــ ازدادت اجهزة الراديو /١٠/ مرات .

ــ ازدادت اجهزة التلفزون /٢٠/ مرة .

ــ ازداد عدد المسافرين /١٠/ مرات .

ــ تضاعفت الديون /٣٠/ مرة .

٦ ــ الطاقات المتوافرة والمقترحات :

بعد ان استعرضنا اهم جوانب التحديات التي تواجه العالم الثالث والوطن العربي سواء بنتيجة تميز هذا العصر بالتطور العلمي والتكنولوجي

والتفجر العرقي ام بنتيجة الضغوط والممارسات والنهب التي يتعرض لها من جانب الدول المتقدمة ولا سيما المجموعة الغربية ، فان الطريق تبدو امام هذا العالم مسدودة والحلول صعبة أو مستحيلة والمستقبل قاتما ، لكننا متفائلون وهذا ما يجب ان نكون عليه فعلا ، والا لن نستطيع تجاوز هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا والافضل لكل منا ان يشعل شمعة او شعلة او مصباحا افضل من ان يلعن الظلام .

كما لا بد لنا من استشراف المستقبل وفتح ابواب ونوافذ جديدة ، كلما اغلقت امامنا ابواب ونوافذ اودعت الحاجة لذلك اننا نجد برغم ان الكثير من المحللين يعتقدون بأن العالم الثالث لم يبق منه سوى العظم والروح والجلد لكنني اعتقد عكس ذلك اي انه ما زال يملك الشيء الكثير الذي يجعله يتخطى هذه المرحلة بثقة واصرار اذا احسن التصرف ومن العوامل الايجابية التي يمكن ان يعتمد عليها العالم الثالث والوطن العربي وتجعلنا متفائلين هي :

١ ــ **الاراضي الزراعية** : تشير مختلف الدراسات الى وجود ٥ر١ مليار هكتار من الاراضي الزراعية في العالم وجزء كبير منها يقع في دول العالم الثالث والوطن العربي ، كما ان هناك ٣ مليارات هكتار ارض من المراعي ، بالاضافة لذلك هناك ٤ مليار هكتار اخرى من الغابات والاحراج اي ما مجموعه حوالي ٨ مليارات هكتار تكفي لاطعام ٨٠ ــ ١٦٠ مليار انسان هذا اذا لم تتقدم وتتطور الزراعة مع مرور الزمن بينما عدد سكان الكرة الارضية لن يتجاوز ٢ر٦ مليارات انسان في نهاية هذا القرن كما اشرت سابقا .

٢ ــ **الثروات الباطنية** : تمتلك دول العالم الثالث والوطن العربي ٨٠٪ من احتياطي المواد الاولية في العالم حوالي ٨٨٪ من احتياطي النفط العالمي وتعد هذه الموارد من الشروط الاساسية لاقامة التنمية والتقدم .

٣ ــ **الشمس والطاقات الاخرى** : تسطع الشمس (وهي الملاذ الاخير للبشرية من حيث توافر الطاقة المستقبلية) في كثير من دول العالم الثالث اكثر من /٣٠٠/ يوم في السنة ، حيث ان الطاقة الشمسية السنوية في

الوطن العربي تزيد عن /٦٪/ أضعاف كامل احتياطي النفط ، وتبلغ استطاعتها ٤ر٣ × ١٠.٩ ميغا واط اي تقدم خلال سنة واحدة ٣٠ × ١٠.١٥ ك واط ساعي أو ما يعادل

$(Q = 2{,}93 \times 10^{14} \text{ kwh})$ 100 Q

علما بأن الاستهلاك العالمي الحالي من الطاقة / 0,25 Q / اضف اليها الكميات الكبيرة من البترول والغاز .

٤ ـ **الاعداد الكبيرة للسكان :** يصل عدد سكان دول العالم الثالث بما في ذلك الوطن العربي حاليا الى حوالي /٤/ مليارات انسان ، واذا فرضنا انه يمكن تشغيل ٢٥٪ من السكان فقط فهذا يعني ان مليار انسان قادر على العمل ، واذا ما أدركنا أن الانسان كان وما زال وسيبقى محور ومحرك كل تقدم ، وان معظم الدراسات التي اجريت في البلدان الصناعية المتقدمة تشير الى ان ٦٠ ـ ٨٠٪ من التحسن الماضي الذي تم للناس يعود بالدرجة الاولى الى التقدم التقني الذي يمثل الانسان فيه حجر الزاوية ، وان ٢٠٪ فقط يعزى الى تراكم راس المال .

بالاضافة لذلك فان قدرات الانسان يمكن أن تتضاعف ، اذ يقول العالم « ماشادو » أول وزير للذكاء من فنزويلا ما يلي :

- يمكن أن يكون كل فرد ذكيا .
- التفكير مهارة يمكن أن يتعلمها الانسان .
- تعلم التفكير وسيلة لرفع الذكاء .
- التربية هي افضل السبل لتعلم الذكاء .

هذا كله يعني انه اذا أحسنا العناية بالانسان في العالم الثالث والوطن العربي فان طاقاته الفردية والجماعية ستكون عندئذ بلا حدود .

٥ ـ **الحضارات القديمة :** يستند العالم الثالث وبخاصة الوطن العربي على قاعدة عريضة وصلبة اذ خرجت جميع الحضارات القديمة من أراضيه وابنائه وان علماء العرب وأدباءهم من الخوارزمي ، ابن حيان ،

ابن الهيثم ، الرازي ، ابن رشد ، ابن النفيس ، ابن خلدون ، الفارابي وغيرهم ، كانوا وما زالوا منارات خالدة على الدوام في تاريخنا وتاريخ الغـرب .

ب ـ بعض المقترحات : برغم ذلك فان العالم الثالث مازال بحاجة الى الكثير من العلم والتكنولوجيـا والتفجير المعرفي والتخطيط السليم والتنفيذ الجيد وأهم ما يحتاجه هو :

ـ التخلص من العقلية الغربية وأسلوبها في الحياة ، اذ بقدر ما هي عقلية بناءة بالنسبة الى فئة من مجتمعنا بقدر ما هي مدمرة تجاه الآخرين .

ـ العالم الثالث أحوج ما يكون الى العقول النيرة التي تنير له الطريق والايدي الماهرة التي تبني له المستقبل والجهود المخلصة التي تضحي من أجله . وبرغم توافر بعض هؤلاء الا أن جهودهم مع الاسف مبعثرة أو ما زالت تصب في خدمة الغرب .

ـ ضرورة السعي لاقامة نظام عالمي جديد في الاقتصاد والثقافـة والاعلام وغيرها والتخلص من الديون المجحفة .

ـ الاعتماد على الذات والتعاون المتبادل :

علينا جميعا أن نكون على يقين بأن العالم الثالث والوطن العربي لن يتقدما عن طريق مساعدات دول الشمال التي هي بحد ذاتها ضئيلة أو عن طريق القروض المتناقصة مع مرور الزمن وأغلبها من الدول او من الشركات المتعددة الجنسيات وهي قروض قصيرة الامد ، بينما خطط التنمية في دول العالم الثالث تتطلب مشاريع متوسطة وبعيدة المدى وهذه لن تتم الا بطاقات ذاتية وبتعاون دول العالم الثالث فيما بينها .

ـ التخطيط السليم والتنفيذ الجيد والمتابعة والمحاسبة وتصحيح المسارات كلما وقعت زلات او اخطاء .

ـ تحقيق نظام تعليمي فعال في المراحل التعليمية كافة والعنايـة المتزايدة بالتعليم الفني والمهني وتطبيق نظام التاهيل المستمر والتخلص الابدي من الاميـة .

ـ السعي لتحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية وتقريب الناس بعضهم من بعض اجتماعيا وماديا ومعنويا واعتبار الانسان أسمى ما في الوجود وهو الوسيلة والهدف .

ـ الاستفادة من تجارب الآخرين ولا سيما من تجارب دول العالم الثالث وتجربة اليابان الدولة التي لا تملك موارد اولية ولا مصادر طاقة وليس لديها الغذاء الكافي وبرغم ذلك استطاعت ان تنهض بفترة زمنية قياسية ، اذ كان متوسط دخل الفرد /٢٠/ دولار في السنة الاولى بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة واصبح اليوم أكثر من /١٥/ الف دولار ، وهذا يعني أن متوسط دخل الفرد قد ازداد /٧٥٠٠٠٪/ خلال ٤٥ سنة فقط .

واليكم اهم الركائز التي استندت اليها حتى وصلت الى المرتبة الثانية عالميا في مستوى الدخل القومي .

ح ـ اهم خصائص الشعب الياباني :

١ ـ حب الانسان للوطن في الضراء أكثر من السراء واستعداده للتفاني من اجله في السلم والحرب .

٢ ـ استخدام العقل البشري لاقصى حدود ممكنة .

٣ ـ سيادة الروح الجماعية .

٤ ـ اعطاء الافضلية للواجبات على حساب الحقوق .

٥ ـ قدسية العمل وتقدير الزمن .

٦ ـ الولاء المطلق للجهة التي يعمل لديها الانسان .

٧ ـ تطبيق نظام تعليمي جيد وفعال .

٨ ـ تجانس الشعب الياباني .

٩ ـ القدرة الفائقة على التبني والاستيعاب والاقتباس من الحضارات والثقافات الاخرى .

١٠ ـ الايمان المطلق بالعلم والتكنولوجيا والاهتمام الكبير بالبحث العلمي .

١١ ـ طاعة المرؤوس لرئيسه وعطف الرئيس على مرؤوسيه .

١٢ ـ التخطيط والتنفيذ والتقييم والمتابعة الجدية .

١٣ ـ حب المطالعة وتثقيف الذات والتعطش للمعرفة بشكل دائم والسعي للحصول عليها من اية جهة كانت .

١٤ ـ الانضباط والنظام والطاقة التامة في العمل .

١٥ ـ القدرة الكبيرة على تقديم التنازلات للآخرين .

١٦ ـ المرونة والقدرة الفائقة على التكيف السريع مع جميع المتغيرات .

اذا اردنا ان نلخص ما جاء سابقا نجد ان العالم الثالث اصبح في وضع لا يحسد عليه ، فلا حول ولا قوة ولا معين ولا نصير الا ذاته ، بل اكثر من ذلك ان جميع مشاكل العالم المتقدم من الركود الاقتصادي الى البطالة والتضخم ، حتى تلوث البيئة تصب جميعها فيه والمطلوب الاعتماد على الذات ولا سيما اقتصاديا وعلميا وتكنولوجيا وبخاصة انه اصبح لديه الاعداد الوفيرة من البشر القادرين على تجاوز هذه المرحلة اذا احسن الاختيار والتخطيط والتضحية ، كما المطلوب اقصى الحدود الممكنة من الوعي والتعاون بين دول العالم الثالث لاجتياز هذه المرحلة الخطرة من تاريخها والمطلوب ايضا من جميع ابناء هذا العالم من علماء وفنيين وعمال وفلاحين ومخلصين حتى وشرفاء العالم كله بذل مزيد من الجهود لانتشاله من هذا الوحل الغارق فيه حتى اذنيه كما يجب ان يكون الجميع على يقين انه اذا ما توقفت عجلة الحياة والتقدم في دول الجنوب فانها ولا شك ستتوقف ايضا في دول الشمال بالاضافة لذلك علينا ان ندرك ان مرحلة الرفاهية النسبية التي مرت بها بعض الدول خلال الاربعين السنة الاخيرة ليست الا مرحلة عابرة قد يدينها التاريخ يوما ما ، اما اذا قلبنا صفحات التاريخ فنرى ان الدول والشعوب واكثر الانبياء والفلاسفة والعلماء قد استطاعوا ان يبدعوا وان يعطوا امتهم والانسانية الشيء الكثير بفضل دموعهم وعرقهم ودمائهم بفضل جوعهم وعطشهم وحرمانهم بفضل ظروفهم الصعبة التي عاشوها وليس ادل على ذلك من تجربة اليابان التي بدات تقريبا من لا شيء بعد الحرب العالمية الثانية واصبحت في مكانة مرموقة الآن .

* * *

الدراسات والبحوث

التربية الثقافية للطفل العربي

بهاء الدين الزهوري

إن دراسة الطفولة اليوم تعد جزءا من الاهتمام بالواقع والمستقبل معا ، حيث يشكل الاطفال شريحة واسعة في المجتمع ، كما يشكلون الجيل التالي ، لذا فان مايبذل من جهود من اجلهم ، يؤلف مطلبا من مطالب التغير الاجتماعي المخطط ، الذي تعتبر التنمية احدى صوره .

ـ بهاء الدين الزهوري : باحث واديب من سورية ، له عدد من الابحاث الادبية والتربوية في المجلات المحلية والعربية ، وله كتابان معدان للنشر هما « الاتجاهات الجديدة في ادب الاطفال » و « الجوانب الاساسية في ثقافة الطفل .

ودراسة الطفولة علميا تتيح الوقوف على الوضع النفسي والاجتماعي للطفل ، وتهيء وضع أسس سليمة لاساليب الاتصال بهم **تعليما او تربية او تثقيفا** . حيث ان **الدراسة العلمية للطفولة** تعني **اخضاع الاطفال لمناهج التفكير العلمي وادواته ، وصولا الى فهم الطفولة ، والتنبؤ بما تؤدي اليه المثيرات المختلفة فيها ، لإمكان التحكم في احوال المستقبل وظروفه .**

وهناك ميل في الوقت الحاضر ، للتشديد المتصاعد على وجهة **النظر الثقافية في اطار التربية والتنمية** ، وقد كانت **التربية** في الماضي تكديسا للمعلومات بشكل اساسي ، اما الان **فهي نظام يسمح للانسان بالوصول إلى كامل تفتحه ووعيه** . وتشمل **الثقافة** في معناها الواسع **البيئة الطبيعية او الاصطلاحية التي يخلقها الانسان لنفسه ، او ينشأ فيها ، ووسائل العمل المتعددة التي يستخدمها للسيطرة على هذه البيئة وتغييرها على هواه ، او للتكيف معها .**

وثقافة الاطفال هي احدى الثقافات الفرعية في المجتمع ، وهي تنفرد بمجموعة من الخصائص والسمات العامة وتشترك في مجموعة أخرى منها . ومادام الاطفال ليسوا راشدين صغارا ، فان لهم قدرات عقلية وجسمية ونفسية واجتماعية ولغوية خاصة بهم ، ومادامت لهم أنماط سلوك متميزة ، وحيث انهم يحسون ويدركون ويتخيلون ويفكرون في دائرة ليست دائرة مصغرة ، من تلك التي يحس ويدرك ويتخيل ويفكر فيها الراشدون ، لذا فان **ثقافة الاطفال ليست تبسيطا للثقافة العامة في المجتمع او تصغيرا لها، بل هي ذات خصوصية في جميع عناصرها والوانها.**

والاطفال لا يشكلون جمهورا متجانسا ، بل يختلفون باختلاف اطوار نموهم ، لذا قسمت **مرحلة الطفولة** الى اطوار متعاقبة ، هي **مرحلة الميلاد، ومرحلة الطفولة المبكرة ، ومرحلة الطفولة المتوسطة ، ومرحلة الطفولة المتاخرة** ، وقد ترتب على ذلك أن توفرت للاطفال في كل طور ثقافة فرعية خاصة ، ومن هنا اتت اهمية **البحث عن التربية الثقافية للطفل العربي ،** بحيث تتوافق مع خصائص الطفل وحاجاته ، في كل طور من اطوار حياته .

وهناك عوامل عديدة تؤثر في تكوين ثقافة الاطفال ، منها : **نظرة المجتمع نفسه الى الطفولة ، ووسائله في نقل الثقافة الى الاطفال ، ومدى القداسة التي يخلعها على بعض عناصر ثقافته ، والتي يراها ضرورية للاطفال ، وطبيعة نظمه الاجتماعية والاقتصادية ، وآماله** .. اي ان ثقافة المجتمع ترسم – الى حد كبير – الاطار العام لثقافة الاطفال .

واحاول في هذا البحث ، الاجابة عن **التساؤلات التالية :**

– **ماهي خصائص ثقافة الطفل ووظائفها ؟**

– **اين تكمن اهمية ثقافة الطفل ؟**

– **مادور وسائط ثقافة الطفل ؟**

– **مامدى الربط بين التربية الثقافية والمستقبل ؟**

– **خصائص الثقافة ووظائفها :**

تتصف **الثقافة** ، بعدة خصائص تعطيها طابعها النوعي المميز كهوية اجتماعية ، كما انها تقوم بالعديد من الوظائف التي تؤدي الى تماسك المجتمع في توجهاته الكبرى ، وتولبة الافراد كي يصبحوا اعضاء فيه ، يعيشون ويتصرفون تبعا لتلك التوجهات .

والثقافة هي في المقام الاول **نسق او نظام ، يتكون من مجموعة مترابطة ، من طرق التفكير والاحساس والتأثر** ، واي تغيير في جانب منه ، يؤدي الى تغيير الجوانب الاخرى ، ويدرك افراد المجتمع الواحد هذا النظام كواقع معاش ذاتيا ، ولكل مجتمع خصوصياته في ممارسة تراكيب هذا النظام او القوى الفاعلة فيه ، وهو مايؤدي الى ذلك التنوع في الثقافات من ناحية ، والى عناصر المشاركة بين بعضها من ناحية ثانية . **وابرز التراكيب الثقافية ، هي :**

١ – التقنيات : وهي تشمل كل الالات والادوات التي يستخدمها الانسان في الزراعة والصناعة ، وفي وسائل الحرب ، وتمتد ايضا الى **تقنيات الجسد** . وهذه التقنيات تتطور بوتيرة اسرع من تطور التراكيب الاخرى ، وهناك تقنيات اسرع تطورا من تقنيات اخرى .

ب ــ **التركيب اللغوي او الرمزي** : ويتمثل في اللغة المحكية والمكتوبة والاشارات والرموز . والتي اعتبرها البنيويون **أساس الثقافة** ، اذ نظروا الى كل التفاعلات والممارسات في بعدها الرمزي كله .

ج ــ **التركيب الاجتماعي** : الذي يشمل العادات والتقاليد والعلاقات على انواعها : الحقوقية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والقرابة والروابط المختلفة ، وإن **التركيب الاجتماعي ابطأ تطوراً من التركيب اللغوي والتقنيات** وهي بدورها تتفاوت في سرعة تطورها .

د ــ **التركيب المعتقدي والديني** : وهو يشمل الى جانب الدين ، جميع أشكال المعتقدات والبنية الاسطورية لدى القوم ، ويمكن للاخلاق أن تندرج أيضاً في مستوى هذا التركيب .

هـ ــ **التركيب الجمالي** : وهو يشمل الفنون والاداب والتعبير من خلال الشكل واللون والايقاع ، ويندرج هذا التركيب في **جميع التراكيب الثقافية** ، وهو يتطور بسرعة لارتباطه بالتقنيات واللغة ، اكثر من أرتباطه **بالتقنيات واللغة** ، **اكثر من ارتباطه** بالمجالات الاجتماعية والاعتقادية(١) .

ومن خلال تفاعل هذه التراكيب فيما بينها وفي وتائر تطورها . ينتج النموذج الثقافي الذي يحدد السمات الثقافية المميزة للمجتمع ، وهو يدخل في سلوك الافراد فيوجهه وينمطه ، وهكذا فمعرفة النموذج الثقافي تساعد على توقع سلوك الافراد هذا النموذج كطريقة في الوجود تعتبر مثالية وسوية ومعيارية ، اي أنها تشكل المرشد والضابط لسلوكهم وتوجهاتهم .

وفي ضوء مناقشتنا للتراكيب الثقافية ، ونظراً لاهمية ثقافة الطفل العربي ، يمكن أن نحدد الخصائص التالية لثقافة الطفل(٢) :

---

(١) راجع بحث : (علم الاجتماع ومفهوم الثقافة) للدكتور فؤاد شاهين ، مجلة الفكر العربي ، العدد (١٤) آذار ١٩٨٠ م ، ص ٦٢ .

(٢) سمر روحي الفيصل : ثقافة الطفل العربي ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، ١٩٨٧م ، ص ١٤ .

آ مكتسبة وليست فطرية ، تعتمد على التعليم وتؤمن بامكانية تعديل السلوك الخاطىء ، وتكوين السلوك الايجابي .

ب ــ تعددية وليست احادية الجانب ، تشمل المعارف العلمية والادبية والفنية والتاريخية والقيم والمهارات والقدرات ، اضافة الى انها انفتاح على الروافد الثقافية المختلفة .

ج ــ تراعي المرحلة العمرية للطفل ، فتقدم لاطفال كل مرحلة ما يناسبهم من الزاد الثقافي باشكال يستطيعون التواصل معها .

د ــ تحرص على نقل التراث الثقافي للطفل دون أن تنسى حياته في الحاضر وضرورة تهيئته للمستقبل .

هـ ــ تتجه الى الطفل الفرد ، لكنها تسعى الى أن تكون شاملة للجماعة كلها ، ومن ثم فهي فردية وجماعية في آن معاً .

و ــ متكاملة ، تضع امامها حاجة شخصية الطفل العربي الى النمو العقلي والاجتماعي والانفعالي والجسدي ، وحاجتها الى روح الجماعة والعمل المشترك ، والى التدريب على المحاكمة والنقد والتحليل والتركيب والتعبير الشفوي والكتابي .

ز ــ تساعد الطفل على التعامل طواعية مع الوسط المحيط به ، فيتأثر به ويؤثر فيه ، يكيفه ويتكيف معه ، مما يساهم في تجانس المجتمع وتضامنه ، وقدرته على التقدم .

ح ــ لا تهمل عموميات الثقافة ، كالعادات والتقاليد والتاريخ وانماط السلوك وطرق التفكير ، التي يشترك فيها الافراد في مجتمع الطفل ، ويتميزون بوساطتها عن المجتمعات الاخرى وتسعى الى التركيز على المحور الثقافي لهذه العموميات ، وبخاصة القيم والمشاعر والمعلومات والمهارات التي تهيء للمجتمع وسائل الاستقرار والحيوية .

ويمكن استخلاص وظيفتين أساسيتين لثقافة الطفل ، انطلاقا من تحديد خصائصها ، وهما :

ـ الوظيفة الاجتماعية : انها الوظيفة الاساسية لثقافة الطفل ، فالثقافة لا تنتقل بطريقة فطرية موروثة من الآباء الى الابناء ، او من فرد الى آخر في المجتمع ، فالطفل يولد دون شخصيته ، ثم تتكون شخصيته اثناء تفاعله مع المحيط الخارجي في الاسرة والمدرسة والمجتمع ويؤدي التعليم والتقليد الى خلق مركب ثقافي في شخصيته ، وهذا المركب الثقافي يتكون من القيم والعادات وانماط السلوك ، التي تعني الافكار والمشاعر والتصرف في المواقف المختلفة ، وتتمثل الوظيفة الاجتماعية ايضاً بتوحيد الناس في مجتمع خاص بهم ، وذلك من خلال تراكيب اللغة والرموز ، والمعتقدات ، والجماليات . فلا توجد ثقافة من غير مجتمع ، كما ان المجتمع يتكون من افراد ، وافراد المجتمع هم الذين يتصرفون ويشعرون ويفكرون وفق الانماط الخاصة بثقافتهم

والوظيفة النفسية : انها وظيفة (القولبة) لافراد المجتمع ، أي اكتساب هؤلاء اساليب التفكير والمعرفة وقنوات التعبير عن العواطف والاحاسيس ،ووسائل اشباع الحاجات (الفيزيولوجية) ، وهو ما اصبح يدل عليه بمصطلح (التدامج الاجتماعي)(٣) أو (التنشئة الاجتماعية) . وغاية هذه الوظيفة مساعدة الاطفال على التكيف مع الثقافة ، واكتسابهم لهويتهم الاجتماعية الثقافية ، ومن هنا تكتسب اهميتها الكبرى في تثقيف الطفل العربي .

ـ **التربية والثقافة :**

وسأحاول باختصار طرح العلاقة بين مفاهيم التربية والثقافة ، وأثر كل منهما على الآخر ، فاذا كانت الثقافة وسيلة الانسان الى البقاء والتطور ، فان التربية هي المؤسسة الثقافية ، لحفظ التراث الثقافي ونقله من جيل الى جيل ، والتربية هي ايضاً التقدم الذي يجسد الماضي في الحاضر ، لصنع مستقبل يحافظ على الاستمرارية ، والتربية

(٣) د. مصطفى إحجازي : ثقافة الطفل العربي بين التعريب والاصالة ، من منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ط (١) ١٩٩٠م ، ص ٢٤ .

هي ايضاً التنظيم الدينامي لما اكتسبته الجماعة ، يساعد الفرد على الاندماج بمجتمعه بشكل وثيق ومفيد .

وقديماً كانت التربية ، تهدف الى إحداث تغيير في سلوك المتعلم ، مما حدا بالمربين الاعتماد كلياً على السيكولوجيا التي ميدانها دراسة الفرد ، وما من احد ينكر اهمية السيكولوجيا في هذا المضمار ، غير انها عجزت بعض الشيء عن تعيين الاتجاه الذي يجب أن يسير نحوه هذا التغيير ، وكان لزاماً على التربية أن تستفيد من العلوم الاجتماعية ، وبخاصة الانثروبولوجيا ، التي تختص اكثر ما تختص ، بدراسة الثقافات الانسانية وخصوصاً البدائية منها ، ولعل التربية في امس الحاجة لذلك ، لاسيما وان من أهدافها الاساسية تصفية التراث الثقافي ، ثم نقله عبر الاجيال المتعاقبة .

ويمكن اعتبار الثقافة في اي مجتمع بيئة تنمو وتترعرع التربية في كنفها ، متأثرة بها ومؤثرة فيها . وهناك عدة اسس يمكن اخذها بعين الاعتبار ، عند دراسة العلاقة بين التربية والبيئة الثقافية ، ومن هذه الاسس :

آ ــ المؤسسة التربوية كعامل من عوامل التثقيف : لا بد للجيل الصغير في كل ثقافة من الالمام بالعناصر الثقافية ، كالمعتقدات والقيم والانماط السلوكية ، التي يعيشها أهله وافراد المجتمع من حوله ، ويمكن أن تسمى عملية الالمام هذه ، التثقيف . فمنذ ان يولد الطفل ، حتى يصبح راشداً ، وهو يحاول الاحاطة بالعناصر الثقافية التي تحيط به ، مما حدا بالمربين اعتبار العملية التربوية عملية مستمرة ما دام الانسان حياً .

ويتعلم الانسان المحتويات الثقافية ومعطياتها ، بطريقتين مهمتين :

الاولى : بالطريقة غير الرسمية ، التي تتم بوساطة الحياة مع الأسرة ، والتعلم بالتفاعل والاحتكاك والمحاكاة ، ثم الانتقال الى المجتمع الخارجي (أي خارج الاسرة) ، الى رفاق اللعب واصدقاء العمل ،

ويدخل من ضمن هذه الطريقة ايضاً التعلم بوساطة وسائل الايصال والاتصال كالاذاعة والتلفاز وغيرهما .

والثانية : وقد اختار المربون تسميتها التعليم بالطرق الرسمية ، اي عن طريق المدارس والمناهج المنظمة ، والمعلمين المختصين ، الذين يقومون بنقل التراث الثقافي للاجيال الصغيرة .

ب ـ التربية كاحد العناصر الثقافية : وهي الجزء الرسمي لعملية التثقيف ، وبالرغم من اشتراكها في بعض العناصر مع ثقافات اخرى الا انها لا بد ان تكون متأثرة بالثقافة المحيطة ، لا سيما ان المعلم الذي يشرف على التربية يكون حاملا لغالبية القيم والمعتقدات السائدة في تلك الثقافة . والتربية (في اي ثقافة) تكون عبارة عن الجزء المصقول من العناصر الثقافية ، خصوصاً في الثقافات التقليدية ، حيث تكون المدرسة بثقافتها وبتركيبها الاجتماعي اكثر رسمية وتقدما مما هو عليه الحال في المجتمع ، اما في الثقافات المتقدمة فتكون المدرسة اقرب بثقافتها وبتركيبها الى المجتمع المحيط بها ، مما هي الحال في المجتمعات النامية .

ج ـ التربية كناقلة للتراث الثقافي : منذ القدم واهم وظيفة للمدرسة هي نقل التراث الثقافي ، من الأجيال السابقة للاجيال اللاحقة والمحافظة على هذا التراث ، غير ان المدرسة لا تقوم بنقل هذا التراث كاملا سالما دون اضافة او تعديل ، فهي تنقله بعد ان تجري شيئاً من التعديل ، وبعد أن تضيف العناصر الجديدة التي توصل اليها الجيل الحاضر ، وتتمشى هذه الاضافات والتعديلات ، عادة مع روح العصر ، وتتناسب مع ثقافة الاجيال الحاضرة .

د ـ الأهداف التربوية في الثقافات المختلفة : ان روح العصر الحاضر لأي ثقافة ، لا بد أن يرفض بعض العناصر الثقافية الماضية ، خصوصاً أن تغييرات كثيرة في القيم الثقافية والضوابط الاجتماعية ، تكون قد طرات على أفراد تلك الثقافة ، هذا فضلا عن تغييرات اخرى كالتقدم التقني ، وازدياد السكان ، واتساع المدن ، وتحسن وسائل الاتصال ،

التي تزحف تلقائيا وتغمر المجتمعات في عصرنا الحاضر ، وهذه العوامل من غير شك ، تؤثر في القيم الاجتماعية الثقافة ، حيث لا يمكن لأحد أن ينكر ان هذه التغييرات الثقافية ، لا بد ان تؤثر في طرائق تفكير الناس ، وفي سلوكهم ، مما يجعلهم لا يتقبلون الا ما يناسب وضعهم الحاضر ، وربما شيئا مما يناسب المستقبل .

هـ ــ التربية وتحديد المراكز في المجتمع : ومن الادوار الهامة التي تلعبها التربية في اي مجتمع ، تعيين مراكز الافراد ، فالفرد المتعلم المهيأ لمهنة معينة لا بد ان يشتغل بهذه المهنة ، ويكون افراد المهنة الواحدة ثقافات فرعية للثقافة الرئيسية،ولما كانت المهنة تعتمد في اغلب الاحيان ــ على نوع التعليم الذي يحصل عليه الفرد ، امكن لنا هنا ان ندرك اهمية التربية في خلق الثقافات المتعددة المختلفة ، وهذا من ناحية التعليم الرسمي (او المدرسة) ، أما بالنسبة للتنشئة الاجتماعية (او التعليم غير الرسمي) فواضح ان الفرد الذي يتثقف بحياة زراعية، يختلف (ثقافيا) عن فرد يتثقف في بيئة صناعية او تجارية .

و ــ التربية والتغير الثقافي : يشكل التغير الثقافي مشكلة هامة للمربين في عصرنا الحاضر ، فالمعارف والمخترعات التي توصل اليها الانسان في هذا القرن تفوق انجازاته بكاملها في القرون الماضية ، ومنذ ان وجد الانسان في هذا الكوكب ، والمشكلة هذه اشد حدة في المجتمعات المتقدمة منها في المجتمعات النامية ، خصوصا ان الاطفال اخذوا يستقون علمهم من التلفاز ، الذي هو احدث واسرع في احضار المعلومات من المدرسة .

ز ــ دور التربية في التغير الثقافي : المدرسة هي المؤسسة الرسمية التي وضعها المجتمع لتنوب عنه في تثقيف ابنائه ، والمساهمة في تنشئتهم ، لذا فان لها دورا مهما يساوي ذلك الدور ، او الادوار التي تقوم بها المؤسسات الاخرى كالعائلة والعمل ورفاق اللعب وغير ذلك، وهناك من يعتقد بأن دور المدرسة اهم بكثير من ادوار المؤسسات الاخرى ، لاسيما انه يقوم بالاشراف عليها اناس تخصصوا بهذه

العملية(٤) . ولا نريد هنا ان ندلل على أهمية المدرسة في حياة الانسان، وانما ننوي القول بانه اذا ما ادركت المدرسة والمشرفون عليها ذلك ، فانه يمكنهم تغيير ثقافة المجتمع وتطويرها .

ويحسن بنا ذكر مميزات التربية الحديثة ، لان التربية في وقتنا الحاضر يمكن أن تكون اداة فعالة في تطوير ثقافة المجتمع وتغييرها نحو اي اتجاه ، بحيث بخدم أغراض المجتمع واهدافه . وهذه الميزاتهي:

١ ـ الاهتمام بالطفل ونموه الجسمي والعقلي والوجداني والاجتماعي : وكان هذا الاهتمام نتيجة لتقدم علم النفس وتجاربه وتقدم التربية التجريبية ، فتجارب علم النفس اخذت تطبق في حجرة الدراسة ، وتتخذ اساسا لتجارب اخرى تربوية ، كقياس مواهب الاطفال وذكائهم ونموهم ، وبذلك اخذت التربية تقترب من العلوم التجريبية ، ويزاولها المربون وفقا لاسس ضابطة ، كلها مستمدة من الطفل الذي هو موضوع التربية .

٢ ـ احترام شخصية الطفل ، فقد احاطته التربية الحديثة بالثقة والطمانينة ، واشعرته بشخصيته وفرديته ، وذلك بتمكينه من التعبير عما في نفسه بكل انواع التعبير : كالكلام ، واللعب ، والرقص، والغناء والتمثيل ، والرسم والاشغال .

٣ ـ التعليم عن طريق اللعب والتجربة والممارسة : وقد كانت التربية التقليدية تعتبر اللعب مضيعة للوقت والمجهود ، وتحول بين الاطفال وبينه ، اما التربية الحديثة فترى انه ضروري لنمو الفرد الجسمي والعقلي ، وانه ميل طبيعي له غايته التربوية العظيمة .

٤ ـ التعليم عن طريق العمل والخبرة الشخصية : ويرجع هذا المبدأ الى جعل المدرسة صورة من الحياة . ولا يخفى مافي هذا المبدأ من تشجيع الاعتماد على النفس ، وتنظيم عملية التفكير ، وتنمية روح

(٤) د. احمد ابو هلال : الانثروبولوجيا التربوية ، الجامعة الاردنية ، عمان ط(١) ١٩٧٤ م ، ص ٢٣١ .

التعاون مع الجماعة ، والعناية بأسلوب العمل ، اكثر من تحصيل المعرفة نفسها .

٥ ــ خلق الجو الاجتماعي لنمو الطفل وتكامل شخصيته : وذلك لان المدرسة الناهضة جزء من المجتمع ، أو هي مجتمع صغير ، فهي اذن تمكن الطفل من ان يعامل زملاءه ورؤساءه بالروح الطيبة ، التي تخلقها هذه المدرسة ، روح الاحترام والاخذ والعطاء ، ومعرفة الحقوق والواجبات ، وتنفيذ القوانين واللوائح عن رغبة واصلاح واخلاص ، وأداء الواجب للواجب عينه .

٦ ــ العناية بصحة الجسم والعقل : وذلك باعداد المدرسة الصالحة لنمو الجسم نموا طبيعيا ، وفهم الناحية الوجدانية والنزوعية عند الطفل ، وتوجيهها توجيها صحيحا ، يتخلص به من العقد النفسية بقدر ما يمكن(٥) .

ــ اهمية ثقافة الطفل :

وتهدف الخطة الشاملة للثقافة العربية ، كما وردت في التقرير النهائي ، الذي وضعته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم(٦) ، والذي يمثل الاستراتيجية الثقافية العربية في مقوماتها ومحاورها ، الى بناء نظرية ثقافية متكاملة ، تشكل اطارا مرجعيا للسياسات الثقافية العربية ، انطلاقا من تحديد المنظور المستقبلي والرؤية الواضحة لنوع الانسان وشكل المجتمع المرجو .

ذلك ان الثقافة في هذا المنظور ترتبط بالهوية العربية ، حيث تمثل روح الامة واصالتها من ناحية ، كما ترتبط بالمستقبل نظرا لدورها في التنمية الشاملة ، ووظيفتها في صناعة المجتمع وصوغ ملامحه وهويته

---

(٥) أ. صالح عبد العزيز و د. عبد العزيز عبد المجيد : التربية وطرق التدريس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ م ، ص ٦٢ ــ ٦٤ ..

(٦) الخطة الشاملة للثقافة العربية : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، طبعت في الكويت ١٩٨٦ م .

وتماسكه من ناحية ثانية ، فهي تشكل بذلك ركن البناء الحضاري وأساس تماسك الامة ، وهي تربط الماضي بالحاضر والمستقبل صانعة بذلك الهوية المميزة للامة العربية في انفتاحها العالمي .

وترى الخطة الشاملة ، ان وظائف الثقافة القومية تنصب على تأكيد الاهداف الكبرى للامة العربية ، التي ناضلت من اجلها منذ عصر النهضة ، والتي تتمثل في : الاستقلال في مواجهة الهيمنة والاستعمار ، والوحدة في مقابل التجزئة ، والديمقراطية في مواجهة الاستبداد ، والعدالة في مواجهة الاستغلال ، والتنمية في مواجهة التخلف ، والاصالة في مواجهة التبعية والتغريب ، والحضور القومي بين الامم وصناعة المستقبل وتجاوز الانقسام بين فريق يخاصم الماضي وفريق يخاصم المستقبل .

ولكي تقوم الثقافة العربية بهذه الوظائف ، لا بد لها من الاستناد الى المبادىء الرئيسة التالية(٧) :

ــ حق العربي في اكتساب الثقافة والتعبير عنها باعتباره غاية كل تنميـة .

ــ شمولية عملية التخطيط للتنمية ، حيث تشكل الثقافة ركنا أساسيا فيها ، ذلك ان التطوير الاقتصادي والاجتماعي لا يتم الا بالتخطيط الثقافي ، الذي يحدد الاهداف المستقبلية للامة .

ــ يشكل التراث الحضاري العربي الاسلامي الركن الاساس في الثقافة العربية .

ــ بما أن الثقافة هي الزاد الفكري والروحي للجميع ، فلابد لها من أن تكون ديمقراطية وجماهيرية انتاجا واستهلاكا .

ــ قومية الثقافة ووحدتها عربيا ، كاطار يعطي الخصوصيات القطرية كل غناها .

---

(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٦ .

ـ دينامية الاصالة والمعاصرة ، والخصوصية العربية والانفتاح العالمي .

ـ مسؤولية المؤسسات الرسمية والشعبية في التخطيط الثقافي الشامل ، وفي ترجمة هذه الخطط الى برامج منفذة فعليا .

وبعد هذا التوضيح للثقافة العربية ومقوماتها ، يتعين تحديد اطار البحث في ثقافة الطفل . ولن ينحصر اطار هذا البحث في عملية التثقيف بالمعنى الفكري الضيق (اي عملية تهذيب النفس وترقية الفكر من خلال التزود بالمعارف)، بل سيتسع ليشمل عملية التنشئةالاجتماعية، انطلاقا من مفهوم الثقافة بالمعنى الواسع والثقافة العربية تحديدا ، والبحث في ثقافة الطفل يصبح بحثا في الخيارات الفكرية الكبرى لتشكيل شخصية الطفل العربي ، وانتمائه الى ثقافته القومية ،وارساء اسس متينة للهوية العربية ، ويركز على تنمية اسس فكرية اجتماعية عربية ، تجعل الطفل نواة الثقافة العربية وروحها الموجهة .

وتنبع اهمية ثقافة الطفل ، من وظيفتها الاساسية ، في تحويل المولود الجديد من كائن بيولوجي الى كائن اجتماعي ، وتبدأ هذهالعملية قبل ميلاد الطفل وأثناءه وتستمر بعده حتى الممات ، الا ان الثقافة بما هي تنشئة اجتماعية تحتل مكانة هامة جدا ، خلال سنواتالطفولة وصولا الى سن الرشد ، فخلال هذه السنوات الحاسمة تتم عملية الانتماء الاجتماعي بخصائصها وديناميتها الاساسية ، كما تتشكل الهوية الذاتية التي يلعب المحيط الاجتماعي بمختلف مثيراته ووسائطه الدور الحاسم فيها ، كما ان الثقافة لا تقتصر على تكوين الهوية ، بل تتعداه الى تكوين الشخصية بمجملها وتحدد السلوك وتوجهاته ، وذلك من خلال تقنين وتوجيه عمليات النمو ، في مختلف ابعادها العاطفية والمعرفية والاجتماعية والسلوكية والجمالية .

وهكذا فثقافة الطفل ليست مجرد عملية ارتقاء فكري وتهذيب للحواسّ ، بل هي اعداد للمستقبل وصناعة له ، من خلال اعداد اجيال

الغد ، هذا المستقبل رهن بعملية التنشئة ومدى العناية التي تعطى لها ونوع التوجهات الاساسية التي تتخذها ، ولذلك فلا مبالغة في القول بأن مدى تقدم المجتمع يرتبط بمدى اهمية النظرة الى الطفولة والتعامل معها واعدادها .

وان الهوية الوطنية وصناعة المستقبل(٨) ، تبينان لنا أهمية ثقافة الطفل في الوطن العربي ، وطرحها على اسس علمية وتحديد خياراتها الكبرى بعناية فائقة ، ذلك هو احد السبل الكبرى للحفاظ على استمرارية الثقافة العربية ، ليس من خلال تقوقعها ، بل من خلال تجديدها واغنائها وبث الدينامية في مقوماتها الاساسية ، ويزداد إلحاح هذه القضية مع تصاعد حملات الغزو الثقافي للوطن العربي وعمليات التغريب .

ويتحدد مصدر هذا الإلحاح ، في قابلية الطفولة والناشئة الكبيرة للتغير الثقافي والتأثر بالتيارات الجديدة والتجاوب السريع معها ، وصولا الى تبنيها ، فالطفولة لا يمكن ان تبقى في فراغ او تعثر او تضارب ثقافي ، اذ ان ذلك يفتح السبيل امام تسرب البدائل التي يقدمها الغزو الثقافي ، وهي بدائل لا تخدم قطعا اهداف الانتماء والهوية الوطنية والاعداد لصناعة المستقبل ، بل ترمي كما هو معلوم الى زعزعةالروابط بالاصالة وتقطيع اوصال التاريخ وصولا الى الصهر الثقافي والاتباع .

وبذلك تتجلى أهمية ثقافة الطفل العربي ، في الدفاع عن الكيان من ناحية ، وفي صناعة المصير من ناحية ثانية ، مما يجعل الجهود مبررة في هذا المضمار ، ويجعل كل تراخ او تسيب استسلاما للثقافات الغازية ، وذوبانا فيها ، وتبديدا الكيان والمصير(٩) .

ـ وسائط ثقافة الطفل :

ويوجه معظم علماء الاجناس ، وعلماء النفس ، اهتماما كبيرا

(٨) د. مصطفى حجازي : ثقافة الطفل العربي بين التغريب والاصالة ، ص ٣٦ .
(٩) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٦ .

لأساليب التربية ، وهم يعتقدون ان الطرق والوسائل المستخدمة في تنشئة الاطفال ، من اهم العوامل التي تؤثر في تكوين الشخصية من ناحية ، كما تنتج أفرادا لهم قيم ومصالح ومواقف متسقة مع مطالب الثقافة من ناحية أخرى . وتختلف أساليب تربية الاطفال ، وخبرات الطفولة في الثقافات الفرعية داخل الثقافة الواحدة ، ولذا يختلف نمط الشخصية باختلاف الثقافات المختلفة .

وبطبيعة الحال ، ان الثقافة تؤثر في الطفل من خلال مؤسساتها المختلفة ، وبعض هذه المؤسسات له اثره التربوي المقصود ، اي ان مهمتها الرئيسة هي تربية الطفل واعداده الاعداد المناسب لعضوية المجتمع الذي يعيش فيه، ونذكر من هذه المؤسسات:الاسرة والمدرسة. الا ان معظم المؤسسات الثقافية تقوم بدور تربوي معين بطريق غير مباشر ، واذا كانت رسالة الاسرة والمدرسة تتجه بصفة أساسية الى الاجيال الناشئة ، فان المؤسسات الثقافية الاخرى كالصحافة والمجلات والاذاعة والتلفاز وغيرها ، تتجه الى الكبار والصغار معا ، اي ان تاثيرها يبدأ منذ طفولة المواطن ويستمر خلال مراحل نموه وحياته .

ويهمنا هنا التعرف على وسائط ثقافة الطفل بانواعها المختلفة ، وتقسم هذه الوسائط الى عدة فئات ابرزها مايلي :

ـ الوسائط المكتوبة : وتتضمن ادب الاطفال من قصص وحكايات، وكذلك المجلات والمعاجم ودوائر المعارف العلمية والتاريخية ، وكتب السير والتراجم .

ـ الوسائط المسموعة والمرئية : وتتضمن المسلسلات والحكايات والبرامج التي تعرض في الاذاعة ، وكذلك برامج التلفاز على اختلافها: تربوية ، وتعليمية ، ووثائقية ، وترفيهية ، ومغامرات ، وتاريخية ، وبوليسية .

ـ الوسائط المجسدة : من مسرح أطفال ، ومسرح دمى ، على اختلاف موضوعاتها ومستوياتها .

ــ الفنون الجميلة : وتتضمن الموسيقى والاغاني للأطفال وكذلك الفنون التشكيلية .

ــ الوسائل التربوية والالعاب : وهي تشكيلة كبيرة من الانشطة المعرفية : ارقام ، حساب ، رياضيات ، علوم ، تاريخ ، جغرافيا ، علوم الطبيعة والحياة ، العاب فكرية ، والعاب مهارة(١٠) .

وتتكامل هذه الوسائط في وظائفها ، وفيما يحمله كل منها الى الطفل من دلالات ومؤثرات ، وفيما تلعبه في نفسية الناشئة وقضاياها الوجودية من أدوار ، ولا نغالي في القول ، إذا قلنا بانها تشكل في مجموعها شبكة تحيط بالطفل وتستوعبه ، مما يجعل دورها في تحديد عالمه وتوجهاته يفوق كل تصور او نظرة سطحية .

ويؤدي الوسيط الثقافي دورا حيويا في ايصال الانتاج الثقافي الى الأطفال ، وبصبغ الوسيط الجيد العمل الادبي بصبغة خاصة ، تتفق مع طبيعته التي تميزه عن غيره من الوسطاء ، وهو في هذا يضفي على العمل الأدبي الوانا من التشويق ، تجعله أكثر اقترابا من نفوس الإطفال وتجعلهم اكثر حرصا عليه ، وسعيا وراءه ، كما تجعل تأثيره في نفوسهم اعمق وأبقى .

ويقودنا التعرف على وسائط ثقافة الطفل ، الى الحديث عن دلالات الموهبة الثقافية عند الاطفال ، بغية الاستفادة منها في التعامل مع الوسائط الثقافية التي تتمثل في النقاط التالية :

ــ القدرة على تحليل المقروء والمسموع ونقده وتذوقه .

ــ القدرة على استعمال اللغة العربية الفصيحة في الاتصال بالاخرين شفويا وكتابيا ، مع وضوح الأفكار ودقتها وصحتها وتنظيمها .

ــ القراءة السليمة المعبرة .

ــ القدرة على فهم المعاني والأفكار من خلال القراءة الصامتة .

(١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٥ .

ـ الجرأة الادبية والقدرة الخطابية والتمثيلية .

ـ الميل الى المطالعة الحرة .

ـ القدرة على الاحساس بالجمال وتذوقه في النصوص .

ـ التفوق على الاقران في لون من الوان النشاط اللغوي او الادبي أو الثقافي(١١) .

ولا شك في ان وسائط ثقافة الطفل بانواعها المختلفة ، تساهم في رعاية الاطفال وتنشئتهم ، من خلال احتضانها الانتاج الثقافي للموهوبين ، فجميع الوسائط ووسائل الاعلام مطالبة بمتابعة هؤلاء الاطفال ، الذين يكتبون ويتصلون بها ، واضافة لذلك أرى ان الاسرة والمدرسة والمجتمع هي مصادر الرعاية للاطفال الموهوبين ثقافيا ، لان هؤلاء الاطفال هم المستقبل ، وعماد المجتمع في التقدم والازدهار .

ـ التربية الثقافية والمستقبل :

ولقد استقر رأي العلماء ، على ان التربية عملية تنصرف في جوهرها الى اعداد الطفل الصغير اعدادا يؤهله لكي يكون فردا صالحا نافعا لنفسه ولمجتمعه ، ويتسع مفهوم التربية ليشمل ثلاثة مجالات ، هي : تنمية الجسم تنمية سليمة عن طريق الرعاية الصحية الشاملة والمستمرة ، وتهذيب النفس بما ينطوي عليه من رقي في المشاعر والوجدان والتمسك بالقيم الخلقية ، وتثقيف الفكر وتحصيل المعارف بما يؤكد وجود الفرد برؤية صالحة نافعة ، لليوم والغد الافضل .

وطبيعي ، ونحن امام تعدد لجوانب التربية ، ان يتعدد القائمون عليها والمسؤولون عنها ، من الاسرة الى المدرسة الى المجتمع ، وان كانت أدوارهم غير منفصلة أو متباعدة . ولكن ما يهمنا هنا ، التربية الثقافية والفكرية والاخلاقية ، التي تمثل ضلعي المثلث القائمين على التربية الجسدية ، واللذان يلتقيان في عناق ، من اجل تنشئة الطفل الصغير على الخير والمحبة والتفكير السليم

(١١) سمر روحي الفيصل : ثقافة الطفل العربي ، ص ٢٥ .

وبعيدا عن النظريات المختلفة المبثوثة في المراجع عن التربية ، فان هذه العملية قد لازمت الإنسان منذ وجد على ظهر الارض ، باذلا جهده العضلي والعقلي في السيطرة عليها ، والوصول الى كل ما يهيء له حياة آمنة فاضلة .

وان الاهتمام بالتربية الثقافية للطفل ، يعني كما ذكرنا سابقا الاهتمام بالواقع والمستقبل معا ، وان قضية المستقبل ليست فصلا جديدا في كتاب التاريخ ، يبدأ من خواء ، بل ان المستقبل هو الحصيلة التراكمية لما يتتابع من الاحداث ، وعمليات التغير النابعة من المجتمع او الوافدة عليه وحين نحاول استشراف مستقبل الوطن العربي مثلا في نهاية القرن الحالي او بدء القرن التالي ، فان علينا ان ندرك انها ستكون ثمرة ما نفعله او ما لا نفعله منذ الان ، وحتى ذلك التاريخ .

وليس هناك من شك ، في ان الوضع الحالي للتربية الثقافية للطفل في الدول العربية ، بكل اشكالياتها المتناقضة ، يؤثر تأثيرا بالغا على مسارات المستقبل ، وتنبعث ضرورة الدراسات المستقبلية العربية ، بصفة اساسية ، من حقيقة ان الامة العربية في هذه المرحلة من تاريخها ، تتمتع بامكانات هائلة للتطور ، ولتحقيق نهضة حضارية شاملة ، ولكنها في الوقت نفسه تواجه تحديات ضخمة في الداخل والخارج ، وتتعدد أمامها المسارات ، وتتشعب الطرق ، التي يمكن أن تسلكها لبلوغ اهدافها والتغلب على الصعوبات التي تواجهها ؛ وعلى الرغم من اهمية المستقبل ودراسته ، فان الدراسات المستقبلية مازالت مسعى علميا حديث العهد ومنهجيتها ما زالت محل الجدل والنقاش ، ويتطلب اجراء الدراسات المستقبلية على نحو سليم ، اربعة أمور .

ـ المعرفة الوثيقة بالواقع العربي .

ـ المتابعة المستمرة للتطور في العلوم الاساسية وتطبيقاتها (التكنولوجية) .

الاهتداء بالفكر التنموي الحديث ، وشموله لمجموع ما يسمى العلوم الاجتماعية .

ـ استخدام الأساليب الكمية في اختبار نتائج المسارات المختلفة للتنمية(١٢) .

واذا كنا نطمح الى التنمية الشاملة ، او التحرر ، او التوحيد القومي ، او العدالة الاجتماعية ، او المركز القومي في حلبة العلاقات الدولية ، او غير ذلك من الاهداف ، فان علينا أن ندرك ان شيئا من ذلك لن يتحقق ، الا اذا اخذنا بأسبابه من الآن . فالقرارات التي تتخذها اليوم ، ترتهن المستقبل في اتجاه او آخر ، والى جانب ذلك ، تسري في جنبات المجتمع العربي عمليات تغير في السلوك والقيم الاجتماعية ، مما يؤثر في تنشئة الطفل العربي وتنمية شخصيته .

ومن ثم فان الدراسات المستقبلية ليست ترفاً عقلياً ، يتلهى به بعض المثقفين ، ولا فراراً من الواقع ومشكلاته المعقدة ، بحثاً عن عالم افضل ، بل ان لها فائدة عملية ومباشرة ، من حيث التمكن من معرفة النتائج البعيدة المدى ، لما يجري في بلادنا الآن .

ومن خلال الأسس التالية ، التي يجب أن تقوم عليها التربية الثقافية للطفل العربي ، ندرك اهمية ثقافة الطفل ودورها في التخطيط المستقبل (١٣) :

ـ تأصيل الهوية الثقافية ، مع اهتمام خاص باللغة العربية .

ـ التأكيد على التراث العربي الاسلامي وما يزخر به من منجزات .

ـ التأكيد على التحصين الثقافي من أجل اطلاق طاقات النمو عند الطفل .

ـ اعتماد مبدأ قومية التخطيط لثقافة الطفل وشموليته، والتنسيق بين جميع مجالاتها ووسائطها .

(١٢) مركز دراسات الوحدة العربية : صور المستقبل العربي ، بيروت ط (٢) ١٩٨٥ م ، ص ١٧٧ .

(١٣) د. مصطفى حجازي : ثقافة الطفل بين التغريب والاصالة ، ص ٧٤ .

ـ قيام هذا التخطيط على دراسات عملية تتناول جميع جوانب حياة الطفل ، وتقوم على تنسيق جهود المختصين في مختلف وسائط ثقافة الطفل .

ـ العناية الخاصة باعداد الخبراء الفنيين والتقنيين في مختلف مجالات ثقافة الطفل وتربيته .

ـ الاهتمام بأدب الاطفال ، والخدمات المكتبية ، والنشر والتوزيع ، ومسرح الطفل ، ووسائل الترفيه ، ووسائل الاعلام المسموعة والمرئية والمقروءة .

الخاتمة :

وخلاصة القول ، ان التربية الثقافية للطفل العربي ، تطرح بكل بساطة ، وكل خطورة ، قضية الثروة البشرية المستقبلية . هل نريد ان نرعاها وننميها ونصبح اشد امتلاكاً لمصيرنا ، ام نستمر في اهمالها وهدرها ، ثم نتاسف على ما سيصل اليه حالنا من التدني والضعف ؟!

وفي الحقيقة ، ان اسوا صورة للمستقبل ، هي تلك التي تنتج عن الموقف السلبي من محاولة صنع المستقبل ، موقف التخلي عن حرية الارادة الانسانية ، وترك الاحداث تصنع مستقبل الناس ، وهذا الموقف السلبي لا يناسب التطلع المستقبلي للمجتمع العربي ، وينبغي التفكير في المستقبل والاعداد له بشكل يكون ادعى للتقدم ، ورفع مستوى المعيشة ، واحتلال الموقع الارفع في العلاقات الدولية . وان الامتناع عن محاولة استهداف صورة معينة للمستقبل ، لا يعني بقاء الحال على ما هي عليه ، وانما قد يصل بالمجتمع الى درجات ادنى ، او يفرض عليه تغيرات عنيفة ذات تكلفة اجتماعية كبيرة .

وتتجه الانظار حالياً الى التربية الثقافية للطفل العربي ، بغية تنمية الثروة البشرية المستقبلية ، على أسس صحيحة ، فالتربية الثقافية عملية حياة كاملة ، تأخذ منها وتعطيها ، وتعكس التغيرات الثقافية

وتدعمها وتثبتها ، وتعمل على استقرارها ، وهي وسيلة المجتمع الى احداث التغير المطلوب في الانسان والمجتمع على السواء .

ويمكن أن نبرز أهم الجوانب التي ينبغي ان تعمل التربية الثقافية على تحقيقها ، وهي :

١ ـ تزويد الاطفال بالحقائق والمعارف الضرورية التي تساعدهم على فهم التراث الانساني ، وكيف تطور هذا التراث على مر السنين ، وأهم المشكلات التي واجهت الانسان في هذا التطور وكيف تغلب عليها .

٢ ـ ابراز التغيرات التي حدثت وتحدث خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين ، وأثرها في حياة الانسان المادية والاجتماعية . على أن ابراز هذه التغيرات لا يعني فصلها عن حلقة التطور الانساني المستمر ، فالتغير عملية مستمرة ، لكنه من الضروري ان نوضح للاطفال سرعة التغير الحالي وضخامته وعمقه ، وأثر ذلك في تقدم البشرية .

٣ ـ تنمية العادات والاتجاهات والقيم ، التي تتفق مع التغيرات الجديدة ، مما يساعد على التكيف بنجاح مع هذه التغيرات ، ومما يساعد على احداث مزيد من التغيرات في المستقبل ، لصالح الانسان العربي .

٤ ـ تنمية أساليب السلوك التي تتفق مع القيم الجديدة ، لانه بدون تنمية أساليب السلوك المرغوب فيه ، يتوقف التقدم ويصبح التغيير مجرد شعارات تكتب أو تردد ، والتقدم في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، هو تقدم الانسان أولا وأخيرا .

٥ ـ خلق الانسجام بين المتعلمين ، حيث تعامل المدرسة اطفالها معاملة واحدة تتحقق فيها روح العدل والمساواة ، وينبغي اشاعة روح الاخوة فيما بينهم ، والعمل على توحيد الاتجاهات والمفاهيم واساليب السلوك بين المتعلمين ، مما يساعد على خلق الانسجام بينهم ، وتعاونهم في مواقع العمل المختلفة بعد تخرجهم .

٦ ـ تنمية شخصية كل طفل ، حيث تتجه التربية الثقافية الى

اعداد الشخصية المنفردة لكل طفل ، المستقلة في تفكيرها ، القادرة على اتخاذ القرارات التي تتعلق بمصيرها (١٤) .

وأخيراً ، ان التخطيط للتربية الثقافية للطفل العربي ، ما زال حلماً من الاحلام ، لان اغلب الدول العربية لم تؤمن بحاجة الاطفال الى تربية ثقافية خاصة ، غير ان الواقع العربي يبين بان ثقافة الطفل ستكتسب خلال سنوات قليلة ؛ اعترافاً اوسع واهتماماً اكبر ، وسوف تنازع السلطة الافراد في امتلاكها والاشراف عليها ، ولقد آن الأوان للقيام بنهضة تربوية وثقافية لطفلنا العربي ، والا فلن يكون المستقبل العربي افضل من حاضره .

★ ★ ★

(١٤) د. حسن الفقي : الثقافة والتربية ، دار المعارف بمصر ، ط (٢) ١٩٧٧ م ، ص ٢٠١ .

بذور التفكير النفسي - الاجتماعي في حضارات الوطن العربي القديمة

د. نزار عيون السود

تدل النظرة التاريخية الى الحضارات والمدنيات القديمة ، على انه قبل تكون علم النفس الاجتماعي بفترة طويلة ، وقبل نشوء العلوم النفسية عامة ، وقبل ان تظهر المفاهيم النفسية ـ الاجتماعية الاولى ، ظهر التفكير النفسي الاجتماعي ، ببذوره الاولى .

(*) فصل من كتاب سيصدر قريبا للمؤلف بعنوان : نشوء وتطور الفكر النفسي ـ الاجتماعي عند العرب .

ـ د. نزار عيون السود : باحث من سورية له عدد من الابحاث الاجتماعية في الحضارات العربية القديمة ، ينشر في الدوريات المحلية والعربية .

وقد تشكلت لدى الانسان ، بصورة عفوية ، وكحصيلة لارتقاء المعارف البشرية ، خبرة في استخدام قانونيات علم النفس الاجتماعي ، من أجل تحقيق نتائج عملية معينة (١ ، ص ٦) ، ودفعته تجاربه الحياتية الى استخلاص هذه القانونيات ، دون صياغتها صياغة علمية ، والاستفادة منها في حياته العملية ، ونقلها الى الاجيال اللاحقة ، باعتبارها أحد مكونات خبرته وتجاربه الاجتماعية . وقد وظفت الآداب والميثولوجيا والطقوس الدينية المختلفة توظيفا اجتماعيا منذ أقدم العصور ، حيث كان الأدب والأساطير والطقوس المختلفة يؤدي وظائف معينة ، مرتبطة بالتأثير على النفسية ـ الاجتماعية ، ويعكس الظواهر النفسية ـ الاجتماعية المتنوعة . وهذا ما يتجلى بصورة رائعة ، في حضارات الوطن العربي القديمة ، حيث نشأت قبل الميلاد بآلاف السنين حضارات عظيمة في وادي النيل وسورية ووادي الرافدين . وقد أدى تطور القوى المنتجة في هذه البلدان ، واستخدام المعادن واكتشاف الزراعة وتطورها الى الفرز الطبقي ونشوء الدول بطبقاتها الاجتماعية المتمايزة .

وقد تطرق الباحث السوفييتي ع . الكسندروف الى هذه المسألة في كتابه « تاريخ الافكار الاجتماعية » وقال بهذا الصدد : « انعكست افكار اجتماعية عديدة في آثار العمارة والرسم والنحت والفن ، وفي الادوات واعمال الحرفيين . ولاول مرة ، احتل الانسان وانشطته ووجوده الاجتماعي وتواصله مع الطبيعة وتفاعل الناس فيما بينهم ، حيزا أساسا في الفن المصري القديم » (٣ ، ص ١٢٩) .

ومما لا شك فيه ، أن الشرق القديم ، كونه مهد الحضارة والمدنية ، يعد الوطن الاول لبذور التفكير النفسي ـ الاجتماعي . « فقبل الميلاد بآلاف السنين لعبت بلدان الشرق ـ مصر وبابل وسورية والهند والصين وغيرها ، دورا بارزا في حياة الشعوب السياسية والثقافية ، وليس هذا وحده فحسب ، بل ووقفت على رأس العالم المتمدين آنذاك » (٣ ، ص ٥٨) .

وعلاوة على ذلك ، يرى الباحث الامريكي بوغاردوس ي . في كتابه « تطور الفكر الاجتماعي » أن « الفكر الاجتماعي المصري والبابلي ليس بذي

اهمية واصالة فحسب ــ وهذا امر لا يختلف عليه المؤرخون ــ بل وهو قد اولى اهمية اخلاقية كبيرة لسلوك الانسان اليومي » (٣ ، ص ٣٢) .

والحقيقة ، ان جذور علم النفس الاجتماعي وبذوره الأولى ترجع الى مجال النشاط الروحي الواعي ، وبالدرجة الاولى ، الى مجال التفكير النفسي ــ الاجتماعي والفلسفي . ففي حديثهما عن نشوء علم النفس الاجتماعي وتطوره ، قال الباحثان الفرنسيان بينتو وغرافيتس في كتابهما « مناهج العلوم الاجتماعية » ان ولادة علم النفس الاجتماعي قد جاءت « نتيجة الابحاث الطامحة الى استيعاب الفرد والمجتمع وفهمهما . . . وهذه التصورات العلمية تطورت باتجاهين : ــ طبيعة الانسان (مجال علم النفس) وطبيعة المجتمع (مجال علم الاجتماع) . لهذا فان تتبع تاريخ علم النفس الاجتماعي بكامله يعني ان نبرز لدى كل باحث ذلك الجزء الصغير من تصوراته ، الذي يخرج عن اطاري علم النفس وعلم الاجتماع ويشكل الموضوع النفسي ــ الاجتماعي ــ موضوع بحث علم النفس الاجتماعي » (٤ ، ص ٦٣) .

* * *

ان تاريخ الفكر النفسي والاجتماعي في الشرق القديم يشف لنا عن كنز وثروة غنيين من الابداع والافكار النفسية والاجتماعية الاصيلة والرائدة ، بالنسبة لعصرها . فقد عبر ابرز مفكري الشرق القديم عن افكار اجتماعية وسياسية ونفسية واخلاقية عديدة ، فقد طرحت وتجسدت في العديد من الأعمال الروائية والميثولوجية والدينية المصرية والسومرية والبابلية القديمة مسائل هامة من الفكر الاجتماعي في تلك الفترة الزمنية القديمة ، كالموقف من الشعب وموقف الانسان من ابناء مجتمعه المحيطين به ، والموقف من الاسرة ، والموقف من الخير والشر ، وموقف الانسان من الحياة والموت والعادات وماشابه ذلك . . . وقد وردت ، على سبيل المثال ، في « اغاني ارفيست المصرية » (تعود الى حوالي القرن الحادي والعشرين ق.م) فكرة صائبة وهامة عن المساواة بين جميع الناس في اساسيات وجودهم النوعي ، مهما اختلفت مراتبهم وطبقاتهم الاجتماعية . فمصير السيد لا يتميز بأي شيء عن مصير الناس الاخرين ، ومآله ، مثلهم ، الى الموت :

« هكذا يمضي الناس جيلا إثر جيل

الملوك يدفنون في الاهرامات

والنبلاء والكهنة في الأضرحة

بيد ان هناك جثثهم المحنطة ليس غير .

اين هم انفسهم ؟

وماذا حل بهم جميعا؟ (٣ ، ص ١٢٠) .

وهاهو شاعر مصري آخر ينشد : « لا احد يأخذ معه امواله ولا احد من الموتى يعود ... » . وهذا الشاعر القائل كان يعرف الاهرامات وكان بعضها قد مضى عليه ألف ومائتا عام ، فكان ينظر اليها ويقول : « وما الفائدة ؟ لقد ماتوا ، وكل هذا عبث ! » .

ويقول هذا الشاعر في قبر الملك انتيف من الاسرة الحادية عشـرة (٢١٠٠ ق.م) :

« لا يعود احد من هناك (من الآخرة)

لكي ينبئنا عما جرى لهم وعن الحظ الذي لا قوه

حتى ترضى نفوسنا الى ان نرحل نحن ايضا الى المكان الذي ذهبوا اليه » (٤ ، ص ٩٨) .

كما نجد في الروايات والقصص والمسرحيات المصرية القديمة التي تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد افكارا نفسية واجتماعية ناضجة حول حب الوطن والتعلق به ، حيث ان أكبر بلاء يصيب المصري هو ان يموت بعيدا عن وطنه ، وحول الهرم والشيخوخة : « آه ، لو عاد جسدي شابا . إن الشيب قد ملأ راسي » (٥ ، ص ٩٤) ، وحول العدالة « إن العدالة لشيء ينطلق من الانفاس » (المصدر نفسه) . كما نجد فيها ايضا افكارا هامة حول الذكر الطيب والمعاملة الحسنة ، والعدالة الاجتماعية والمراءاة، والصدق والكذب : « اسمح لي ان اجعل لك ذكرا في هذه الارض لا يساميه

القانون ... بدد الكذب واقم حياة الصدق » (٥ ، ص ١٠٥) ، و « عامل بالحسنى من احسن حتى يظل محسنا » (المصدر نفسه ، ص ١١٠) ، و « ان أشد أهل الارض خداعا يتظاهر بالاستقامة » (المصدر نفسه ، ص ١٢٥) .

وتدلنا قصة « فتح جوبى » على ان المصريين القدماء قد عرفوا الايحاء ، واستخدموا التعاويذ . كما أدرك المصريون القدماء الاهمية التربوية والسياسية للمسرح ، وقد استخدم المصريون الوطنيون المسرح في مسرحية « دعوة سيث » لإثارة الجماهير ضد الغزاة المحتلين .

وفي مجال التفكير الاخلاقي ، نجد ان المصريين القدماء قد عرفوا مهمة الاخلاق في المجتمع ودورها ، الا وهو خدمة المجتمع ، بحيث يعمل الفرد ما تحبه الجماعة .

« الرجل الذي يعمل ما يحبه الناس له الحياة

والرجل الذي يعمل ما يكرهه الناس له الموت » (٤، ص٩٦).

وكانوا يرون أن حب الطفل لاسرته هو النواة الاولى لحبه للجماعة ، وللبيئة الاجتماعية ، وهذا ما يتفق ومبادىء علم النفس الاجتماعي والتربوي الحديثة .

ويمكننا ان نستخلص من عصر الاهرام اربعة مبادىء في الاخلاق الاولى التي كانت سائدة في مصر قبل ٥٢٠٠ عام تقريبا ، وهي :

١ ــ الخوف من الموت ، واثر ذلك في نشوء الكهانة ، ومحاولة الخلود بالتحنيط والاهرامات .

٢ ــ ان الفضيلة ، كما فهمها المصريون الاوائل : هي ما احبه الناس والعكس بالعكس ، وهذا يتجلى في قصة « شق الرحا » التي تعود الى عام ٣٣٠٠ ق.م .

٣ ــ أن الاسرة هي أساس الاخلاق الاجتماعية .

٤ ـ أن كل انسان مسؤول ، وانه لهذا السبب محتاج الى التزكية ولو كان ملكا (٤ ، ٤ ص ٩٧) .

وقد حاول المصريون القدماء التفكير فيما وراء الطبيعة ، وفي مسائل الروح والعقل والجسم . ويعد المصريون القدماء أول من عرف ان الدماغ هو مركز العقل ، وانه هو الذي يسيطر على حركات الجسم (٦ ، ١١٠).

* * *

ويجد الباحث افكارا نفسية واجتماعية وتربوية واخلاقية قيمة لدى الشعوب القديمة التي قطنت بلاد مابين النهرين وسورية كالسومريين والاشوريين والبابليين والكنعانيين والفينيقيين ، وغيرهم من الشعوب الاخرى ، التي هاجر اكثرها من الجزيرة العربية على دفعات متوالية واستوطنوا مناطق مختلفة من سورية وبلاد ما بين النهرين .

ففي الاثر الادبي الاجتماعي السومري « وصايا شوروباك لابنه زياسودرا » ، الذي يرجع الى الالف الثالث قبل الميلاد ، يخاطب شوروباك ابنه قائلا :

« ابني ، اريد ان اوصيك ، فاصغ الى وصاياي ،

اياك ان تتجاهل ما اكلفك به .

زياسودرا ! ساقول لك كلمة ، فاصغ اليها باهتمام ،

ولا تخرق ما ساقوله لك .

وليرسخ في راسك ان نصائح الوالد لها قيمة ما بعدها قيمة »
(٧ ، ص ٣٣٧) .

ثم يحدث شوروباك ابنه حول أن على الانسان الا يتخاصم مع الآخرين والا يكون مرائيا .

ويدل مضمون القصة التربوية الواعظة « الكاتب وابنه الطائش » على أن تربية الشبيبة ، وابقاء الشباب ضمن اطار النظام الاجتماعي ، لم يكونا من الامور السهلة بالنسبة للسومريين . ويدور الحديث في هذه

القصة حول العادات والمثل الاخلاقية وكذلك حول مبادىء تربوية معينة. وهاهو ذا الكاتب يخاطب ابنه الطائش قائلا :

« اصغ ، كن رجلا .

لا تقف في الساحات ولا تتسكع في الحدائق .

عندما تسير في الشارع لا تلتفت يمنة ويسرة .

كن مبجلا لمعلمك واحترمه ...

ان ما اقوله لك الآن قادر على تحويل الاعمى الى حكيم ،

وقادر على فك السحر عن الثعبان ...

لقد انهكت قلبي ، ونايت انا عنك ،

ولم التفت الى خوفك وارتباكك ،

بسبب شكاواك ، اجل بسبب شكاواك

كنت اسخط عليك واغضب .

ولأنك لا تتصرف كما يليق بالانسان ،

كان قلبي كانه مفعم بروح شريرة ،

وقد اوصلتني بارتباكك وتذمرك الدائم الى حافة القبر » (٧ ، ص ٣٣٨) .

وقد تناول ادب وادي الرافدين السومري والبابلي باجناسه المختلفة من شعر أو نثر ادبي او شعري ، مواضيع عديدة كانت تشغل بال الناس في حياتهم العامة والخاصة ، كنظرتهم الى الكون والحياة ، واصل الوجود والاشياء ، والمجتمع الانساني ومشاكله ، وسلوك الفرد والقيم الاجتماعية وحياة الناس الروحية والعاطفية ، مسألة الموت ، عالم مابعد الموت والخلود وقضية الخير والشر ، والعدالة الالهية الى جانب وجود الشر ... والى غير ذلك من الموضوعات النفسية والاجتماعية والتربوية (٨ ، ص ٦٩) .

ومن الجدير بالملاحظة والاهتمام ، هنا ، ان هذا الادب يضم اعمالا تتميز بكثير من الاصالة والابداع والشاعرية والصدق ، حتى من وجهة نظر المعايير الحديثة .

وقدنشرت في العقود الثلاثة الاخيرة مجموعات من الامثال والحكم والوصايا من ادب بلاد مابين النهرين القديم باللغتين السومرية والبابلية، وهذه الامثال والحكم ، مثلها مثل امثال وحكم الشعوب الاخرى ، تعبر عن تجارب وحالات معينة في حياة الفرد والمجتمع ، كما ان كثيرا منها من وقائع او حوادث قيلت فيها هذه الامثال والحكم . وقد تطرقت هذه الامثال والحكم الى جوانب كثيرة متنوعة من النشاط الانساني والحياة الاجتماعية ، وبالتالي عكست كثيرا من مواضيع علم النفس الاجتماعي والسيكولوجيا الاجتماعية ، كالمثل التالي الذي يعبر عن نفسية الانسان الجشع » : اذا احس (الانسان الجشع) بقرب اجله قال لآكل جميع ما عندي ، واذا تعافى قال لاقتصد » » او المثل التالي حول ضرورة التحلي برباطة الجاش وعدم اظهار الغضب : « لا تدع الغضب يظهر على وجهك اثناء الخصام » ، او المثل التالي الذي يبين ضرورة اطاعة الام « أطع كلام امك كانه كلام الهي » ، او المثل التالي الذي يؤكد على ضرورة العدل والمساواة في معاقبة الخاطيء ، رجلا كان ام امراة ، على اساس خطيئته لا على اساس جنسه ، « قضيب الزاني مثل فرج الزانية » او اخيرا المثل التالي حول اهمية المداراة في بعض الاحيان « تملق المرء فيعطيك ماتريد » .

بالاضافة الى ذلك ، ثمة مجموعة هامة من الامثال السومرية — البابلية الرائعة التيتعبرعناهمال الحاكم والتسيب الاجتماعيوعواقبهما: « في المدينة المتهاونة المهملة يصبح الجابي تاجرا » ، و « اذا اباحتالمدينة لكلاب الصيد ان تظل في داخلها تحكمت الثعالب فيها » ، وحول اهمية القائد وضرورة وجوده في المجتمع : « الناس بلا ملك مثل قطيع الغنم بلا راع » (٨ ، ١٥٨ — ١٦٠) . وقد عثر في مكتبة آشور بانيبالبنينوى على نص أدبي يعود الى ما بين ١٠٠٠ — ٧٠٠ عام قبل الميلاد ، يحوي مجموعة من الامثال والاراء والحكم حول موضوع القيادة وصفات الحاكم العادل ، كما يضم مجموعة من النصائح الى الحكام والقادة مثل : « اذا

لم يعبأ الملك باقامة العدل فستعم الفوضى شعبه وتخرب بلاده » ، و « اذا سلب « الحاكم » أموال أهل بابل واختزنها في خزائنه ، واذا فرض الغرامات على أهل « نفر » أو « سبأ » أو « بابل » ، أو اذا أودعهم السجن اعتباطا ، فان المدينة التي فرضت على أهلها الغرامة ستخرب » (المصدر نفسه ، ص ١٦٠ – ١٦١) .

ويحتل أهمية كبيرة في هذا المجال ، أروع أثر أدبي ميثولوجي لشعوب ما بين النهرين القديمة ، الا وهو « ملحمة غلغامش – ملك أوروك » . وقد وصلت الينا هذه الملحمة بكاملها تقريبا ، مكتوبة باللغة البابلية القديمة . وقد تجسدت في هذه الملحمة أفكار نفسية واجتماعية كثيرة ، غير ان موضوعين رئيسين من مواضيع علم النفس الاجتماعي برزا على نحو خاص متميز في هذه الملحمة ، وهما موضوع القائد أو الزعيم ، وموضوع الصداقة . فقد برزت وتجسدت في شخصية غلغامش صورة الزعيم والبطل الحكيم ، « الذي رأى كل شيء » ، وصورة الانسان القوي ، الذي حارب الآلهة ، والباحث عن المجد والخلود ، لا لنفسه فحسب ، بل ولشعبه أيضا :

« سارفع يدي وساقطع شجر الأرز

وساخط لنفسي اسما خالدا » (٩ ، ص ٢٣)

وتظهر في هذه الملحمة الفكرة والهاجس اللذان لا يزالان حتى الآن موضع اهتمام الانسان أينما كان ، الا وهو كيف يحافظ المرء على شبابه ، وكيف يعود الشيخ الى صباه :

« ان هذه الشجرة ذات شهرة كبيرة

وبفضلها يحصل المرء على نفس الحياة

سآخذها الى مدينة أوروك العتيدة

وأوزعها على أبناء بلدي ،

وبفضلها « يعود الشيخ الى صباه » (٣ ، ص ١٦٦) .

وترتسم أمامنا السمات الأساسية لشخصية غلغامش ، القائد البطل ، المحب للخير والمحارب للشر ، من خلال موضوع الصداقة ، ومن خلال حواره مع صديقه أنكيدو :

« يا صديقي ، بعيداً ، هنا ، جبال لبنان

هذه الجبال مغطاة بغـابة الأرز

وفي هذه الغابة يعيش خومبابا الشرير ، الكاسر .

تعال نقتله معـاً

ونطرد الشر من العالم » (٩ ، ص ٢)

ومن أهم الأفكار التي تبرز في هذه الملحمة ، والتي تتجسد في شخصية غلغامش بصورة أساسية السعي النبيل الى الصداقة ، والاخلاص للصديق ، والتعاون والتعاضد والاغاثة ، في النضال ضد قوى الشر ، والشجاعة والجرأة :

« انس المـوت ولا تخف من العدو

فالانسان القوي الذي يتقدم الى الأمام

والانسان الجسور والحذر

يحمي نفسه كما يحمي رفيقه

وحتى اذا ما هلك هو ورفيقه

يبقى اسماهما خالدين » (١٠ ، ص ٣٤)

وقد كان مقتل أنكيدو مأساة كبيرة بالنسبة لغلغامش :

« صديقي الذي احببته الحب كله

صديقي الذي اجتزت وإياه جميع الصعوبات ،

طالته يد القضاء وحل به مصير الانسان

لقد بكيته اياما وليالي

ولم اغـادر قبره

....

إن ذكرى أنكيدو ومصيبتي هذه لا تفارقاني ابدا

وانني اجوب الصحراء

واتشرد فيها في طريق بلا نهاية (المصدر نفسه ، ص ٧٠)

بيد أن موت صديقه لم يحطم ارادة غلغامش ، ولم يخمد سعيه وتطلعه الى الحياة انه يرفض عروض الاستمتاع بالملذات والسعادة الآنية ، ويحلم بشيء آخر ، يحلم بالنور بالشمس ... بالخلود :

فلأر الشمس التي تحمل النور ...

وبالضوء الساطع تختفي العتمة ويغيب الظلام » (٣ ، ١٦٩)

ويؤكد الباحث السوفييتي غ. الكسندروف بهذا الصدد : « ان ملحمة غلغامش التي تعود الى عصر السومريين تعد من أروع مظاهر تطور الافكار الاجتماعية الاصيلة لدى شعوب الشرق » (المصدر نفسه ص ١٧١) .

مما لا شك فيه ، ان المؤلفات الروائية ـ الميثولوجية ليست بفلسفة ، ناهيك عن انها ليست من علوم النفس والاجتماع . لكن هذه الآثار الادبية والأسطورية القديمة التي تركتها لنا الشعوب التي قطنت بلاد ما بين النهرين وسورية ووادي النيل تعكس طموح الانسان البدائي الى فهم العالم وادراك نفسه ، كما تعبر عن أفكاره ومكنونات قلبه وعواطفه وآماله . وفي حديثه عن هذا الموضوع ، راى ك. ماركس في الميثولوجيا والاساطير تحويلا ، وتعديلا يقوم به الخيال البشري للطبيعة وللصيغ والاشكال الاجتماعية (١١ ، م ١٢ ، ص ٧٢٧) . واكد ف . انغلز أن جميع الشعوب القديمة المتحضرة تستوعب في مراحل تطورها الباكرة ،

قوى الطبيعة الغريبة عنها ، المكنونة والخافية وغير المفهومة بالنسبة لها ، عن طريق التجسيد والتشخيص وخلق الآلهة (١٣٠ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩).

بيد أن مصادر الفلسفة وبذور الفكر النفسي — الاجتماعي كانت متوفرة لدى شعوب الشرق القديم ، لأن التصورات الميثولوجية والمعرفة ، والوعي الفطري البدائي والأخلاق السائدة يمكن أن تشكل مصدراً هاماً ومباشراً للفلسفة (١٣ ، ص ٢٠) . وبالاضافة الى ذلك ، تدل النصوص المسمارية المكتوبة على الاحجار واللوحات الفخارية في بلاد ما بين النهرين وسورية ، وكذلك الكتابات الهيروغليفية على ورق البردى في وادي النيل ، على تطور الرياضيات وعلوم الفلك والطب والحقوق والعلوم الاخرى . وتعد هذه اللوحات بحق من أقدم النصوص العلمية والفكرية في العالم .

ومن دواعي الأسف ، أن تاريخ الوطن العربي القديم لم يدرس بعد دراسة كاملة ، بدرجة كافية تسمح لنا بالحديث عن وجود مؤلفات فلسفية محددة لدى شعوبه . ويقوم المؤرخون وعلماء الآثار ، من مختلف البلدان بدراسات علمية اركيولوجية وباعمال التنقيب في اراضي بلدان الشرق العربي . وقد عثر علماء الآثار الايطاليون في سورية عام ١٩٧٨ على مكتبة ثمينة من اللوحات الفخارية لملك مدينة ايبلا القديمة (تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد) . ولا شك في أن تفسير ودراسة هذه اللوحات الفخارية واللقيات التاريخية الاخرى،التي لا تقدر بثمن ، سيفتحان صفحةجديدة في تاريخ الحضارات التي قامت في الوطن العربي في العصور القديمة .

وموجز القول ، أن الحضارات العريقة التي قامت في اقطار الوطن العربي ، في العصور القديمة — وبخاصة في وادي النيل وبلاد ما بين النهرين وسورية — والتي تميزت بتطور القوى المنتجة ، ونشوء الزراعة الى جانب تربية المواشي ، وولادة أسس العلوم الدقيقة ، وبذور المعرفة العلمية — الطبيعية لنشاط الانسان النفسي ، ونشوء الطب والممارسة الطبية العلاجية ، وظهور المؤلفات الأدبية والميثولوجية والملاحم ، التي تضم في طياتها عناصر الفلسفة والفكر النفسي والاجتماعي والتربوي ، وتطور فن العمارة والبناء ، والفن ، بالاضافة الى التفاعل بين هذه

الثقافات والثقافات والحضارات المجاورة ، وقيام الصلات والروابط المختلفة بين مختلف مراكز العالم القديم ... ان هذا كله قد هيأ التربية المناسبة لنشوء الفلسفة وتطورها في بلاد الاغريق في منتصف الالف الأول قبل الميلاد ، وأدى الى تطور الفكر النفسي الاجتماعي .

مراجع البحث :

(١) باريغين ب . د « أسس النظرية النفسية ـ الاجتماعية . موسكو ، ١٩٧١ » (باللغة الروسية) .

(٢) الكسندروف غ. ف. « تاريخ النظريات الاجتماعية . الشرق القديم » موسكو ، ١٩٥٩ (باللغة الروسية) .

(٣) Bogardus, E. the Development of Social Thought. N.Y,1955

(٤) موسى ، سلامة . تراث مصر الفكري والفلسفي . مجلة « المقتطف » (القاهرة) ، أيلول ، ١٩٣٦ ، ص ٩٢ ـ ١٠١ .

(٥) لوفيفر ، جوستاف . روايات وقصص مصرية من العهد الفرعوني . ترجمة : علي حافظ القاهرة .

(٦) جبرة ، سامي . مظاهر الفكر عند قدماء المصريين . مجلة « المقتطف » (القاهرة) العدد ١١٠ ـ ١١١ ، أيلول ، ١٩٣٦ .

(٧) بيليتسكي . عالم السومريين المنسي . موسكو ، ١٩٨٠ (باللغة الروسية) .

(٨) باقر ، طه . مقدمة في أدب العراق القديم . جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .

(٩) دياكونوف . اي . م. ملحمة غلغامش « الذي رأى كل شيء » . موسكو ـ لينينغراد ، ١٩٦١ « باللغة الروسية » .

(١٠) دياكونوف . اي. م. سومر . البناء الاجتماعي ونظام الحكم في ما بين النهرين في العصور القديمة . موسكو ، ١٩٦٦ .

(١١) ماركس ، انغلز . من المؤلفات الباكرة . موسكو ، ١٩٥٦ . (باللغة الروسية) .

(١٢) انغلز . أنتي ـ دوهرنغ . (باللغة الروسية) .

(١٣) تشانيشيف آ. ن. محاضرات في الفلسفة القديمة . موسكو ، ١٩٨١ (باللغة الروسية) .

★ ★ ★

«أوديب» في التحليل النفسي والبنيوي

د. عبد الكريم حسن

لعله ما من شيء يبعث على الرعب كصورة الزمن وهو يمر من امامنا عابرا وجوه العجائز او تاركا خطواته على شواهد القبور . وياتي الرعب في الصورة من ان الزمن موت بطيء . ولكن من المخلوقات ما يعجز الموت عن عبوره أو اللحاق به ، فاذا به يتالق بتقادمه حتى يتحول الى جواهر فريدة لا يزيدها الزمن إلا بريقا ولالاء .

ـ د. عبد الكريم حسن : باحث وناقد من سورية ، استاذ الأدب العربي الحديث في كلية الاداب بجامعة تشرين ، له عدد من الاعمال ، منها « البنيوية الموضوعية » ، « المنهج الموضوعي ـ نظرية وتطبيقا » .

وربما كان الفن ـ الى جانب الحب ـ من انجح المحاولات التي استطاع الانسان بها أن يحتال على الزمن ، ويقهر الموت . فالعمل الفني العظيم لا يعيا ولا يشيخ . إنه يزداد شبابا كلما ازداد تقادما ، فالزمن يتحول الى فعل ايجابي في حضرة الفن . ولما كان الفن يقهر الزمن ، فانه يقهر الموت .

هكذا تتحول الحيلة الى واقع ، والوهم الى حقيقة ، فاذا الفن حياة يعوض بها الانسان عن عمره القصير ، واذا البحث عن الفن الاصيل بحث عن الحياة الابدية . ولعلنا نصيب عين الحقيقة لو قلنا إنه ما من عمل فني أدعى الى الخلود كذلك الذي قدّمه الكاتب اليوناني العظيم «سوفوكليس»، وعنوانه « أوديب الملك » .

وربما كان من نافلة القول أن « أوديب الملك » لم تخلق من فراغ . فقد استند صاحبها الى الأسطورة التي بنيت عليها قبلها بمئات السنين. فهل استندت الأسطورة ـ بدورها ـ الى واقع اجتماعي أو حقيقة طقوسية عرفتها « طيبة » في يوم من الايام ؟ لندع هذا السؤال جانبا ، ولنلتفت الى ان مرور اربعة وعشرين قرنا على « أوديب الملك » لم يحل دون صقل هذه الجوهرة من جديد . فاذا بـ « فرويد » يأتي ، ويسبغ عليها اهمية خاصة تكمن في اكتشاف العقدة النفسية التي أطلق عليها اسم « عقدة أوديب » ، واعطاها بعدها الكوني «universelle» .

وبعد نصف قرن من الاكتشافات الفرويدية يأتي البحاثة البنيوي الكبير « كلود ليفي ستروس » « C. L. Strauss » ليصقل هذه الجوهرة « الأوديبية » في ضوء علم الاتنولوجيا وعلم الميتولوجيا البنيويين .

هكذا نجد انفسنا ـ ونحن نتصدى لأسطورة « أوديب » ـ في مواجهة عدة مستويات . فمن الأسطورة الى الفن ، ومن الوهم الى التاريخ ، ومن التحليل النفسي الى التحليل البنيوي ، وعبر كل ذلك سوف نحاول ـ بدورنا ـ أن نجلو هذه الجوهرة الفريدة ، وان نقدمها الى القارىء العربي في ثوب جديد .

وسوف تكون الخطوة الأولى التي نستهل بها بحثنا هي تقديم الترجمة الكاملة التي أعددناها لاسطورة « اوديب » حسبما جاءت في روايتها اليونانية ؛ رواية أهل « طيبة » . كما نشير الى ان ترجمة النص الكامل ستكون مصحوبة بترجمة الحواشي المرفقة لأنها غاية في الاهمية(١) .

(١) ونشير هنا الى انه يبدو من المستحيل حتى الآن تحديد أي تاريخ للاسطورة . وهذه الصعوبة تتفاقم باقترانها بصعوبتين اخريين : الاولى وهي انه لا يمكن عزل اسطورة « اوديب » عن النصوص الادبية الاولى التي تحدثت عنها . والثانية وهي ان هذه الاسطورة لم تصلنا جملة ، بل شذرات منثورة في الادب والنحت والتصوير . وليس ما قمنا بترجمته الا تجميعا لهذه الشذرات على يد الباحث الانكليزي « روبر غراف» «R. Graves» في كتابه الذي بعنوان « الاساطير الاغريقية » « Les Mythes Grecs» ولقد قام الاستاذ «منير الحافظ» بترجمته الى الفرنسية بلغة مشرقة ومحكمة تدعو الى الإعجاب . وقد اعتمدنا النص الفرنسي في هذه الترجمة الى العربية .

ولقد ظهرت اول اشارة الى اسطورة « اوديب » في « الإلياذة » التي ظهرت ــ على ما يبدو ــ في اواسط القرن الثامن قبل الميلاد . ثم توالت الاشارات إليها على يدي « اوريبيدس » «Euripide» و « سوفوكليس » «Sophocle» في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم على ايدي كتاب ونحاتين من القرنين الاول والثاني قبل الميلاد .

وربما كان من المفيد ان نذكر انه بقدر ما كانت اسطورة « اوديب » مصدرا غرف منه « سوفوكليس » في مسرحه التراجيدي ، فقد كان « سوفوكليس » مصدرا من المصادر الاساسية التي امكن بواسطتها اعادة بناء الاسطورة .

ولعل في ذلك كله مايسوغ عزوف « كلود ليفي ستروس » «C. L. Strauss» عن البحث عن الرواية الاصلية لاسطورة « اوديب » . فما من رواية اكثر اصالة أو صحة من غيرها . وفي ضوء ذلك يعلن « ليفي ستروس » ان كل الكتابات التي تناولت اسطورة « اوديب » بدءا من كتابات « سوفوكليس » وحتى « فرويد » و « ليفي ستروس » نفسه تصبح روايات تضاف الى الروايات التي وصلتنا عن

←

ـ اسطورة ((أوديب)) ـ

ـ ((أوروپـا وقدموس)) ـ

a) ـــ خـرج « اغينور » «agenor» ـ ابـن ليبيا مـن پوزيدون «Poséidon» والأخ التوام لـ « بيلوس » «Bélos» ـ من مصر ليستقر في ارض كنعان حيث تزوج « تيليفاسا » «Téléphassa» المسماة ايضا « اغريوپي » «Agriopé» والتي انجبت له « قدموس » «Cadmos» و « فونيكس » «Phoenix» و« سيليكس » «Cilix» و« تـازوس » «Thasos» و« فينيه » «Phinée» ، وابنة هي « أوروبا »(١) .

→

هذه الاسطورة . وبهذا الموقف الذي تسقط معه الصعوبة الثانية المشار اليها في مستهل هذه الحاشية تسقط الصعوبة الاولى بدورها من تلقاء نفسها . انظر :

— «Les Mythes Grecs», «R. Graves», éd, Fayard, traduction française par «M. Hafey», Paris, 1967. p.p 296 ... 300 et p.p 596 - 597.

— « Le Mythe d'oedipe». «Colette Astier», ed, Armand colin, Paris, 1974, p.p 8 - 14:

— «Anthropologie structurale», «C. L. Strausse», éd, plon, 2em tome, 2em édition, Paris, 1958 et 1974. P. 242.

(١) هناك متغيرات عديدة ومحيرة الى حد ما للنسب المذكور آنفا . ف « تازوس » يوصف احيانا بانه ابن « پوزيدون » او سيليكس (ابولودور III. 1. 1 او « تيتوس » «Tityos» (پندار : 46, IV pythiques) . و « اغينور » هو البطل الفينيقي « كناس » «Chnas» الذي يظهر في سفر التكوين تحت اسم « كنعان » . ويبدو أن الكثير من العادات الكنعانية تاتي من افريقيا الشرقية ، وانه ربما اتى الكنعانيون في الاصل من اوغندا الى مصر السفلى . وربما كان تشتت أبناء «اغينور» يروي قصة هرب القبائل الكنعانية باتجاه الغرب في اوائل القرن الثاني قبل الميلاد تحت وطأة الغزاة الآريين والساميين .

b) — ولما كان « زوس » قد أغرم بـ « أوروبا » فقد أرسل «هرمس» «Hermes» ليقود قطعان « اغينور » حتى شطآن صور التي اعتادت « أوروبا » وصويحباتها التنزه فيها . والتحق « زوس » نفسه بالقطيع على شكل ثور أبيض ذي اغباب كبيرة وقرنين صغيرين أشبه مايكونان ببرعمين يفصل بينهما شريط اسود . فصعقت « اوروبا » بجماله ؛ ووجدته كالحمل الوديع ، فتغلبت على خوفها وشرعت تلاعبه واضعة الازهار في فمه ؛ معلقة الاكاليل على قرنيه ؛ ثم متسلقة كتفيه ؛ فنزل بها الهوينى الى البحر ، ودخل الماء فجأة ثم شرع ؛ في السباحة في حين كانت هي — وراسها تستدير نحو اليابسة — ماخوذة بالرعب وهي ترى الشاطىء الذي يتناءى . وكانت احدى يديها متشبثة بقرنه الأيمن في حين كانت الأخرى تمسك بسلة من الزهر(٢) .

c) — وارسى « زوس » غير بعيد من « غورتين » «Gortyne» في جزيرة « كريت » حيث تحول الى نسر واغتصب « أوروبا » في غابة من الصفصاف على مقربة من أحد الينابيع او تحت شجرة دلب حسبما يروي آخرون . فوضعت له ثلاثة أبناء هم « مينوس » «Minos»

(٢) ولقد اثرت سيرة ابناء « إيناكوس » «Inachos» وسفرهم للبحث عن « إيـو » «Io» البقرة القمر (انظر 5b.d) على سيرة ابناء « اغينور » وسفرهم للبحث عن « اوروبا » . هـ « فونيكس » هو صيغة التذكير لـ « فونيسا » (التي تعني « الحمراء » او « الدموية ») ، وهو الاسم الذي يطلق عادة على القمر كإلهة للموت في الحياة . وأما « أوروبا » فتعني « الوجه العريض » الذي يرادف القمر المكتمل ، وهو اسم الإلهتين القمر « ديميتير » «Déméter» في «Lébadée» و « عشتار » في صيدا . ولكنه اذا لم يكن الاسم صادراً من «Eur-ope» « الوجه العريض » وانما من «Eu-rope»انظر كلمة «Euboea») فانه يمكن ان يعني ايضا « المناسب للصفصاف » ؛ اي « المروي جيدا » . وبحكم الصفصاف في الشهر الخامس من السنة المقدسة (انظر 3.52) ، وهو مرتبط بالسحر (انظر 5.28 وطقوس الخصوبة في كافة ارجاء اوروبا وخاصة في اوائل أيار (انظر 5.28) الذي يوافق هذا الشهر بالتحديد . وأما « ليبيا » و « تيليفاسا » و « افريوبي » و « الفيزيبي » «Alphesibée» فهي جميعها اسماء للإلهة القمر.

و « رادامانت » «Rhadamante» و « ساربيدون » « Sarpedon » (٣).

d) — وارسل « اغينور » ابناءه للبحث عن اختهم محذراً إياهم من العودة بدونها . فركبوا البحر على الفور ، ولكنهم لما لم يكن لديهم أية فكرة عن المكان الذي توجه اليه الثور فقد سلكوا كل منهم وجهة مختلفة. هكذا توجه « فونيكس » غرباً حتى وصل الى ابعد من ليبيا في اتجاه ما أصبح فيما بعد قرطاجة . وهناك أعطى البونيقيين اسمه ، ولكنه على إثر موت «أغينور» عاد الى أرض كنعان التي سُميت على شرفه « فينيسي» «Phénicia» منذ ذلك الحين . وهناك أصبح أباً لادونيس من « الفيزيبي »(٤) . وأما « سيليكس » فقد ذهب الى بلاد «Hypachéens»

(٣) ويروي اختطاف « زوس » لاوروبا احتلال الهيلينيين لجزيرة « كريت » ؛ هذ الاحتلال الذي يعود الى أزمنة مغرقة في القدم . وقد أوحت بهذا الاختطاف بعض الرسوم ما قبل الهيلينية للإلهة القمر وهي تمتطي ضحيتها الثور ـ الشمس بانتصار . وقد بقي هذا المشهد على ثمانية نصب من الزجاج الازرق تم اكتشافها في مدينة «Midéa» الميسينية . ويبدو ان الامر هنا يتعلق بطقس من طقوس الخصوبة يطاف فيه بإكليل « اوروبا » في أيار (Athénée, P. 678, A, b)
ويذكر إغواء « زوس » لـ « أوروبا » متنكرا في شكل نسر بإغوائه لـ « هيرا » متنكرا في شكل طائر الوقواق (انظر 12.a) لان هيرا « تبعا لـ «Hesychios») كانت تحمل لقب « اوروبيا » . وكان الاسم الكريتي والكورنثي لاوروبا هو «Hellotis» كانت يذكر بـ «Hellé» أي « الصفصاف » . و «Hélicé» (انظر 43.A , 70.8 و « هيلين » هما شخصية إلهية واحدة . ويذهب « كاليماك » «Callimaque» الى أن الدلب كان مكرسا بدوره لـ « هيلين » . وهو مقدس أيضا بسبب أوراقه ذات الذوائب الخمس التي تمثل يد الإلهة (انظر 54.A) ، وبسبب لحائه الذي يتساقط على شكل صفائح . ولكن « أبولون » استعاره (انظر 160.10 على غرار ما فعل الإله « إيسمون »«Esmun» بشارة اليد المفتوحة للإلهة « تانيت » «Tanit» (De meith)(انظر 21.3) .

(٤) ومن الممكن أن تكون سيرة « أوروبا » أيضا احياء لذكرى هجوم قام به الهيلينيون القادمون من « كريت » على فينيقيا .

التي سميت باسمه «Cilicie» (٥) . وأما « فينيه » فقد ذهب الى «Thynie» وهي شبه جزيرة تفصل بحر « مرمرة » عن البحر الاسود حيث عذبته وحوش الـ«Harpyes» بقسوة فيما بعد . وأما « تازوس » ورفاقه فقد ذهبوا أول الامر الى ارض « الاولمب » حيث قدموا الى « هيراقليس » الصوري تمثالا من البرونز يبلغ ارتفاعه عشرة اذرع ويمسك بهراوة وقوس. ثم استأنفوا السير واستعمروا جزيرة «Tasos» واستثمروا مناجمها الغنية بالذهب . وقد حدث هذا كله قبل خمسة

---

(٥) و « هيراقليس » الصوري الذي كان يقدسه « تيزيه «Thésée» في بلاد الاولمب هو الإله « ميلكارث » «Meikarth» . وقد استولت على « طيبة » واصبحت سيدة البلاد قبيلة صغيرة تتكلم لغة سامية يبدو انها جاءت من السهول السورية في « قدميا » «Cadmé» الواقعة في «Carie» . و « قدموس » كلمة سامية تعني « القادم من الشرق » . وانتقلت هذه القبيلة الى «Béstie» في حوالي او اخر الالف الثانية قبل الميلاد . وتشير اسطورة الرجال المبذورين ، وخضوع « قدموس » لـ « آرس » الى ان الغزاة الآتين من « قدميا » قد عززوا سيطرتهم على «Béotie» بتدخلهم الناجح في حرب اهلية قامت بين القبائل « البيلاجية » التي كانت تدعي أنها من سكان الارض الاصليين . كما تشير الى ان الغزاة قبلوا بالقانون المحلي القائل بان على الملك المقدس ان يحكم خلال ثماني سنوات . وقد قتل « قدموس » الثعبان بنفس الطريقة التي قتل فيها « أيولون » الثعبان في « دلف » (انظر ١٢ ، ٢١) . وأما أسماء الرجال المبذورين «échion» (افعى) و «Daeos» (من تراب الارض) و «Chthonion» (من الارض) و «Hypérénor» (الرجل الذي ينبثق) و «Péloros» (حنش) فهي أسماء تميز أبطال النبوءات . ولكن اسم «Peloros» يشير الى ان كافة « البيلاجيين » لا « الطيبيين » وحسب يدعون أنهم ولدوا على هذا النحو ، فلقد كان لهم عيد مشترك هو «Pelories» (انظر 1.2) . واما الحصاد الذي قام به « جازون » «Jason» لأسنان التنين فقد تم بقدره على الارجح في « إيولوكوس » «Ialocos» او « كورنته » وليس في «Colchide» (انظر 152.3) .

اجيال من ولادة « هيراقليس » ابن «Amphitryon» في اليونان(٦).

e) — وأبحر « قدموس » مع « تيليفاسا » الى « رودس » حيث قدم قدراً من البرونز الى « هيرا » في «Lindos» ، واقام معبداً لـ « بوزيدن » وترك بعد رحيله جماعة من الكهان للقيام على خدمته . وبعد ذلك ارسوا في «Therace» وشيدوا معبداً مماثلاً . ووصلوا أخيراً الى «Thrace» بلد الإيدونيين «Edoniens» الذين استقبلوهم بحسن ضيافة . وهناك توفيت « تيليفاسا » فجأة . وبعد جنازتها مضى « قدموس » ورفاقه على اقدامهم الى معبد « ديلف » ، وعندما استشار العرافة عن مكان وجود « اوروبا » نصحته بأن يكف عن البحث عنها ، وان يتبع بقرة ويؤسس مدينة في كل مكان تستلم نفسها فيه للارتماء .

f) — ولما كان « قدموس » قد سلك الطريق المؤدية من «ديلف» الى «Phocide» فقد التقى بالرعاة الذين كانوا في خدمة الملك « بيلاغون » «Pélagon» وباعوه بقرة موسومة بقمر ابيض مكتمل على كل من كشحيها . فقاد الدابة باتجاه الشرق ، واجتاز «Béotie» دون ان يسمح لها بالراحة حتى ارتمت أخيراً منهكة على الموقع الحالي لمدينة « طيبة » . واقام « قدموس » هناك تمثالا لأثينا التي اعطاها اسمها الفينيقي « اونغا » «Onga» .

g) — واعلن « قدموس » لرفاقه أنه ينبغي تقديم البقرة لأثينا دون إبطاء . وأرسلهم للبحث عن الماء الطهور من نبع « آرس » «Arès» الذي يسمى اليوم نبع «Castalie» . ولكنه لم يكن يعرف أن النبع محروس من تنين . فقتل التنين معظم رجال « قدموس » ، ولكن هذا انتقم منه بسحق رأسه تحت صخرة . وما إن قدم الأضحية لأثينا حتى

(٦) ويروى أن طروادة وانطاكية تأسستا في مكانين اختارتهما بقرات مقدسة (انظر 158.h ، 56.d) ، ولكن الاحتمال في أن تكون هذه العادة قد مورست في يوم من الايام احتمال ضعيف . ومن الارجح أنه كان يتم اطلاق البقرة في مكان محدد مختار ، وانه كان يتم بناء معبد الإلهة القمر في المكان الذي تتمدد فيه البقرة على الارض . فالحس الستراتيجي والتجاري عند البقرة ليس ناميا جدا .

تجلت له وشكرته على ما قام به بأن أمرته ببذر اسنان التنين في الأرض . وفور انصياعه لأمرها طلع من الارض رجال مبذورون «Spartoi» يقمقعون بأسلحتهم . ورمى « قدموس » بحجر في وسطهم أعقبه شجار تأتى عن اتهام بعضهم لبعض ، ثم ما لبثوا أن اشتبكوا بالأيدي بكل اهتياج حتى أنه لم ينج منهم الا خمسة في النهاية ، وهم «échion» و «oudaeos» و «Chthonios» و «Hypérénor» و «Péloros» الذين اجمعوا على تقديم خدماتهم لـ « قدموس » . ولكن « آرس » كان يطالب بالانتقام لمقتل التنين فحكمت محكمة من الآلهة على « قدموس » بأن يصبح عبداً لمدة سنة كبيرة .

ـ « أوديب » ـ

a — تقول الأسطورة « إن « لايوس » «Laïos» بن « لابداكوس » «Labdacos» تزوج من « جوكاست » «Jocaste» ، وتولى العرش على « أثينا » . وأقض مضجعه أنه لم يرزق بمولود ، فاستشار عرّاف « دلف » «Delphes» الذي أخبره أن ما يبدو نقمة في الظاهر ليس إلا نعمة من السماء ؛ لأن أيما طفل تضعه « جوكاست » سيكون السبب في موت أبيه . وبلغ بها العذاب، أنها استدرجته ـ بتأثير الخمر ـ الى ذراعيها مرة أخرى عند هبوط الليل . وحينما وضعت غلاماً بعد تسعة أشهر انتزعته « لايوس » من ذراعي مرضعته ، وثقب قدميه بمسمار ، ثم قام بربطهما وألقاه على جبل « سيتيرون » «Cithéron» .

b — على أن آلهة القدر «Les parques» كنّ قد اتخذن قرارهن بأن يبلغ هذا الغلام من العمر عتياً . هكذا يعثر عليه أحد رعاة « كورنته » «Corinthe» ، ويطلق عليه اسم « اوديب » لتشويه قدميه مما أحدثه فيهما المسمار من جروح ، ثم يحمله الى « كورنته » التي كان يملك عليها « بوليبوس » «Polybos» في ذلك الحين(١) .

---

(١) استخلصت قصة « لايوس » و « جوكاست » و « أوديب » من سلسلة من التصورات المقدسة التي خضعت طبيعة دلالتها لتغيير إرادي . فقد ضاعت الاسطورة التي كان ←

c) — وفي رواية أخرى أن « لايوس » لم يلق بـ « أوديب » على جبل ، وانما احكم عليه في صندوق وضمه على ظهر زورق والقى به في عرض البحر . فحمل البحر الصندوق ، وقذفه على شاطىء «سيسيون» «Sicyone» . وكانت « پيريبويا » «Periboea» زوجة الملك « پوليبوس » موجودة في تلك اللحظة على الشاطىء الرملي ترقب غاسلات ثيابها . فحملت « أوديب » بين ذراعيها ، وتوارت خلف احد الادغال متظاهرة بأنها تعاني من آلام الوضع . ولما لم يكن في وسع الغاسلات المنكبات على شغلهن ان يلاحظن ما كانت تفعله ، فقد اوهمتهن بانه إنما وُلِد التوّ . ولكن « پيريبويا » روت الحقيقة على « پوليبوس » الذي ابدى غبطته بتربية « أوديب » كما لو كان ابنه الشخصي ، لانه كان هو بلا اولاد .

وفي احد الأيام يسخر احد « الكورنثيين » من « أوديب » قائلا إنه

→

يمكن ان تفسر اسم « لابداكوس » (الذي يعني النجدة على ضوء المشاعل) ، ولكنها يمكن ان تكون متعلقة بمجيء طفل إلهي محفوف بالمشاعل يحمله الرعاة الى احتفال راس السنة على انه ابن للإلهة الباتجة « بريمو » «Brimo» . ولقد كان هذا الـ «eleusis»او المجيء الحدث الاهم من بين الاسرار الإيلوزيسية ؛ بل لعله الحدث الاهم ايضا من بين أسرار البرزخ اليوناني . وهذا ما يفسر أسطورة مجيء « أوديب » الى بلاط « كورنته » . فقد قام الرعاة بتربية أو تكريم العديد من الامراء الشباب الاسطوريين او انصاف الاسطوريين من امثال « هيپوتوس » «Hippothoos» و « پيلياس » «Pélias» و « امفيون » «Amphion» و « إيجست » «Egisthe» و « موسى » و « روميلوس سيروس » «R. Cyrus» الذين إما أن يكونوا قد أُلقوا على جبل ، أو في سفينة الى امواج البحر ، أو أُخضعوا للأمرين معا . فاما « موسى » فقد عثرت عليه ابنة فرعون وهي ذاهبة مع جواريها في طلب الماء . ومن الممكن أن يكون الاصل في « أوديپوس » أو « القدم المتورمة » هو «oeudipais» « ابن البحر المتنفج » . وهذا هو معنى الاسم الذي أُعطي عند شعوب الغال للبطل « ديلان » «Dylan» المكافىء لـ « أوديب » . ومن الممكن أن يعود ثقب قدمي « أوديب » بمسمار الى نهاية قصته لا الى بدايتها كما هو الامر في أسطورة « تالوس » «Talos» .

لا شبه له بأبويه المزعومين . فراح « أوديب » يستشير الآلهة في معبد « ديلف » «d'orache de Delphes» عن مستقبله . فصرخت عرّافة « ديلف » «La pithie» في رعب : « إمضِ أيها الشقي ؛ ابتعد عن هذا المذبح » ؛ « ستكون قاتل أبيك وزوج أمك » .

d) — ولما كان « أوديب » يحب « بوليبوس » و « بيريبويا » حباً حانياً ويرتعد كلما تصوّر أنه يمكن أن يكون مصدر شرّ لهما ، فقد قرر على الفور ألا يعود أبداً الى « كورنته » . واتفق انه التقى — في ذلك الدرب الضيق الذي يفضي من «ديلف» الى « دوليس » «Dolis» — بـ«لايوس» الذي توجه اليه بخشونة من أجل أن يتنحى ويترك الدرب لأسياده — وغني عن البيان أن « لايوس » كان على ظهر عربته في حين كان « أوديب » راجلاً — فردّ « أوديب » بأنه لا يعترف بسيادة أحد عليه إلا أبويه والآلهة . فصرخ « لايوس » : لا تلمْ إذاً إلا نفسك . وأصر سائقه « بوليفونتيس » «Polyphontès» بالعبور ، فدهست إحدى العجلات قدم « أوديب » الذي استشاط غيظاً وصرع « بوليفونتيس » بحربته ، ثم طرح « لايوس » أرضاً فالتفت عليه الأعنة وجرّ على الدرب حتى مات ممزق الأوصال . وقد تولى ملك « بلاتيه » «Platées» أمر دفن الجثتين(٨) .

e) — وكان «لايوس» قد جاء ليستشير الآلهة ويسألها كيف يمكنه ان يخلص « طيبة » من « أم الهول » «La sphinx»(٩) . وكانت هـذه

(٨) يقص مقتل « لايوس » الموت الطقوسي للملك الشمسي على يد خلفه ، حيث كان يُرمى به الى أسفل العربة لكي تجرّه الجياد . وأما اختطاف « كريزيبوس » «Chrysippos» فإنه يعود — على الارجح — الى التضحية بأحد بُدلاء الملك في نهاية السنة الاولى من ملكه .

(٩) في الأسطورة المصرية يأخذ « أبو الهول » صفة ذكرية . فهو في هيئة أسد بجلس القرفصاء ، ولكنه ذو رأس بشرية . وأما في الاسطورة اليونانية فانه يحمل صفة « الانثوية » كما هو بين . وهذا ما يخلق إشكالية في ترجمة اسم الـ «Sphinx»

←

الوحشة ابنة لـ « تيفون » «Typhon» و « إيشيـدنا » «Echidna» فيما يقول بعضهم إنها كانت ابنة للكلب « أورتروس » «Orthros» والكائنة الخرافية « لاشيمير » «La chimère» (٩) . وقد جاءت « أم الهول » الى « طيبة » من أعماق « أثيوبيا » وهي تمخر عباب الفضاء . وكان يمكن التعرف أليها بسهولة من رأسها النسوي وجسـدها الأسدي(١٠)

فاذا كانت تسميته « أبا الهول » صحيحة حين يتعلق الامر بالاسطورة المصرية ، انها غير صحيحة حين يتعلق الامر بالاسطورة اليونانية . والقضية هنا في غاية الحساسية والخطورة لانها تعيد الى مجتمعات الامومة والابوة ومراحل الانتقال من الاولى الى الثانية .

انظر :

«dictionnaire des symboles», 4em volume, éd, Seghers, Paris. 1474.

(٩) رأسها وصدرها رأس أسد وصدره ، وبطنها بطن عنزة ، وذيلها ذيل تنين ، وتبصق اللهب .

(١٠) ومن الجلي ان الرواية التي تدور حول « أم الهول » قد استخلصت من صورة تمثل الإلهة القمر المجنحة ، إلهة « طيبة » التي يتكون جسمها من شطري السنة « الطيبية » . وفيها يمثل الاسد مرحلة النمو ، والثعبان مرحلة النقصان . والى هذه الالهة يرفع الملك الجديد صلواته قبل ان يتزوج من كاهنتها الملكة . ويبدو ايضا ان الاحجية التي تلقنتها « أم الهول » من ربات الشعر قد اختلقت لتفسير مشهد يمثل طفلا ومحاربا وعجوزا يعبدون الالهة المثلثة ، وكل منهم يكرم شخصا مختلفا من هذا الثالوث . ولكن « أم الهول » المهزومة أمام « أوديب » قتلت نفسها على غرار « جوكاستا » . فهل كان « أوديب » غازيا ـ لـ « طيبة » في القـرن الثالث عشر قبل الميلاد ـ ألغى العبادة المينوية القديمة للالهة ، واجرى اصلاحا على التقويم المعمول به . ؟ . ففي النظام القديم كان الملك الجديد ـ وعلى الرغم من كونه غريبا ـ يعتبر من الناحية النظرية ابنا للملك القديم يقوم بقتله ويتزوج من أرملته . ولكن الغزاة الذين ينتمون الى النظام الابوي أولوا هذه العادة بشكل خاطىء ، واعتبروا الامر قتلا حقيقيا للاب وزواجا حقيقيا من الام . وقد انطلقت النظرية الفرويدية التي تقول أن عقدة « أوديب » غريزة مشتركة بين جميع البشر من هذه الرواية غير الصحيحة . فعنـدما يـروي « بلوتارك » «Plutarque» مثلا في كتابه « ايزيس وأوزيريس » أن فرس البحر قتل أباه واغتصب أمه ، فإنه لايدعي أبدا أن البشر مصابون بعقدة فرس البحر .

وذيلها الثعباني واجنحتها التي من نسر . وكانت الالهة « هيرا » «Hera» قد أرسلتها منذ حين لمعاقبة « طيبة »التي قام ملكها « لايوس » باختطاف « كريزيبوس » «Crysippos»الصغير في « بيزا » «Pisa» ، واقامتها على جبل « فيسيون » «Phicion» – غير البعيد من المدينة – تلقي على المسافرين احجية لقنتها إياها ربات الشعر الثلاث ! هلا سميت لي الكائن الوحيد الذي يمشي تارة على قائمتين واخرى على ثلاث ، وثالثة على أربع ، ويزداد ضعفا كلما ازدادت قوائمه عددا ؟ » .

فأما الذين يعجزون عن فك الاحجية فقد كانت « ام الهول » تخنقهم وتفترسهم في الحال.وكان من بين هؤلاء المنكودين «هايمون» «Haemon» ابن أخ « جوكاست » [«الذي يعني اسمه « المضرج بالدم »] والذيجعلت منه « أم الهول » « هايمون » في الحقيقة .

وقد وجد « أوديب » – الذي كان في طريقه الى طيبة – وهو ما زال حديث العهد بقتل « لايوس » – الجواب على الاحجية بقوله : « انه الانسان . فهويمشي على اربع قوائم طفلا ، وعلى قدمين رجلا ، ويستند الى عكاز شيخا . فرمت « أم الهول » المهزومة بنفسها من أعلى جبل « فيسيون » لتتحطم عند أسفل الوادي .

وحيـّا أهل « طيبة » « اوديب » ، ونصـّبوه ملكا تزوج من « جوكاست » دون أن يعلم أنها أمه .

f) — واجتاح الوباء المدينة في ذلك الحين . حتى استشيرت الآلهة في « دلف » ثانية قالت : « اطردوا قاتل « لأيوس » » . فراح « أوديب » – الذي لم يكن يعرف الشخص الذي التقاه في الدرب الضيق – يلعن القاتل ويتوعده بالنفي .

g) — وفي تلك الاثناء طلب الضرير « تيريزياس » «Tirésias» أشهر عرّافي اليونان في وقته أن يقابل « أوديب » . ويذهب بعضهم الى ان « أثينا » «Athéna» التي ابتلته بالعمى – لانه رآها عارية « دون قصد وهي تستحم – قد تأثرت بنواح أمه ، فأمرت الثعبان « ايريكتونيوس » «érichthonios» بعد ان أطلقته من عقاله ان : « طهِّر

بلسانك اذني « تيريزياس » حتى يتمكن من سماع لغة الطيور العارفة بالغيب » .

h) — ويقول آخرون ان « تيريزياس » رأى في احد الايام على جبل « سيللين » «Cyllène» زوجا من الثعابين لحظة الجماع . وعندما هاجمه كلاهما ضربهما بعصاه فقتل الأنثى ، وسرعان ما تحول الى امراة ذاع صيتها في البغاء . وبعد مرور سبع سنوات على ذلك شاهد المنظر نفسه مرة ثانية في نفس المكان . وفي هذه المرة استعاد ـ بقتله الثعبان الذكر ـ حالته المرجالية . ويقول آخرون انه عندما اختلفت « أفروديت » «Aphrodite» مع « الرشيقات الثلاث » «Les trois Graces» ـ وهن « بازيتيا » «pasithéa» و « كاليه » «Calé» و « اوفروزين » «Euphrosyne» ـ على المركز الاول في الجمال ، حكم « تيريزياس » لـ « كاليه » . فما كان من « افروديت » الا أن حولته الى عجوز شمطاء . ولكن « كاليه » اخذته معها الى « كريت » واسبغت عليه الشعر البديع ، وبعد أيام من ذلك اخذت « هيرا » تلوم « زوس » «Zeus» على خياناته الزوجية المتعددة . ودافع عن نفسه بانه عندما يقاسم زوجته الفراش ـ تستأثر بنصيب الاسد من اللذة . غمغم قائلا : « ان النساء يعصبن من اللذة في العملية الجنسية اضعاف ما يصيبه الرجال » . فصرخت « هيرا » « لا ابدا . ان الامر على العكس من ذلك تماما ، وانت تدرك ذلك جيدا » . وأجاب « تيريزياس » الذي استدعي لفض هذا الخلاف والتعبير عن شعوره استنادا الى تجربته الشخصية : « لو ان اللذة الجنسية قسمت الى عشر حصص لاصابت النساء تسعا وما اصاب الرجال الا واحدة » . وبلغ اغتياظ « هيرا » من ابتسامة « زوس » الظافرة انها رمت « تيريزياس » بالعمى . ولكن « زوس » عوضه عن ذلك بنعمة النبوءة وحياة ممتدة على مدى سبعة اجيال(١١) .

---

(١١) على الرغم من أن وطنيي « طيبة » فضلوا أن يجعلوا من « أوديب » وريثا ضائعا للمملكة ـ رافضين اعتباره غريبا أخذ مدينتهم عنوة ـ فقد برزت الحقيقة للعيان بموت « مينويسي » ؛ هذا الموت الذي كان جزءا من السباق ما قبل الهيليني الذي كان يجري في أعياد « البيلوريا » «peloria» احياء لذكرى الصانع « أوفيون » ←

j) — ووصل « تيريزياس » الى بلاط « أوديب » وهو يتكىء على عصا من خشب القرانية «Cornoviller» كانت « أثينا » قد قدمتها له ، وكشف لـ « أوديب » عن ارادة الآلهة : « فلن ينحسر الوباء ما لم يضح « أحد البشر المبذورين » «un Homme semé» بحياته من أجل المدينة . وكان « مينويسي » «Ménoecée» والد « جوكاست » واحداً من أولئك الطالعين من الارض بعد أن بذر « قدموس » «Cadmos» أسنان التنين . وما لبث « مينويسي » أن ألقى بنفسه من اعلى الاسوار . وقد اجمع أهل « طيبة » على اكبار حسه الوطني واخلاصه . وعندها أعلن « تيريزياس » أن « مينويسي » « قام بما ينبغي القيام به ، وأن الوباء سيبدأ بالانحسار . ولكن الآلهة كانت تفكر برجل آخر من أولئك المبذورين الذين ينتمون الى الجيل الثالث ، لانه رجل قتل اباه وتزوج من امه : « فلتعلمي يا « جوكاست » أن الامر يتعلق بزوجك « أوديب » » .

ولم يشأ احد في البداية أن يصدق « تيريزياس » . ولكن أقواله اكدتها رسالة من « بيريبويا » ملكة « كورنته » . فقد كتبت أن موت

«Ophion» والذي كانت اسنانه السبب في نشوء هذا الجنس . فقد اندفع « مينويسي » في وجه الموت على امل يائس في أن يهدىء من غضب الالهة على نحو ما فعل « ميتوس كورتيوس » «Mettus Curtius» الذي انشقت الارض أمامه في ميدان روما (Tite-live, VII, 6) . وقد وقع نفس النوع من التضحية ابان حرب « السبعة ضد « طيبة » » . ولكن « مينويسي » مات عبثا والا لما اضطرت « أم الهول » وكبيرة الكاهنات الى الانتحار . فاما أسطورة موت « جوكاست » شنقاً متهاحاطتة على الارجح. فلقدجاء أن «هيلانة الزياتير» «Hélène des oliviers» مثلهـا في ذلك مثل « ايريغـون » و « اريان عبـادة الكرمـة » «Ariane du culte de la vigne» قد ماتت بهذه الطريقة ربما لتقديم تفسير عن التماثيل الصغيرة الخاصة بالالهة القمر ؛ هذه التماثيل التي كانت تمايل كتعاويذ على اطراف أغصان الاشجار المثمرة . وفي « طيبة » كانوا يستعطون هذا النوع من التماثيل الصغيرة . ومن المؤكد أن « جوكاست » عندما انتحرت قد ألقت بنفسها من قمة احدى الصخور على غرار ما فعلت « أم الهول » .

زوجها « پوليبوس » يسمح لها الآن بكشف الملابسات التي احاطت بتبني « اوديب » وقدمت تفاصيل حاسمة . فشنقت « جوكاست » نفسها من خجل وألم . وأما « أوديب » فقد فقأ عينيه بدبوس انتزعه من ثيابه(١٢)

k) — وتذهب احدى الروايات الى ان « أوديب » — وعلى الرغم مما سلطته عليه « آلهة الانتقام » «Les Erinyes» من تعذيب متمية إياه بانه السبب في موت أمه — قد بقي ملكا على « طيبة » ردحا من الزمن الى أن خر صريع البطولة في ساح الوغى(١٣)

(١٢) يشير ظهور « تيريزياس » — وهو اسم مشترك بين جميع العرافين على امتداد التاريخ الاسطوري اليوناني — الى أن « زوس » قد منحه حياة طويلة جدا . فاما مشاهدة الثعابين في حالة الجماع فانها ماتزال نذير شؤم في جنوب الهند حتى الآن . وأما « القرانية » — وهي شجرة تستعمل للعرافة المخصصة لـ « كرونوس » — فانها ترمز الى الشهر الرابع ؛ شهر الاعتدال الربيعي . وقد اسست روما في هذا الفصل بالتحديد في المكان الذي لامست فيه حربة القرانية الارض . وقد حول « هيزيود » «Hesiode» إلهتي الرشاقة «Les deux charites» الى ثلاث شخصيات سماها « اوفروزين » و « أغلي » «Aglaé» و « تالي » «Thalie» .

(١٣) عاشت روايتان متناقضتان عن نهاية « أوديب » . فبالعودة الى « هوميروس » لقد مات « اوديب » ميتة مجيدة في ساحة الوغى . وبالعودة الى « ابولودور » «Apollodore» و « هيجين » «Hygin» لقد نُفي « أوديب » من طرف شقيق « جوكاست » الذي كان ينتمي الى العائلة الملكية القدموسية «La famille Cadméenne» وهام على وجهه في الجزر الاغريقية متسولا الى ان وصل الى « كولونا » «Colonne» في الـ « أتيك » «Attique» حيث تعقبته آلهة العقاب حتى الموت . وقد أوّل المحللون النفسيون « أوديب » الذي تملكه الندم ففقأ عينيه على أنه دلالة على الخصي . ولكنه ، وعلى الرغم من أن عمى « فونيكس » «Phoenix» الوصي على « اخيل » قد اعتبر من جانب النحويين الاغريق تورية «euphémisme» تدل على العجز الجنسي ، فقد بقيت الاسطورة الاصلية محترمة على الدوام ، كما استمرت عملية خصي « أورانوس » «ouranos» و « اتيس » ←

ويقول آخرون إن « كريون » «Creon» شقيق « جوكاست » قد طرد « أوديب » الذي لعن ـ بدوره ـ ابنيه وأخويه معا « إيتيوكل » «Etéocle» و« پولينيس » «Polynice» . وكان هذان قد أساءا الأدب بإرسالهما اليه القطع الخسيسة من الأضحية ؛ أي الفخذ بدلا من الكتف الملكية . وهذا ما حدا به الى مغادرة المدينة التي حررها من « أم الهول » ودون أي أسف .

وبعد سنوات من التيه في بلاد شتى وصل « أوديب » ـ تقوده ابنته الوفية « انتيغونا » «Antigone» ـ الى « كولونا » في منطقة الـ « اتيل » حيث لاحقته آلية الانتقام التي كانت تمتلك غابة مقدسة هناك حتى الموت . وقام « تيزيه » «Thésée» بدفن جثته في « أثينا » داخل حرم الآلهة المعطوفات «Les Euménides» [وهو الاسم الذي يطلقونه على آلهة الانتقام طردا لشرهن] ، وهو يذرف الدمع الى جانب ابنته « أنتيغونا »(١٤) (*) .

→

«Attis» في الظهور وفي كافة مؤلفات المرحلة الكلاسيكية . فاما اصابة « أوديب » بالعمى ، فانها تظهر كما لو أنها اختراع من اختراعات الكتاب المسرحيين أكثر مما هي أسطورة بالفعل . وأما آلهة العقاب فانها تجسد الضمير ولكن بالمعنى الضيق جدا ، وفي اللحظة التي يظهر فيها تجاوز تحريم الأم بالتحديد .

(١٤) وتبعا للاسطورة غير الهوميرية فان ارتياب « أوديب » من إلهة المدينة عوقب بالنفي ، ومات « أوديب » بعد ذلك ضحية مخاوفه الموهومة . فهل حاول « أوديب » ـ على غرار « سيزيف » «Sisyphe» ـ أن يبدل التسلسل الاومي «Succession matrilinéaire» بالتسلسل الابوي ثم نفي من طرف رعاياه ؟. ان الامر يبدو محتملا . ولقد كان « تيزيه » الاثيني ـ بدوره ـ لوريا أراد أن يفرض النظام الابوي وأباد عشيرة الـ « پالانتيد » «Pallantides» الاثينية القديمة . وقد نفي هو الاخر في نهاية حكمه .

(*) يظهر « تيريزياس » هنا كمنبىء عن النكبة الختامية لـ « أوديب » . ولكنه يبدو أن تحويرا ما قد طرأ على الاسطورة التي وصلتنا ، والتي ربما كانت على النحو التالي :

←

ـ عقدة « أوديب » في التحليل النفسي ـ

عقدة « أوديب » « مجموعة منظمة من رغبات الحب والكراهية تنتاب الطفل في علاقته بأبويه »(١٥) .

ولهذه العقدة ثلاثة أشكال :

١) ـ الشكل الايجابي ، وهو الشكل الذي يعبّر عن رغبة الطفل في موت منافسه الذي ينتمي الى جنسه ، كما يعبّر عن الرغبة الجنسية أو الرغبة في الزواج من الشخص الذي ينتمي الى الجنس المقابل .

٢) ـ الشكل السلبي ، وفيه يتوجه حب الطفل الى احد أبويه الذي هو من جنسه بينما يتوجه حقده الغيور الى الطرف الذي ينتمي الى الجنس المقابل .

٣) ـ الشكل التام ، وهو مزيج يتفاوت فيه وجود الشكلين

←

« لقد استولى « أوديب » الكورنثي على « طيبة » ، وأصبح بزواجه من « جوكاست » كاهنة « هيرا » ملكا عليها . ثم أعلن أنه بدءا من الآن سيتم انتقال الملك من الاب الى الابن عن طريق السلالة الذكرية ـ كما هي العادة في « كورنته »ـ بدلا من أن يكون هبة تمنحها « هيرا » الخانقة . وقد اعترف « أوديب » بحزنه الشديد لانه ترك جياد العربة تجر وتقتل « لايوس » الذي يعد أباه ، ولانه تزوج من « جوكاست » تعبيرا عن الاحتجاج ، وحل الوباء بـ « طيبة » . وبناء على مشورة احدى العرافات قام أهل « طيبة » بانتزاع الترقوة المقدسة من « أوديب » ونفيه . ومات « أوديب » بعد محاولات فاشلة لاسترداد عرشه بقوة السلاح » .

(15) «Vocabulaire de la psychanalyse», P:U:F, 1967, p (79).

وبعد أن مهد « فرويد » بكثير من تجارب التحليل النفسي على مرضاه ، تأكد من وجود عقدة « أوديب » بتحليله لنفسه ذاتيا . ولقد أفضى هذا التحليل الذاتي الى اكتشاف ما يكنه « فرويد » من حب لأمه ، وغيرة متصارعة مع العاطفة تجاه أبيه.

السابقين(١٦) . فاذا كان الشكلان الاولان هما اللذان يعطيان الحالات المرضية في المستقبل ، فان الشكل الأخير هو الشكل الطبيعي ، ففيه تتغلب الاتجاهات النفسانية عند الطفل على الحاجات الجنسية أو الحسية والتي تشكل قاعدة الغريزة . إن الطفل يعيش الحب في هذا الشكل كاتجاه نفساني لا كرغبة جنسية . فأما الحالات المرضية فهي التي تتغلب فيها الحاجات الجنسية على الاتجاهات النفسانية(١٧) .

ومن الناحية الزمانية فان عقدة اوديب تبلغ ذروتها فيما بين السنوات لثلاث والخمس من عمر الطفل . وهذه هي المرحلة التي تسمى بالمرحلة لقضيبية «La phase phallique» والتي لا تتميز عن المرحلة القضيبية عند البالغين إلا في الأمور التالية :

١) — إن كثافة الغريزة الجنسية فيها أقل منها في المرحلة القضيبية عند البالغين .

٢) — إن التنظيم المتماسك الذي تسيطر عليه الأعضاء الجنسية مفقود عند الطفل .

٣) — إن بعض التصرفات الشاذة تبقى عند الطفل في هذه المرحلة

(16) Ibid. p (80).

وفي هذا التقسيم الحدي نوع من التبسيط أو التصوير «Schénatisation» كما يقول « فرويد » . فعلى مستوى التجربة لا يقتصر موقف الطفل الذكر مثلا على المشاعر المزدوجة تجاه أبيه والمشاعر الحانية تجاه أمه ، وانما هو يتصرف نحو أبيه تصرفا أنثويا كما لو انه كان أنثى . وهذا يعني على المستوى الواقعي وجود سلسلة من الحالات بين الشكلين السلبي والايجابي حيث يتعايش هذان الشكلان ضمن علاقة دياليكتيكية .

(17) Ibid: p (80).

ومن الجدير بالذكر أن شكل العقدة الذي اكتشفه « فرويد » لدى تحليله الذاتي لنفسه هو الشكل التام ، بينما تعبر تراجيديا « أوديب الملك » لسوفوكليس عن الشكل الايجابي .

وتعد استمرارا للمرحلتين السابقتين وهما المرحلة الشفوية «La phase orale» والمرحلة الشرجية «La phase anale» (١٨) .

وفي هذه المرحلة الاوديبية ، فان قابلية الاثارة الجنسية عضويا عند الطفل هي التي دفعت بعض المحللين الى الاعتقاد بأن هذه المرحلة مرحلة عضوية «organique» بينما ذهب محللون آخرون بأنها مرحلة ما قبل العضوية «pré organique» وذلك لتعلق الطفل ببعض مظاهر اللذة التي تعود الى المرحلتين السابقتين .

وفي مرحلة البلوغ تسود عقدة « أوديب » الى التهيج من جديد ، ثم يتغلب عليها المراهق بنجاح نسبي حسب اختياره للموضوع الذي يتعلق به .

إن مراقبة الطفل في المرحلة الاوديبية تكشف عن كثير من المظاهر التي تتجلى فيها عقدة « أوديب » ، فحضور الاب يزعج الطفل « الذكر » ،

(١٨) تغطي المرحلة الشفوية سنة الى سنة ونصف من أول عمر الطفل . وتتجلى الغريزة الجنسية من خلال الاحساس باللذة عن طريق الفم ، ومن مظاهر هذه اللذة الرضاع أو وضع الاصبع في الفم . وموضوع اللذة هو الثدي الذي يمكن ان يتحول عنه الطفل الى موضوعات أخرى .

وأما المرحلة الشرجية فتغطي من عمر الطفل ما بين سنة ونصف الى ثلاث سنوات . وتتجلى مظاهر اللذة فيها عن طريق الشرج . ويعتقد الطفل في هذه المرحلة ان كل ما يملكه هو برازه الذي يحجبه عمن يكره ويقدمه هدية لمن يحب .

وأما المرحلة التي تلي المرحلة القضيبية الطفولية فهي مرحلة الكمون «Latence» وفيها يصاب النمو الجنسي بالتوقف أو العودة الى المراحل الاولى . ولكن التوقف عند حدوثه لا يكون كاملا . فاما الاحداث والاتجاهات النفسانية السابقة لهذه المرحلة فانها تضيع في النسيان الطفولي . ويأتي النسيان نتيجة الكبت الذي يتجلى في مظاهر كثيرة كمنع الطفل من اللعب بعضوه الجنسي أو فطامه أو تعليمه على صب مفرزاته في الاماكن المخصصة . وبعد مرحلة الكمون والتي هي مرحلة انتظار تأتي مرحلة البلوغ «La puberté» .

ويزيد من ازعاجه ما يبثه الاب من مشاعر الحنو للأم . إن الطفل يريد أن يمتلك أمه لنفسه ، وبالتالي فهو لا يخفي فرحته لغياب أبيه والانفراد بأمه لكي يعدها بالزواج . والطفل في هذه المرحلة يلح على النوم الى جانب أمه ، ويسره النظر اليها وهي تستحم ، كما يمطرها بوابل من الأسئلة التي تتعلق بالثقافة الجنسية .

وقد تضللنا بعض المظاهر العاطفية التي يحملها الطفل لأبيه ، ولكنه لا بد من الاشارة الى ان العواطف المتناقضة تتعايش عند الطفل في هذه المرحلة ، وذلك خلافا لما يكون عليه البالغون حيث العواطف المتناقضة عندهم لا تتعايش مع بعضها وإنما تتضارب .

. . . .

هذا عن الطفل في المرحلة الأوديبية . ولعله غني عن البيان التعريف بأن كل المظاهر التي تتجلى عليها عقدة « أوديب » عند الطفل ليست إلا تعبيرا عن مشاعر غير واعية . فأما عند البالغين من المرضى المصابين بالعصاب ، فان الحقد على الأب والرغبة في رؤيته ميتا هي رغبة صريحة لا ضمنية . كما أن الرغبة في الزواج من الأم لا تقل صراحة عن الأولى . لقد ناضل المريض ضد الرغبة الأوديبية ، ولكنه لم يستطع التغلب عليها، فتحول بذلك من « أوديب »الى هاملت .

وفي الوقت الذي تستمر فيه الرغبات الأوديبيةعند الطفل زمنا قصيرا محددا ، فانها ترافق المريض طيلة حياته .

وتجدر الاشارة الى أن هذه الاكتشافات النفسية على يدي « فرويد» لم تأت دفعة واحدة ، وإنما تمت على مراحل . ففي تشرين الاول من عام (١٩٨٧) كتب فرويد رسالة الى صديقه «Fliess» يقول فيها :

« إن القوة الآخاذة التي تحمل تراجيديا « أوديب الملك » أصبحت مفهومة ... « فالأسطورة اليونانية تولي الأهمية للدافع الغريزي الذي يتعرف عليه كل انسان لانه استطاع ان يلمس في نفسه آثارا لهذا الدافع »(١٩).

(19) «Vocabulaire de la psychanalyse», p. (80).

هكذا يؤكد « فرويد » كونية العقدة «L'universalité du complexe» بمعنى ثبات الرغبات الأوديبية في كل انسان في مرحلة الطفولة . يقول « فرويد » :

« كل كائن انساني يجد نفسه مرغما على تحمل مهمة السيطرة على عقدة أوديب »(٢٠) .

. . . .

إن ثبات الميول المكونة لعقدة « أوديب » يجعل منها العقدة النواة في عالم « العصاب » ولعل ثبات العقدة الأوديبية هو الذي يفسر النجاح الهائل الذي ما زالت تلقاه تراجيديا « سوفوكليس » ، « فالانفعال الذي تحدثه هذه التراجيديا يتغذى من تجارب تهز الانسان في انفعالاته الأساسية »(٢١) .

ولا بد من الاشارة الى أن سوفوكليس قد استمد مادة تراجيديته من الاسطورة اليونانية . وعلى العموم فقد كانت الأساطير اليونانية هي المصدر الأساسي الذي نهل منه كتاب التراجيديا اليونانية .

وهذه الأساطير مشحونة بالرعب ، فهي تتناول الملاقات الأولى بين الناس مما حوّلها الى موضوع ضخم للأعمال الادبية التي تفضح الجرائم الوحشية المضادة للطبيعة .

ولعله من المفيد القول بان التراجيديات اليونانية تعتمد على عائلتين من الابطال ، وهما عائلة « اتريد » «Atride» وعائلة « لابداسيد » «Labdacide» . ولقد قام افراد العائلتين بجرائم وحشية تقشعر لها الأبدان(٢٢) .

فمن العائلة الأولى ، كان « اتريه » «Atrée» و « تييست »

(20) Ibid, P (80).

(21) «La tragédie grecque, Jacqueline de omilly», éd, P.U.F, 1973. P. (157).

(22) Ibid, p (157).

«Thyeste» اخوين اتفقا على قتل اخيهما الثالث « كريزيبوس » «Chrysippos» . ثم ما لبث الخلاف ان نشب بينهما فقام « اتريد » بقتل اولاد اخيه « تييست » وتقديمهم طعاما له في إحدى المآدب . ولقد اثقلت هذه الوحشية كاهل عائلة «Atrée» وابنيه « آغا ممنون » و « مانيلا » حيث لاحق الرعب « آغا ممنون » الذي ضحى بابنته « إيفجينيا » ، ثم ثأرت لها أمها « كليتمنسترا » التي قامت بقتل زوجها « آغاممنون » . ولم تلبث الام ان قتلت على يدي ابنها « اوريست » .

وعن العائلة الثالثة والتي ينتمي اليها « اوديب » . نجد ان « لايوس » والد « اوديب » قد أجرم في شبابه ، وعندما اصبح ملكا وجد نفسه مهددا بالقتل من ابنه « اوديب » . ولقد حاول الاب ان يتخلص من ابنه ولكن دون جدوى . ثم مالبث الابن ان قتل اباه وتزوج من أمه وانجب اطفالا هم بشكل ما اخوة له .

وعندما اكتشف « اوديب » حقيقة ما فعل ، فقأ عينيه ، ولكن دون أن يعني ذلك نهاية المصائب في عائلته . فلقد ورث اللعنة لابنيه اللذين ينتهيان الى قتل بعضهما .

وبينما كتبت ثلاث تراجيديات عن عائلة « أوديب » بدءا من أولاده(٢٣) فلقد كتبت ثماني تراجيديات عن عائلة « ايريد »(٢٤) .

واذا كانت الجرائم الوحشية التي وقعت داخل أسرة « اتريد » تشير الى ان العلاقات الاسرية بابسط مظاهرها قد وضعت موضع التساؤل في المجتمع الاغريقي ، فان الجرائم التي وقعت داخل اسرة « اوديب » تشير الى نسف كل العلاقات الطبيعية داخل الاسرة .

* * *

وتمثل هذه التراجيديات ذروة الرعب الانساني . ولقد نصح « أرسطو » بكتابتها لانها تطهر النفس الانسانية .

(٢٣) كتب الاولى « اسخيلوس » والثانية « سوفوكليس » والثالثة « إيروبيديس » .

(٢٤) ثلاث من هذه التراجيديات « لايسخيلوس » وواحدة « لسوفوكليس » واربع « لإيروبيديس » .

ولعل عنف المحتوى في هذا الفن هو الذي دفع بالتحليل النفسي الى أن يضمه الى ممتلكاته .

ولقد ذهب « فرويد » في كتابه « مدخل الى التحليل النفسي » الى القول بأن تراجيديا « أوديب الملك » لسوفوكليس غير أخلاقية « لانها تلغي مسئولية الانسان ، وتحمل القوى الالهية مسئولية الجريمة ، وتكشف عن عدم قدرة الاتجاهات الاخلاقية في الانسانية على مقاومة الاتجاهات الاجرامية »(٢٥) .

وفي كتابه « الطوطم والمحرّم » «Totem et tabou» ذهب «فرويد» الى الافتراض بأن عقدة « أوديب » هي التي أوحت الى الانسانية بأسرها – في بداية تاريخها – شعورها بالذنب ، هذا الشعور الذي كان المصدر الاساسي للأديان والاخلاق »(٢٦) .

اما وقد وصلنا الى هذه النقطة من البحث ، فانه يتوجب علينا ان نطرح السؤال التالي :

ما العلاقة بين « أوديب » سوفوكليس و « أوديب » فرويد ؟ .

وللاجابة على هذا السؤال نبسط الحديث على ثلاثة مستويات ، مستوى التاريخ ، ومستوى التراجيديا أو الاسطورة ، ومستوى التحليل النفسي.

١ – فعلى مستوى التاريخ ، ما من شيء نهائي وقاطع يمكن الاطمئنان اليه فيما يتعلق بالوجود الحقيقي لشخصيات « أوديب » و « لايوس » و « جوكاست » . ولكنه يمكن أن تكون هذه الشخصيات واقعية . وفي هذه الحالة فان « أوديب » يكون قد جاء من مملكة « كورنته » غازيا لـ « طيبة » . وبعد ان احتلها اصبح « أوديب » بزواجه من جوكاست كاهنة « هيرا » ملكا على « طيبة » . وأعلن أوديب فيما بعد أن العرش في « طيبة » سينتقل من الاب الى الابن كما هي العادة في « كورنته » ،

(25) «Introduction à la psychanalyse», Sigmund Freud»
p.b. payot, Paris, 1975, page (311).
Ibid, P. (312). وانظر :

(26) «Totem et tabou», éd; pbp. Paris, 1977, p. 29 ... 88

وذلك خلافا لما كانت عليه العادة في « طيبة » اذ كان العرش هبة مـن الالهة « هيرا » خانقة البشر . وكان « الطيبيون » ينظرون الـى الملك الجديد ـ وان كان اجنبيا ـ على انه ابن للملك القديم وقاتل له . هـذا في مرحلة اولى ، وفي مرحلة ثانية كان الملك الجديد يتزوج مـن ارملة الملك القديم ابيه نظريا . ولم يفهم الغزاة « الكورنثيون » هـذا النظام ، ففسـروا ذلك قتلا حقيقيـا للاب وزواجـا حقيقيا مـن الام ويعلـق «Robert Graves» صاحب كتاب « الاساطير الاغريقية » على ذلك بقوله « ان نظرية فرويد القائلة بغريزية عقدة اوديب عند كل البشر تعـود بالاصل الى هذا الاعتقاد الخاطىء »(٢٧) .

وإذاً فإن قتل « لايوس » على يدي « أوديب » كان قتلا طقوسـيا للملك الشمسي . فوريث الملك الطيبي كان يقتل سلفه قتلا طقوسيـا لا حقيقيا . وكان القتل يتم نظريا برمي الملك من على عربته وجره بجياد العربة . ولقد اعرب « أوديب » عن حزنه الشديد لانه ترك جياد العربة تجر « اباه » حتى الموت ، كما اعرب عن حزنه الشديد لزواجه مـن « جوكاست » امه نظريا والتي نصبته ملكا ضمن احتفالات طقوسية مثيرة

وحينما حلول « أوديب » أن يغير عادات الناس في « طيبة »انتحرت « جوكاست » وحل الوباء في المدينة . وبناء على نبوءة احد العرافين قام اهل « طيبة » بسحب الرمز المقدس من « أوديب » وطرده من المدينة ومات « أوديب » بعد محاولات عديدة للحصول على « طيبة » من جديد . وبالعلاقة مع انتحار « أم الهول » الجاثمة على ابواب « طيبة » والتـي كانت تمثل الإلهة القمر « هيرا » ، وكان على الملك الجديد ان يصلي لها قبل زواجه من كاهنتها الملكة ، فان الباحثين يتساءلون عما اذا كـان « أوديب » قد غزا « طيبة » في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وعما اذا كان قد الغى عبادة الالهة « المينوية » في « طيبة » وغير التقويم المعمول به ، اي انتقل من التقويم القمري الى التقويم الشمسي .

٢ ـ هذا على مستوى التاريخ ، فاما على مستوى الاسطورة والتي

(27) «Les mythes grecs», Robert Graves», éd, Floch, Mayenne (France), 1967, P. (299)

كانت مصدراً للتراجيديا ، فان اسطورة « أوديب » تكثيف التاريخ والخرافة . لقد ساهمت الاسطورة في حفظ التاريخ كحوادث ، والايديولوجيا كخرافة ، ومزجت بين الاثنين . وان المرء ليتساءل عما اذا كانت البشرية القديمة قد اسقطت رغباتها المكبوتة على الالهة . فالزواج من الام او الاخت منتشر في عالم الالهة اليونانية بما يدفع الى مثل هذا التساؤل .

٣ ــ وعلى مستوى التحليل النفسي فان تسمية العقدة التي تتشكل عند كل طفل في المرحلة القضيبية بعقدة « أوديب » تجد شرعيتها في المظهر الخارجي الذي يدور في التراجيديا . ولكن هذه التسمية تهمل جانب الدقة التاريخية الذي المحنا اليه انفا ، كما تهمل بواعث الصراع الداخلي في المسرحية . ومن هذه البواعث ــ فيما نرى ــ ان «اوديب» الذي صنعه « سوفوكليس » لم يقتل اباه ولم يتزوج امه لرغبة في ذلك ، وانمابسبب خطيئة قاسية تحمل نتائجها . ومن ذلك ايضا ان العلاقة في تراجيديا « سوفوكليس » كانت بين الانسان والالهة . « فاوديب » كان يفعل ما تامره به الالهة ، واما « أوديب فرويد » فان علاقته وصراعه مع غرائزه لا مع الالهة . ومن ذلك اخيرا انه عندما ارتكب « اوديب سوفوكليس » جريمته لم يكن يتذكر شيئا عن طفولته . وهذا يعني ان الجريمة لم تات وليدة رغبة كامنة منذ الطفولة . « فأوديب » في المسرحية والاسطورة جاهل بأمه وأبيه وطفولته ، واما « اوديب فرويد » فانه لابد ان يكون عارفا بكل ذلك . ويفضي بنا كل هذا وذاك الى خطورة التفسير النفسي للادب عندما لا يقوم به اناس متمكنون من النظرية الفرويدية ، خصوصا ان التراجيديا اليونانية لا تقدم الا القليل عن التفسيرات البسيكولوجية مما يفتح الباب لتاويلات غير محدودة .

واذا كانت « أوديب الملك » لسوفوكليس قمة ابداعه كما يقول الناقد الفرنسي «Fernard Robert» (٢٨) فان « اوديب » العقدة النفسية يمثل النواة في علم « العصاب » على حد تعبير « فرويد » ويعطينا الحق في ارجاع اعظم الاعمال الادبية العالمية الى هذه العقدة .

(28) F. Robert. La littérature grecque, P.U.F, 1970, p (43).

من وزارة الثقافة يصدر حديثاً

محمد الصقر

سلسلة روايات عالمية (٣٦)

تأليف
يشار كمال

ترجمة
أحسان سركيس

* * *

بروست

سلسلة أعلام (١٨)

عدد من المؤلفين

ترجمة : لطيفة ديب

ابداع

شعر

خذني إلى الشجن الحميم

سليمان العيسى

قصة

الأرياف تترحل مع السواقي

جمال عبود

ابـــــداع

شعـــــر

خذني إلى الشجن الحميم

سليمان العيسى

الى الاخ والصديق الرائع
الدكتور راشـــد المبـــارك

بِاسْمِ الشَّميمِ . . — عَرَارُ نَجْدٍ خالدُ(١) —
لي مِلْءَ ذاكِرةِ الأَريجِ قصائِدُ
تَهَبُ الجُذورَ حنينَها ... وتَرُدُّها
وَهَجاً وَيحترِقُ الخَيالُ الشارِدُ

(١) تمتّعْ من شميمِ عَرارِ نجدٍ فما بعد العَشيّةِ من عَرارِ
« شاعر عربي قديم »

وأظَلُّ أستَسقي السَرابَ . . لأنّني
آمنْتُ . . أنَّ سَرَابَ قَفْري واعِدُ
لم ألْقِ لِليأسِ المُدَمّرِ ريشتي
حَطَباً . . تَحَدّى الليلَ بَرْقٌ خامِدُ
مَعَ كُلِّ نَبْضٍ من صَحَارَى أمّتي
لي مَوْعِدٌ . . وأنا القَتيلُ الشاهِدُ
أحبَبْتُ مَوْتي . .
فالنشيدُ نُبُوءَةٌ
بِقيامتي . . والعُمْرُ حَرْفٌ ساهِدُ
ويَمُرُّ مِنْ فوقي صَهيلُ فَواجعي
وأصِرُّ . . أنَّ سَرابَ رَمْلي واعِدُ

* * *

لَكَ في جَنَاحي خَفْقَةٌ . . يا شاعِري
سَبَحاتُها بينَ النجومِ شوارِدُ
إني لأبْحَثُ عَنْ يَنَابيعي التي
أبَتِ الرحيلَ وأنْتَ منها واحِد
وتَغيبُ في الحَلَكِ الرهيبِ سَماؤُنا
وتَظَلُّ في كَفّيَّ الخضيبِ فَراقِدُ
قَطَرْتُ أوْجاعَ العُروبةِ نَبْرةً

وهتفتْ بالأجداثِ : إنّي عائدُ

* * *

باسْمِ العرّارِ .. بعيشُ فيما بيْننا
نسبٌ على عبَقِ الأصالةِ خالدُ
باسْمِ الشميمِ ..
ولو «عشيّاتُ الحمى»
غارتْ .. سنُبْدِعُها .. ونحنُ نُكابِدُ
نحنُ الشذا ..
والأرْضُ فيما حوْلَنا
غابٌ .. يجوسُ به «إلهٌ» حاقِدُ

* * *

ويجيءُ صوتُكَ .. مِلْؤُهُ شجَنُ الهوى
همَّ .. يُطارِدُنا معاً .. ونُطارِدُ
هل كانَ حلْمُ العاشقينَ ضلالةً ؟
أمْ أننا خيطُ النهارِ الرائدُ
نحنُ الذين تلقّفتْهُم نغْمةٌ
مِنْ نايِ راعيةٍ .. وبيتٌ شارِدُ
تخْضَرُّ في صدْرِ القوافي مثلما
تخْضَرُّ في صدْرِ الربيعِ نواهِدُ
الشّاربون سُلافةً .. ما ذاقَها

إلاّ فمٌ بكرومِ «عبقرَ» زاهدُ
نظماً . . لتنبجسَ الصخورُ
جداولاً
ونجوعُ . . كي يُثري البيادرَ
حــــاصدَ

* * *

لك في جناحي خفقةٌ
هيَ همسةٌ
مهزومةٌ حيناً . . وحيناً ماردُ
آليتُ انتجعُ الصفاءَ . . ولو نأى
خلفَ الطباقِ السبعِ . . إنّي واردُ
كُنّا الطفولةَ . .
والبشائرَ . .
والرؤى
غنّى ملاحمَنا «زمانٌ» جاحدُ
لا همَّ . . ننتجــعُ الصفاءَ . .
ولو نأى . .
عطرُ البراءةِ والألوهةِ واحدُ

* * *

خذني إلى الشجنِ الحميمِ . . بقيةٌ
من جمرةٍ . . والذارياتُ هوامدُ
باسمِ الشميمِ . . أعبُّ آخرَ قطرةٍ
وأقولُ للأحبابِ : إنّي عائدُ

* * *

ابـــداع

قصـــــة

الأريـاف تـرحـل مـع السـواقي

جـمـال عـبـود

(قليل من الجنون ضروري احيانا ... فهذا العقل المثقل بكل ماهو عاقل ورصين ثقيل علي .. احيانا)

« ـ حسام صار عنده طير ابيض .

ـ حسام قاعد في البيت .. » .

هذه اللثغة الطفولية الرائعة هي التي اشتاقها ، حتى وانا اسمعها . ومثلي انت حتما .. لو كنت تسمعين :

« حتى لا تكبري انت .. على العالم كله ان يظل صغيرا امام عينيك .

ـ جمال عبود : اديب وقاص من سورية ، ينشر في الدوريات المحلية والعربية .

فكم تراه يكون صغير: هذا العالم ياصغيرتي ..؟!. »

ولكنني احسده كلما تخيلت انه مايزال امام عينيك .

(لم اقل لك هذا حين كنا في كرم صالح ..

كنت ماازال انتظر الفرصة .. تصوري ..؟!) .

هل كان ذلك منذ ثلاث سنين فقط ..؟!.

ما اقصر عمر السنين . وما اصعب الا تجيء الفرصة مرتين .

* * *

شيء من الصحو والانتعاش بدأ يسري في أوصالي ، كما لو كنت أصحو من نوم طويل . انها عذوبة بردى وقد تسللت الي" في غفلة من بردى .. ومني" . وكما يغادرنا الحلم اللذيذ رويدا .. رويدا .. رويدا بدات اعي انك لست معي ، وبدأت المشاهد تومض في عيني ، وتتبدل امامي ببطء يتناغم مع تباطؤ السيارة المتعبة ، واللحظة بدت وكأنها هي التي ترقبني بشيء من الفضول .. وشيء من الاستغراب .. وشيء من الشماتة .

(هل كانت تعلم انك لن تأتي ..؟! لاشك انك اخبرتها بذلك .. حتى قبل ان اعلم انا بذلك ..

هكذا انت .. سخية على الدوام . تتركين لي فسحة من الامل ، ولو كان امل (الجاهل فيما لم يعلم) . تماما مثل املي ـ قبل لحظات في انك ربماسبقتني بالوصول .. وانك ، ربما مثل تلك المرة .. ، ستلاقينني .

.. وصحوت بكل مافي كروم التين من ضجة لم اعهدها من قبل .

هذه كروم التين تضج حيوية لماعهدها بها . لعلها كانت تهرع هي لاستقبالي ، ولعلها لمحت في" ذاك الريفي المهاجر الذي يؤوب الى وحدته بين اعشاشها . او لعلها كانت تنعي الي" شيئا من اعشاشها .

هي تعرف حتما كم سيكون عشي باردا وموحشا ما لم تزنره ضحكاتك. بل اكثر من ذلك ، تعرف جيداً أن العالم كله يغـدو كذلك .. باردا وموحشا ، حين انت لاتضحكين . فهل أنت تعرفين ..

ـ حمداً لله على سلامتك يا أستاذ . انهيت الجندية اخيراً ؟

ـ اهلا سارة .. كيف حالك ؟. إبعثي محمد واحمد الى المدرسة. نحن مداومون غداً .

ـ ...

ـ أبو علي ، كيف الحال .. سنة مباركة إنشاء الله .

ـ ...

ـ أم مخلوف ، انت مثـل نخلاتك .. شـاطرة ومنظمة ، (بس مابتقرصي) .

(قلت لها إنها لا تقرص ، ولم يكن قصدي من ذلك .. إياك اعني واسمعي ياجارة . فافهمي ياجارة ..)

وام مخلوف التي حلفت بحياتك مرة ، وابو علي الذي دثرك بفروته كي تتقي برد كانون ، وسارة ، وام بشير ، وكل الذين عرفوك ، ولـم تعرفيهم جيداً ، كلهم اعرفهم بالاسماء والملامح والصفات ، وكلهم يعرفونني بالنظرات . يعرفون جيداً متى أكون راضيا ، ومتى أكون نزقاً . ويعرفون جيدا كيف يستجرون مني الابتسامة ، كيف يجعلونني اضحك من كل قلبي ضحكا نقيا وصافيا ، وودودا وحميما مثل عينيك ، انا الذي توهمت مرة أن لاقلب لي .. واتعبني كثيرا هذا القلب الذي عرفته يوم عرفتك..

* * *

ـ يامختار أنا معلمكم الوحيد . جئتكم متأخرا هذا العام ، فاتنا نصفه الاطول ، لنستدرك النصف الذي نحن فيه . اولادكم امانة في عنقي دعوهم لي وقتا اضافيا . اريد لهم تمارين اضافية .. ساعلمهم من جديد الرسم والشعر والموسيقى ، تعرف جيدا انني لا اكتفي بالمنهاج المقـرر

أريد الا احرمهم من التعبير العفوي والمباشر . لاتستعجلوا نضوجهم المبكر من اجل رجولة كاذبة تصادر طفولتهم . دعوهم لـي .. وسنتفاهم . (وتذكرين جيدا كم كنا متفاهمين) .

فهذا (محي الدين) المسكون بكل حيوية العصافير وزقزقتها ، اعرف جيدا كيف أجعله هادئا كحمامة اليفة ، صامتا كبئر ، حين أروي لـه حكاية .. أو حين اتغافل قليلا عن بعض الاعيبه البريئة ، وهو الذي لايخفي على الاطلاق نواياه ، ولا يبيت شيئا منها في صدره . وربما لذلك كان اقرب التلاميذ الى نفسي .. (لماذا يا ترى .؟!) .

وبعكسه كان صفوان وخالد ، شقيقاه التوامان ، ومثلك كانت سهام ونهى . رقيقة وحذرة وكتومة حتى اللامبالاة ، تبدين متوجسة من كل مايقترب ... وتنكمشين مثل قطة صغيرة لم تبلغ فطامها بعد ، حتى أحاذر أن أقترب .. كي لا تذوبي . (يا ذوب الندى ورحيق الألق) .

سهام ، سهيلة ، حسام وماجد واحمد ومحمد ، والبضعة عشر الاخرون ، كلهم كانوا انا وانت . انا الفصول الاربعة وانت بساط الربيع ، ولذا كان سهلا عليك ان تحملي كل نزقي وعنائي حين تعلمين ، وحين لاتعلمين . فكم هو جميل ورائع منك انت ان تظلي انت .. انت ، تماما كما أنت .

(أنا الفصول الاربعة) .

ما أروعك حين حزرتيها وحدك .

قلت انك احتجت الثلاثين يوما التي امضيتها وانت تعلمين معي ، ولم تتعلمي مني شيئا سواها . لست الملام ، فقد استبد بك هاجس الرحيل فجأة .. وفاتك ان تتعلمي شيئا آخر . ولست الملامة ايضا ، فقد احتجت انا لثلاثين عاما حتى عرفت انني انا الفصول الاربعة كما حزرت أنت . ولكن اذا كنت ريفيا مهاجرا ، كما وصفت لك نفسي .. ووافقتني على ذلك ، فهل تهاجر الفصول الاربعة في ثوب واحد مالم تزرجحيها ، تهدهديها .. ولو برفة من عينيك ، يابساط الربيع .

(اكان لابد ان تهجرينا ، ونحن الذين قتلتنا هجرة مقيمة .. لاتألفنا ولا نألفها ، ولا يبدو انها ستهجرنا الى الابد . اكان لابد .. اكان لابد) .

* * *

ـ درسنا الاول للنصف الثاني من هذا العام . كل عام وانتم بخيرايها الاشقياء الطيبون . (هكذا كنت ستقولينها لو كنت مكاني الان ، وقد قلت مرة .. ايها العفاريت الوديعة ، وصححت لك .. ابتها ، ولكنك لـم تبالي) . اراكم لم تكبروا كثيرا ايها الاقزام . لقد امضيتم اجازة طيبة ، بالنسبة لي انتم في اجازة من يوم غادرتكم . دعوني الان يا اصدقائي اتفقد خرافي ، فانا اخاف ان يكون الذئب قد سطا عليها في غيابي .. وسرق مني حملا وديعا ، او ارنبة لم تقو على الهرب ..

(يا إلهي كم احبك ايتها الارنبة البرية .. ، فلماذا هذه فقط لم تحزربها وحدك ..؟!) .

احمد ، اسعد ، ابتسام ، امل ، بسام ، باسم ، باسمة . حمدي ، حنان ، حورية ، حمدي ، حسام ، حسام ، حسام ..؟. اين هذا القنفذ المخادع ..؟.. هل ذهب يطعم الدجاجات فالتقطته واحدة منها وهي تظنه حبة قمح ..؟.. مايزال الوقت مبكرا على الخروج الـى حقول البطيخ كي يلطي هناك ويغافل اصحاب البطيخ .. ولا يترك بطيخة تمتص غذاءها بوداعة .. الا ويمتص شيئا من رحيقها ، بالوداعة ذاتها .

اين حسام ايها الفلاسفة الخرس ..؟.

(وبالطبع لم يبق بينهم اخرس واحد) :

ـ حسام صار عنده طير ابيض .

ـ حسام قاعد في البيت .

(هذه كروم التين وقد اثمرت براعم ولثغات . هذه اللثغة الطفولية التي اجن بها طربا وانشراحا ، واراك فيها وانت جذلى تعبقين بالبسمات من بين عينيك وبين يديك .. وبيني وبينك .

(فهل انت ايضا ترين ..؟. ليتك مرة اخرى ترين) .

ــ مرة اخرى اقول لكم يا حمامي الزاجل لاتحملوا الي اخبارا ناقصة ، لا تجيبوني اجابات مقطوعة . حدثوني بسرعة . قولوا لي متى صار هذا الخلد القمىء نسرا وصار يصطاد الطيور البيضاء ايضا .

الم اقل لكم إن الطيور جميلة مثلكم مادامت حرة تطير ، وانكم اجمل منها مادمتم لاتؤذونها ..؟

ــ حسام امسك طير سنونو ابيض كان معششا في بيتهم .

ــ سأربط هذا القرصان الماكر من اصابع يديه وقدميه ، سأصلبه من اذنيه . ساجعل له ذيلا اطول من ذيل القط ..

منذ متى صار يؤذي جيرانه ..؟.

وانتم ، هل تودون حقا ان تكونوا مثله ..؟.

سألقنكم اذا درسا لن تنسوه .

سأروي لكم حكاية طائر السنونو وتمثال الامير ، وسترون كم كان السنونو ودودا وكريما مع جاره الحجري (ايها العفاريت الوديعة) . وساكون عفريتا حقيقيا لو فكرتم بالتململ قبل ان افرغ من حكايتي .

* * *

ــ تصور يا ابا سعيد كدت أتوه عن منزلكم ، ما كل هذا الاسمنت؟!.. ما الذي تركتموه للمدينة اذا .؟!.

ــ المدينة هي التي جاءت الينا . جاءتنا بالاسمنت والكهرباء والمسلسلات التي لا تنتهي ، كل اغاني الملاهي الليلية .

ــ ولكن منذ متى صارت السنونوات تعشش في بيتكم يا ابا سعيد؟!. هذا فال حسن على اية حال . اتدري انهم كانوا يقولون لنا إنها طيور مباركة ، وكانوا يمنعوننا من اصطيادها ..؟.

ــ ونحن ايضا نمنع الصغار من العبث بها . حسام لم يصطد طيرا من عندنا ، بالامس رايت معه السنونوة البيضاء . كانت متعبة ومرعوبة،

ويبدو انها علقت بالدبق الذي بسطناه للعصافير في كرم صالح . فقد جاء بها من هناك .

ــ رحمة الله عليك يا صالح ، وهل ابقيتم على كرمه ؟. سمعت من منذر انكم طرزتم ارضه بأهرامات من حجارة البناء . الم تجدوا مكانا آخر لمعملكم القذر ..؟..

ــ وفوق المعمل صار سوق المضاربات هناك ايضا . رحمة الله عليك يا صالح . ماتزال تذكر كرمه بعد كل غيبتك ؟.. ليتك ادركت صاحبه وتعرفت اليه . صالح الذي غادرنا قبل أن تشبع منه . ترك لنا العوض في عائلته التي تركها بكل حلاوتها . هذه الدالية اسمها ام محمد .. كلوا من عنبها اللذيذ ، وادعوا لام محمد بطول العمر . شجرة الجوز العنيدة هذه ، هذه الواثقة من نفسها كثيرا ، هي ابني احمد ، لا تتطاولوا عليها كثيرا فهي عصبية وسريعة الغضب . وتلك المشمشة الطرية الغضة هي غاليتي الصغيرة ، اسمها غالية ، حلفتكم بالاولاد والبنات ان تدعوهاتفرح بأول ثمرها . اتركوا لها كل ثمراتها الصفر النفيسة . يا الله ماكان أروع طباعك يا صالح ..؟!. حتى أرض كرمه فرشهابالورود كان يحب سوسنه كثيراً ويرى فيه كل الورود . قال لنا إن الخضار كثيرة في القرية،ولا حاجة لنا بمزيد منه ، وكلنا نعشق السوسن ولا نفعل شيئا لاجله . دعونا نحاول استئناسه بيننا .

وقد قلنا له :

ــ يا صالح السوسن رقيق جدا ، ناعم ولطيف . وقد لا يحتمل مناخنا القاسي ..

وبمزاجه الصافي على الدوام ، وبكل العذوبة التي تقطر من صوته ، كان يجيب بحماس العاشقين :

ــ اذا على مناخنا أن يكون لطيفا ورقيقا ، فالرقة هي الاصل . سأبدأ بمناخي انا أولا ، وسترون أن النتيجة ستدهشكم يا أصحاب الكروش الكبيرة . سأسيج ورداتي بدوار الشمس ، وويلكم لو نقصت واحدة .

ـ لو كان يدري ، رحمه الله ، انكم ستجعلون كرمه فخاخا وحجارة .. اكان يتركه لكم .. ؟. اما كفتكم اهرامات عياش وابو يونس ، واكثر من عشرة قلاع بداها سلوان بحصن لا تنقصه سوى المنجنيقات ..

ـ ماذا فعلتم بكروم التين في هذه السنين الثلاث يا رجل . بشرفي يا ابا سعيد كلما حننت الى الدهشة كنت اذهب الى كرم عمي صالح رحمه الله . فماذا افعل الآن بعفونة مضارباتكم وغبارها الخانق ..؟!

(لم اقل له بالطبع انني كنت اذهب الى هناك ، كما ذهبنا معا في تلك المرة ، كي اقول لك ولو لمرة ما لم اقله في تلك المرة .. ايتها العصية حتى على النظرات . بسطت اليك مهجتي بالكلمات .. فصوغي منها شيئا لا يقل عن بهائك ، ولا يزيد على قدرتي على الانبهار ..) .

فقط قلت له :

ـ ابا سعيد . ما اصعب الحياة بلا دهشة .

ـ هذه الدهشة عشتها طوال نهار البارحة . فلأول مرة في حياتي ارى طائر سنونو ابيض .

ـ للطبيعة قانونها ومزاجها .. وقدرتها الدائمة على الادهاش . ولكن ماذا فعلتم بالسنونو المسكين .. ؟ ..

ولماذا لم يشرفنا نجلكم العزيز بحضوره الى المدرسة اليوم .. ؟ ..

ـ ما حصل بالامس كان فظيعا يا استاذ . امتلأ البيت عندنا . كلهم كانوا يريدون رؤية السنونو البيضاء ، لا تستقر بيد احدهم حتى يتخاطفها منه عشرة . كادوا ان يقتلوها من تزاحمهم عليها . بشرفي قررت صبغ وبرها بالاسود كي اريحها منهم .

ـ وصبغتها فعلا .. ؟! .

ـ بل قتلتها بالفعل . هم كادوا ان يقتلوها ، وانا قتلتها من شفقتي عليها . وضعتها في طرف المدخنة كي يصير لها لون جنسها الاسود .

ملصت مني ومرقت في البوري المسدود وحين أخرجناها كانت كتلة من السخام الاسود .

— نزقك بمثله في يوم خرجتك الى جهنم وبئس المصير ، يا شيخ الخرفين في ضيعة كروم التين ، انشاء الرحمن الرحيم .

وهل ماتت السنونوة حقا .. ؟ ..

— لعلها ما تزال تكافح كي تعيش ، ولكل ميقاته . لقد اخفيناها عن الصغار ، وضعتها أم سعيد في قفص فارغ من اقفاص الحمام . لا ادري لماذا لم يخلقها الله سوداء .. ويريحها .

— لله في خلقه شؤون يارجل . أنتم الذين سود الاسمنت وجوهكم ، اعمت الضاريات قلوبكم فصرتم لا تصدقون أن في الحياة شيئا ابيض . حتى شعراتكم الشائبة صرتم تخافون من بياضها .

يا أم سعيد . ابعثي لي بعفريتي النكود هذا الى المدرسة ، وبشرفي سأجلله بكل سخام المدفأة لو تأخر دقيقة عن الدوام .

— والله يا ابني يا مصطفى .. حسام ما ذاق طعم الزاد من نهار البارحة ، ولا نام الا من عصر هذا اليوم .

— ويا ترى فكرت يا أم سعيد اذا كانت السنونو قد ذاقت الزاد ، أو عرفت طعم النوم .. ؟ .

— الله لطيف بعباده .

— ونعم بالله . لقد جفت ساقيتك يا أم سعيد ، وذبلت كل ورداتها . وأكيد لم يعد عندك بطات ترعى عندها .. لا بد انها هي الاخرى رحلت مع الساقية .

— لقد فرشوا لنا الساقية بالتراب والحصى ، طمروها كي يمر الطريق من فوقها . صار عندنا شارع كبير ، وعما قريب بجيئنا الزفت ايضا .

ـ اللهم الطف بعبادك يارب .

ومن لطف الله بي انني لم اعرّج على احد من بعدهم . كانت بـي رغبة ملحة لتفيؤ شيء ما . وحين اويت الى فراشي ، البارد حتى الشماتة لم ادر ان كنت قد نمت في ملابسي ، أم انني ابدلتها قبل ان انام . ولم يتسن لي التاكد من ذلك . . حتى كان الصباح .

(أيها الريفي المهاجر ، متى تعفيك المدينة من لعناتها ، وتكف عن مطاردتك . . حتى وانت نائم . هـكذا كنت ستعلقين لو انك رأيتني وقتذاك . .) .

اليس كذلك ؟ .

(حسنا ، لنؤجل نقاشنا حتى الصباح) .

* * *

ـ صباح الخير يا اولاد . صباح الخير يا بسمات . صباح الخير يا ورودا ويا رياحين . صباح الخير يا دنيا مجنونة بالحبّ والحياة ، تولد مع الصباح في كل صباح ، ولذا يظل لها عمر الصباح ، وطعم الصباح .

ـ ماما قتلت السنونو ياأستاذ . قالت انه طير مبارك ، وهي لا تريده ان يتعذب .

ـ هذا احتراس المحبين يا حسامي العزيز . انهم يقتلون من يحبون بصمتهم ولا مبالاتهم حين يكون معهم ، وبشوقهم وحنينهم اليه حين يفارقهم .

عاقل جدا ، وثقيل ، هذا المنطق الصارم . اليس كذلك . . ؟ . حكيت بالامس لزملائك عن السنونو وتمثال الحجر . تمثال الحجر كان رحيما بالسنونو أكثر من امك وابيك ، واكثر من كروم التين كلها . . ولكن السنونو مع ذلك مات .

ـ ولمـاذا مات السنونو ؟! .

ـ كي يمضي الى حيث مضى صالح ، ويعشش في كرومه التي لم يشوهها احد هناك . السنونو وديع ومسالم ، رقيق وحالم مثل صالح تماما ، ولذا لا يحتمل مناخنا القاسي . فتراه يجيئنا في الربيع .. ويرحل عنا حين يرحل الربيع .

ـ والى اين يرحل السنونو .. ؟! .

ـ الى هناك في البعيد ، حيث مملكة السنونو البيضاء كلها ، ولا شيء أسود على الاطلاق . هناك يخلع طائر السنونو فروته السوداء ويرتدي وشاحه الابيض ، ويكبر . يكبر كثيرا حتى يغدو بحجم الاوزة والبطة . وحين يتذكر أصدقاءه الذين يحبهم ويشتاق اليهم ، يجيئهم وهو كبير وقوي .. ويسمونه عند ذلك طائر التم .

ـ ولماذا لا تجيئنا طيور التم يا استاذ .. ؟ ..

ـ انتم لم تحتملوا رؤية سنونوة بيضاء واحدة ، فكيف تريد سربا من طيور التم ، وهي الرقيقة أكثر من السنونو ، حالمة جدا حين تطير وتداعب الهواء .. تمازحه ، وتلهو معه .

طيور التم لا تقرب مكانا لا يتسع لكرم صالح .

ـ وهل تعرف أين تقع مملكة طيور التم يا استاذ ؟ .

ـ أعرف ملكتهم . حلت بيننا ذات يوم ، ومرقت كحلم بغظة اقلقه ضجيج مفاجىء . أنا مجنون مثلك ، رأيتها مرة فتعلقت بها ، وعاقل اكثر من امك وابيك ، خشيت عليها من يوحي لها .. فقتلت شيئا في عينيها . لكن وحياة سنونوتك البيضاء التي ايقظت فيّ كل جنوني . سأهاجر مجددا يا صغيري ، وسأظل الريفي المهاجر .. حتى أعيد لعينيها كل الألق الذي كان .

* * *

آفاق المعرفة

علاقة المبدع العربي بالجماهير

خالد محي الدين البرادعي

جماليات قصيدة النثر

ترجمة : مياسة دع

شيلر والوعي العاطفي

نجوى قلعجي

الغيب والغيبة

محمد فيض الله الحامدي

نافذة على العالم

كمال فوزي الشرابي

كارل غوستاف يونغ
«الأساسيات في النظرية والممارسة»

ميخائيل عيد

علاقة المبدع العربي بالجماهير

خالد محي الدين البرادعي

هاجس التواصل :

المبدع من نتاج الكتلة البشرية التي نسميها الجماهير . وهو احد معطيات البيئة التي يتواجد فيها وارثا مجمل خصائصها الحضارية من لغة وتفكير وعادات وتقاليد ، وتصور الى الذات والآخر ، فمن الطبيعي ان يؤثر في هذه الكتلة البشرية بدرجة اقل او اكثر مما يتأثر بها وينهل من ينابيعها .

ـ خالد محي الدين البرادعي : شاعر ومسرحي من القطر العربي السوري ، يكتب الابحاث والدراسات في الصحف والمجلات منذ الخمسينات . من مؤلفاته « اناشيد انصار » « الفناء الأبدي » ، « السلام يحاصر قرطاجنة » .

وتؤثر فيه . مما يجعلنا نؤمن بان الابداع وثيقة اجتماعية بصورة او باخرى . لا بمعنى التوثيق التـاريخي . بل بمعنى كونـه « يرشح الخطوط العامة لتاريخ المجتمع(١) » .

ومهما تباينت او تقاربت نظريات النقاد وعلماء الجمال ، الكلاسيكيين والمحدثين حول علاقة الابداع بالمجتمع وعلاقة الانسان المبدع بالآخر . تظل امامنا رؤية واضحة لهذه العلاقة من خلال كون المبدع يكتب وفي ذهنه ــ الآخر ــ الذين يتوجه اليه بالخطاب الابداعي . سواء كان هـذا الخطاب لغة يتكون منها الشعر والرواية والمسرح . او الوانا تتكون منها اللوحة ، او كتلة يتجسد فيها بشكل معين . ولن تخدعنا ادعاءات بعض المبدعين في انهم يجسدون رؤيتهم للعالم كما يرونها ولا يعنيهم الآخر . لان هذا الادعاء بالذات انعكاس لسوء علاقة وانعدام تجاوب ينشـآن بين المبدع والجمهور . وقد لا نبالغ اذا اعتبرنا الآخر هو الهاجس الذي يشكل عنصر القلق في ذات المبدع قبل وخلال عملية الابداع . كما لا نغالي اذا اعتبرنا المواد الاساسية التي تشكل لحمة الابداع وسداه من معطيات البيئة التي يختلف المبدع والآخر فيها . ومجمل الهموم التي يعانيهـا الجمهور تتخذ صورا جديدة شديدة الاتقان والابهار بين يدي المبدع . ما دام الكائن الاسرع استجابة ، والشريحة الاكثر توهجا واحساسـا بالهموم والتطلعات وانفذها قدرة على ترجمة الحلم الفردي والجماعي .

والابداع عبر اجناسه وفروعه عملية تأريخ وكشف . ورفض وخلق فلا يستطيع المبدع أن ينسلخ من الشروط التاريخية التي تحكم وجوده. فهو ابن عصره بالضرورة . ولا يكتفي بتصوير ما يراه ويحسه . بـل يتجاوز التصوير الى الرسم ، ليتحول الابداع من بساطة السرد وسذاجة التأويل الى رؤيا الخلق والتفسير والتحليل ، ليكون كشفا عن الممكن . وهو يرفض السائد المخالف لتطور الكائن الانساني ، والمعوق . فيرفض القمع والرعب والاذلال والاستلاب التي تمارس على المجتمع سواء كانت آتية من خارجه او متواجدة ضمنه . ومهما حاول المبدع ان يلتزم الحياد حيال مشاكل مجتمعه ، يظل منحازا الى الانسان المغلوب والمقهـور

والمستغرب . وان ظهرت هذه الحالات في صيغة « الانا » لان المبدع اولا فرد في جماعته وخلية في الجسد الضخم ـ المجتمع ـ وبهـذا المعنى لا تكون « أنا » المبدع الا « أنا » وهمية «دراماتية»(٢) ليظل المبدع في اشد حالاته هروبا من الآخر ـ اذا اراد ـ منغمسا في هذا الآخر لأنه جزء منه أصلا ، مع اختلافهم بقدرة التعبير وتحويل المألوف الى خارق والعادي الى اسطوري .

والخلق اهم الحالات التي تميز الابداع الفني عن نشاطات الانسان الأخرى . ففي الشعر . الدراما . الرواية . رغم ايهامنا بسهولة ما يمر وما يحدث او قدرة هذه الاحداث على اقترابها من السائد . تظل تحولا عن طريق اللغة الى عالم خاص ، هو الكون الذي يخلقه المبدع باللغة فيحول اللغة من مسارها النفعي ، الى مسارها التنبؤي والباعث اللذة ، مستفيدا من الثقل التراثي الذي تحمله المفردات عبر مرورها بتاريخ حضارة الجماعة . مما يؤثر ـ ولو على المدى البعيد ـ بسلوك الجماعة وتفكيرها وانماط حياتها ، والا لا ضرورة للابداع ولا مشروعية لتدفقه باستمرار جيلا بعد جيل ونمطا يتلو الآخر . فالابداع اضافة الخبرة النوعية والجمالية الى وعي الفرد .

واذا غربلنا الكم المكتوب في العصور الحديثة في وطننا العربي ، لنحصل على النوع كابداع يحمل خصائصه الفنية وشروطه الجمالية وتوافقه بين الالتزام الطوعي بقضايا الجماهير ، وترفه الفني المتمثل برشاقة الاداء وشفافية الرمز وتوظيف اللغة . لراينا ان ارفع نماذج الابداع الادبي خلق لعالم جميل . ورفض لعالم بشع .

٢ ـ البحث عن الصيغة :

المبدع العربي المعاصر ، وجد نفسه داخل دوائر متداخلة من الانماط الادبية والموروثة والمكتسبة . المقبولة والمرفوضة . وليثبت شرط وجوده وضرورة استمراره امام الجمهور كمعني بابداعه ، كسر قيود التجارب السابقة . وانطلق الى عالم التجريب الذي انفتحت ابوابه منذ

اواسط عصر النهضة ولم تغلق . وقد شملت التجارب مجمل انواع الابداع عامة والابداع الادبي خاصة . الرواية . القصة . الشعر . المسرح . وحتى المقالة القصيرة . دون أن ننكر اثر التجارب الغربية في الابداع العربي ، واستجابة المبدع العربي لخوض تجارب ترسخت في العالم المتقدم ، وتلك من طبائع الابداع ، وتفاعل ثقافات الشعوب بصورة لا تسمح لشعب أو أمة أن تنغلق على ذاتها وتحقق ابداعا معزولا عن مبدعات الآخرين . ما دامت الهموم والمواجع والهواجس متشابهة بين شعب وآخر . والتطلعات الانسانية متقاربة بين فرد وآخر . واذا كانت السلطة السياسية هي الهم الذي يقلق المبدع منذ العصور الموغلة في القدم . فان هذا الهم ما زال قائما . وما زالت مسألة علاقة الفرد بالسلطة السياسية ان لم نقل انها اكثر حدة واشد حساسية في هذا العصر . ولهذا نتحسس الهاجس السياسي بثقله مصافاً في الابداع عبر جملة انواعه في عصرنا العربي الراهن ، حتى لنعتبر الابداع نشاطا مملوءاً بالهم السياسي .

وليحقق المبدع تواصله مع الجماهير وتفاعله مع همومهم واشكالات حياتهم من خلال معالجة وجود السلطة السياسية . وجد نفسه في المأزق الصعب . خاصة وان ممارسة السلطان السياسي العربي تتعارض ــ منذ الاستقلال وحتى اليوم ــ بطموحات الجماعة. ولعل اخطرها واهمها قضية الفضاء السياسية القطرية واتاحة الحركة والتنقل أمام الفرد . وهذا من أخطر المطالب والطموحات التي تتعاكس مع وجود السلطان السياسي . وأمام حالات القمع التي مورست على الفرد العربي لتحد من تطلعاته وانحيازه الى الحرية الانسانية . كان على المبدع أن يبحث عن وسائل تتيح له نقل الهاجس الابداعي الى جمهوره دون ان يتعرض لقمع السلطة . وبهذا المعنى يظل الابداع مسكونا بالرعب لانه صادر عن ذات مغلفة بالرعب أصلا . فانتقل من نقل الرؤية المباشرة الى خلق التعبير المعبأ بالرمز ، وكأنه يمر من تحت أصابع السلطان السياسي الذي اعتبره سدا وحاجزا بينه وبين الآخر . مما دفع المبدع اضطرارا للبحث عن أساليب توصيل جديدة اغنت تجربته

وشجعته على ابتكار الجديد باستمرار في القصيدة والمسرحية والرواية، لتنتقل هذه المعطيات الإبداعية الى منافذ رؤيا جديدة . هذا مضاف الى الرغبة الإبداعية في تجاوز التجارب السابقة والسائدة وتحقيق البصمة المفردة . والذات المثقلة بالفرادة .

قد تكون حاجة المبدع الى تحقيق الفرادة ملحة إلحاح الهاجس السياسي العربي . اما عدد الالوف الذين يمارسون الكتابة عرض مساحة الوطن العربي . والذين يتدافعون للكشف والتعبير ورسم مسارات الخلاص امام الانسان العربي . وهذا ما نراه في الشعر مثلا ، عبر تجاربه المتدفقة بين البناء الكلاسي ، وبناء الشحنة الملتهبة المتمثلة بالرؤيا الحديثة ، وتفكك الجملة التي تتراوح بين السريالية وتداعي الخواطر ورسم فوضى العالم في الخطاب الشعري . وبين النزعة الصوفية التي تبناها عدد غير قليل من كتاب الشعر العربي المعاصر . ومن خلال الرعب من السلطان السياسي والرغبة في تحقيق الذات عن طريق الجديد من التجريب . كان للابداع العربي المعاصر حظ من الثراء والتنوع .

واذا كان هذا الابداع يعبر عن مشاعر الجماهير ويترجم طموحات الانسان العربي ، فان المتتبع قد يتحفظ حيال انماط ابداعية مخلوعة من بيئتها ، يدور أصحابها في الفراغ بنقل التعابير العائمة والصور الجاهزة التي يستخدمها اي كاتب في اي مكان من العالم ، دون خصوصية قومية ، ودون التزام مفهوم بقضايا الجماهير وهمومها . ودون جراة عن اعلان الحرية كمرادف للابداع العظيم .

٣ ـ اللجوء الى الاساليب :

والحديث عن الالتزام وترجمة هموم الجماهير ورسم الخلاص ، والتفاعل بين ذات المبدع والآخر ، لا يعني ان يهبط الابداع الى هوة النفعية والتبسيط الفج . لاننا نتحدث عن ابداع كارفع نشاط ذهني يمارسه الانسان في التاريخ . وهذه بديهية يفهمها المبدع العربي بإدراك ووعي . حتى لا يكون الابداع « عبدا للاخلاق او خادما للسياسة ، او ترجمانا للعلم » كما يقول كروتشه في حديثه عن مكان الفن(١٣) . وان

كان الابداع لا يتخلق حتما الابتأثير الاخلاق والسياسة والعلم . غير معزول عن نشاطات الانسان العقلية والنفعية الاخرى . وأمام التحديات التي يواجهها العربي المبدع في هـذا العصر . مـن ضغط الاتجاهات الايديولوجية ، والنزوعات الفنية المتعددة ، وقهر الممارسة السياسية ، والوقوف في وجه الغزو الثقافي . وإلغاء الغربة داخل الوطن . وتصحيح الخريطة المشوهة للامة وارضها . حاول أن يفيد من جملة المعطيات المتاحة في التاريخ والحاضر . ويفيد من ثقل اللغة العربية عبر مرورها بأحقاب التاريخ ، فلجأ الى الغموض في نسج الابداع كاسلوب خاص يتميز به بعض الشعراء أو طائفة منهم . والحاسة النقدية لدى المتلقي، والذائقة الفنية . اداتان تميزان الغامض او المعمق عن الزائف والـذي يعتمد المشاكسة والتفكك نتيجة للخلخلة في التفكير وعدم وضوح رؤيا الكاتب . وهذا ما نلمسه لدى أصحاب المواهب الضحلة الذين يتسلقون على قامات المبدعين الحقيقيين . واخطر ما نتحسسه لدى هؤلاء جهلهم بطاقات اللغة وعدم تمييزهم بين النسج الفني المعتمد على ترف الصورة ورشاقة العبارة . ووقوعهم أسرى تفكك العبارة والمشاكسات اللفظية . وما ينطبق على الشعر ينطبق على فنون التعبير الابداعي الاخرى من رواية وقصة ومسرح . مما حجبهم هم بالذات عن الجماهير ــ واعني الجماهير التي تملكت قدراً من المعرفة وتؤهلها لتذوق الابداع .

وأفاد الخطاب الابداعي المعاصر من مخزون التراث العربي والعربي الاسلامي بصورة غير مسبوقة ، ليتحول هذا التراث من خلال نماذجه وشرائحه المعالجة الى حالة حداثية محببة الوقع في وعي المتلقي الذي يختزن بذاكرته صورا واضحة أو غائمة لهذه النماذج التراثية ذاتها . واحيا الابداع المعاصر كثيرا من التراث الشفهي الحكائي الذي أعتمد خلقه على اجواء خرافية واسطورية . فظهر في القصة والشعر والمسرح والرواية ظهورا خاصا شديد التطابق مع حاجات المجتمع المعاصرة . مما يبعد عنه صفة الترف والزخرفية . ويحوله الى ضرورة من ضرورات الابداع، اي أن المبدع المعاصر وظف التراث لسكنى همه المعاصر .

وتبنى هذا اللون من النشاط الفني خلق ذوق جديد ، كما تنمي ملكة التذوق لدى متلقيه . كما يدفع اي نشاط حضاري متفوق حالة خلق مسلكيات جديدة للفرد . حتى لنؤمن بقولة دونالد آدامز في « أننا جميعا خالقو عصرنا بقدر ما نحن نتاجه »(٤) ولشد ما ينطبق هذا القول على الابداع الحقيقي في المعالجة والنسج والتوجه .

واللجوء الى صياغة التراث على غير هيئته الاولى يحقق معنى الابداع لغويا وهو الخلق على غير مثال سبق . وبفرد المساحة المحررة من رقابة السلطة السياسية ، لتتسع الارض التي يتحرك فوقها المبدع . واذا كان تعبير الإبداع شاملا لكافة الوان الادب . فان هذه البقعة تتسع معاصرة أمام الشعر المتعدد الانماط والنماذج . والذي حقق شروط سيرورته وقدرته على حمل مشاغل الجماهير ، رغم الكثير المسف والمتشابه والذي ابتعد عن فنية الاداء . ولا غرابة . فالشعر عبر مراحل التاريخ العربي كان الاكثر تدفقا والاسرع استجابة حيال اي حدث او حال .

ان النماذج التالقة من شعرنا المعاصر . والتي واكبت مجمل الاحداث المصيرية ، وعكست وعي العربي في معرفة موقعه ونظرته الى ذاته والآخر . جاءت مزيجا متآلفا من شرائح التراث بعد ان فتتها الشاعر وأعاد بناءها . ومن قدرته على ترجمة قضاياه المعاصرة ضمن ذلك البناء . وبالصورة التي لم تعد بعيدة عن الآخر المعني بوصول هذا الابداع اليه .

٤ ــ مشاكل توصيل الابداع :

ورغم التوجه الشامل الذي يحمله الابداع العربي المعاصر ، ورغم سعة المساحة التي يريدها المبدع مجالا لانتشار ابداعه وتلقي احتراقاته المتتابعة . تظل المسافة التي يصل اليها هذا الابداع مشروطة بالحدود التي رسمتها الدوائر الاستعمارية العالمية قبل ان تغادر المنطقة . مما حد من تأثير هذا الابداع وقص دائرة انتشاره ، وحوله الى ما يشبه الصراخ في صحراء مترامية الاطراف . فالكتاب حامل الابداع الاول ، والدورية حاملة الابداع الثاني لا تستطيعان تجاوز الخط الذي يفصل

بين قطر وآخـر . فتقلص حجـم الكتاب وضـاقت مـساحته التأثيرية وانحصر في دائرة الإقليم الواحد .

هذه الظاهرة ادت الى تراكم التجارب ، وتكرار الذوات وهـدر الجهود ، وتشابه الانماط . ـ خاصة لدى الواعدين من المبدعين ـ لنقرا من بين الكتب والدوريات التي تتسلل خلسة من قطر لآخر ، تجارب جديدة تتوكا على اخرى سابقة او سائدة . ظنا من كتابها او ايمانها بأن مثقفي هذا القطر لا يعلمون ما يكتب في القطر الآخر. وترسخت ظاهرة التجزيئية في الابداع . ونما اليأس على تطلعات المبدع بالذات. وتحول الكل الى اجزاء . وتشجعت الظواهر القطرية الضيقة . خلافا لما يتوجه من اجله الابداع العربي المعاصر . وقد تكون هذه المثبطات ذات التحقق السياسي اصلا احد اهم الاسباب الخطرة التي حجمت دور الابداع الادبي المعاصر وابعدته عن جمهوره . فالكتاب الذي يطبـع منه الفان او ثلاثة آلاف نسخة في افضل الحالات والظروف . لا يقنع صاحبه في قدرته على مخاطبة او محاورة مائة وثمانين مليونا من البشر .

اما الابداع الذي يستطيع أن يتسلل من إقليم مشرقي الى آخر مغربي أو العكس . فيظل شاذا واستثناء ليؤثر تأثيرا شاذا واستثنائيا أيضـا . والسؤال الذي يطرحه المتشائمون من مثقفينا الآن : لماذا لا يؤثر الابداع العربي في جماهيره ؟ لا تكون الاجابة التي يطرحها المتسائلون بالذات صحيحة . وهي : عزوف الجماهير عن تلقي الابداع . بل : لان هذا الابداع لا يصـل .

ولنا ان نتساءل بدورنا : لماذا لا نطالب ـ بإلحاح ـ السلطان السياسي العربي برفع اليد الثقيلة عن عنق الكتاب واعتباره المسالة الثقافية احدى الضرورات الوجودية في الزمن العربي الحديث . ليصل الخطاب الابداعي الى المعنيين به . كما كان يصل في الفترة الاخيرة من عصر النهضة العربي . حيث كانت أصوات المبدعين الذين فتحوا امامنا منافذ الوعي والتذوق والاحساس بضرورة الابداع تصل بكثير من البساطة واليسر . رغـم تواضع وسائل التوصيل ذاتهـا في أوائل هـذا القـرن وحتى حوالي

منتصفه . فما اظن مثقفا عربيا واحدا ، لم يقرأ طه حسين والعقاد وشوقي . وخليل مطران والرصافي ومحمد عبده وآل اليازجي والبستاني . وحافظ ابراهيم . وعبد القادر الجزائري ، وعبد الحميد بن باديس . وخير الدين التونسي ، والرافعي واحمد امين والزيات وبدوي الجبل وعشرات من مفكري ومبدعي عصر النهضة وهم احياء . بينما ملايين المثقفين العرب المعاصرين لا يعرفون كثيرا او قليلا عن أساطين الفكر والابداع في الزمن الراهن . وان عرفوا شيئا ، فذلك يتم عن طريق الشذوذ والاستثناء .

٥ ــ الاعلام والوهم الايديولوجي :

اذا كان النتاج الابداعي المتجسد في الكتاب تحديدا . محاصرا حصار الانسان المبدع بالذات . وتفرض القيود المبكية والمضحكة على تنقله ووصوله من قطر الى آخر ، وبنفس العنف الذي يفرض على الانسان العربي فيحرمه من التنقل ويشله عن حرية الحركة . فان نمطا اعلاميا احادي الجانب يمزق النتاج الابداعي العربي عندما تتاح لـه فرصة الانقضاض عليه .

هذا النمط اعلامي مسيس ، يتحرك ضمن حدود الوهم الايديولوجي الذي خنق ذاته فيه . ومرض القيد على ذاته وعلى الآخر . فيروج أو ينقل الجانب الملائم مع توجهه ، ويفرض أو يضع ــ أمام ــ ، رخاوة الاعلام العربي . ضرورة إلغاء الآخر .

صحيح ان كافة حدود الاقطار العربية مغلقة بوجه الكتاب . لكن الفئات الاعلامية المسيسة اما لصالح حزب او لصالح نزعة اقليمية ، تستطيع التسلل من حين لآخر من قطر الى اقطار . شان العصابات المدربة على التهريب . لتمارس عملية التضليل التي لا يمكن لها ان تتم الا في ظل الاوضاع السائدة .

ومن خلال مشاركاتنا في بعض الملتقيات الفكرية في اي قطر عربي نفاجأ بآثار هذه العصابات الاعلامية التي تتستر بالنقد حينا وبالادب .

الملونة حينا . لنرانا امام اسماء معينة لا يضاف اليها الا المضافون ايديولوجيا الى لوائحها .

وتمارس عملية التضليل في الفرز والتوصيل . وزرع حالات خاطئة في الذاكرة العربية . ومن النتائج المحزنة لهذه الممارسة التضليلية . فرض الانتاج المعين . وحجب الابداع الآخر عبر أساليبه وانتماءاته وطرائق تعبيره .

فالاعلام المضلل والمضلَّل يضعنا أمام غزو ثقافي داخلي اذا صح التعبير . مرافقا للغزو الثقافي الخارجي الممارس على الوطن العربي طوعا وكرها .

هوامش :

(١) نظرية الادب . أوستن وارين – رينيه ويليك – ص ١٣١ – ترجمة محيي الدين صبحي . المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية دمشق ١٩٧٢ .

(٢) نظرية الأدب ص ٢٦ .

(٣) المجمل في فلسفة الفن – ب. كروتشه – ترجمة د. سامي الدروبي . ص ٩١ دمشق ط ٢ – ١٩٦٤ .

(٤) الاديب وصناعته . تحرير : روي كاودن . ص ١٩١ – ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا – بيروت – ١٩٦٢ .

* * *

آفاق المعرفة

جماليات قصيدة النثر

تأليف : سوزان برنار

ترجمة : مياسة دع

قطبا قصيدة النثر : التنظيم الفني والفوضى المهدمة :

مما لا شك فيه ان قصيدة النثر تضم في آن واحد نوعين من القوى : قوة فوضوية هدامة تحمل على نفي الأشكال القائمة ، وقوة منظمة تنـزع الى بناء « كل » شعري . حيث يشير مصطلح قصيدة النثر الى هذه الثنائية ، فمن يكتب النثر يتمرد على الأعراف العروضية والأسلوبية .

ومن يكتب قصيدة Poème يطمح الى خلق شكل عضوي ، منغلق على ذاته ، خارج الزمن . وقد تجلى التمرد انطلاقا من قصائد الوازوس برتراند(١) النثرية كما تبدى الشكل الفني مع « إشراقات » رامبو .

إلا انه ليس صحيحا ان موقف برتراند يختلف في العمق عن موقف رامبو : إذ يطمح برتراند (ومعه كافة الشعراء « الشكليين ») الى « خلق نوع جديد من النثر » وإيجاد القوانين لشكل فني جديد ، حيث لم تختلف اهدافه تماما مع اهداف شعر الأبيات . اما رامبو (ومعه شعراء المغامرة الروحية) فيصبو الى « ايجاد لغة » تتيح له ان ينقل رؤاه و« اكتشافاته للمجهول » . وبالتالي نجد انفسنا ليس امام موقفين جماليين وحسب ، بل وايضا امام طريقتين تعارضان قبول نظام الأشياء كما هو : إنهما موقفان اجتماعيان وميتافيزيقيان في آن واحد .

ولطالما اشرنا ان الشعر العروضي والشعر « القياسي » يتفقان مع حالة عضوية وفكرية واجتماعية متوازنة ، ومع الوفاق بين الانسان وعالمه(٢) . فقد تذوق الانسان الاجتماعي في شتى العصور الاغاني الايقاعية ، والتعزيمات السحرية ، والتناغمات التي تستجيب في داخله الى غريزة أصيلة في البساطة ، والى الايقاعات الجسدية والكونية الوفيرة ، والى حبه للنظام . ويكتب هـ. توماس : « يشير البحر الشعري المنتظم (ذو الزمن المحدد) الى عامل التآلف الاجتماعي Sociabilite ، إذ يوحي بفكرة الاستظهار الفنية بجوانبها ، كما يقدم على الاقل عنصر الوفاق مع العالم . اما اذا تخلى الشاعر عنه ، فانه سيتجه الى مجالات اكثر ذاتية وفوضوية » . من هنا يمكننا القول ان الشاعر الذي يكتب ابياتا « منتظمة » يشعر على نحو اساسي بوفاق ليس مع مجتمعه وحسب ، بل وايضا مع الكون La Création باكمله ، بينما يتمرد الشاعر اللاشكلي على هذا الكون . ويقول هوغو « يعمل المبدع ما يعمله الله بشكل آخر » مضيفا ان كل شيء في الطبيعة « متناغم ومنسجم مما يدفعنا للقول ان الله قد خلق العالم في ابيات » . إلا ان الشاعر النثري الذي يبحث على غرار الشاعر الوزني عن صب الزمن في اشكال ايقاعية ووضعها في بنية عقلانية منظمة بواسطة مقاطع منتظمة ، وتكرارات ، وبناءات دائرية ،

لا ينشد اهدافا اخرى تختلف عن اهداف الشاعر الـوزني ؛ رغم انه يستبدل التناظر العـروضي والصوتي (المقاطـع الصوتية والقافية) بتناظرات من نوع آخر ، حيث يقترن كل منهما بالايقاعات الشاملة(٢) مندمجا في نظام هارموني ، يصل غناءه بغناء الارض .

غير أن الشاعر الذي يتمرد على وضعية الاشياء، والقوانين الاجتماعية، والوضع البشري ، يقف على نقيض ذلك ، إذ يكره هذه « القيود » وهذا « السحر » الخامل ، متجها بكليته نحو الأشكال الأكثر فوضوية والاقل « قياسية » ، وبهذا يكف الشعر عن أن يكون وسيلة اتصال ما بين البشر ، وأداة اجتماعية ، وقبولا بالنظام الشامل . بل يغـدو « آلة متفجرة » يرفعها الفرد ضد الكون La création بمجمله ، مهاجما قوانين النحو والعقل ، وعبرها القوانين التي تحكم العالم . فيأمل ان يقيم في الوقت نفسه على اشلاء هـذا العالم القائم عالما آخر اكثر بريقـا واشد صفاء و« قدسا Jerusalem » سماوية ، يغدو بها وسيلة للفتح والابداع في آن واحد .

إن هذا الاختلاف الذي يتجلى ما بين الشـعراء المفتتنين بالايقاع وبالنظام الانشادي ، والشعراء المتمردين الفوضويين هو ما سنتناوله في مثال واضح يعبر عن الوجه المزدوج الذي يقدمه لنا حاليا : الشـعر الحديث الناهل من مصادر ايحائية موغلة في القدم ، وهو الشعر الافريقي والمدغشقري . وبالتالي سنعترف بوجود موقفين متباينين (كما اشار ج. ب. سارتر) و« طريقتين » شعريتين ، ومن ثم شكلين متناقضين . حيث تجلى الموقف الأول بالشعراء الذين بذلـوا جهدا واعيا للافتتان بالإيقاعات البدائية ، فعملوا على صب فكرهم في اشكال تقليدية للشعر الافريقي ، عائرين في ايقاعات الطبل (وفي الاسلوب التقليدي للهتافات الملكية) عناصر لشكل شعري سحري . فـ « العمل الشعري / قصة الروح » كما يعبر سارتر ، حيث يدور الشاعر مثل درويش derviche حتى الاغماء ، مقيما في داخل زمن أسلافه الذي يشعر به وكأنه يجري مهتزا على نحو فريد. وداخل هذا الجريان الايقاعي الذي يأمل باستعادته، يحاول أن يفتتن بزنوجة شعبه ، آملا ان توقظ اصداء الطبل غرائزه

الدفينـة الغافية في اعماقه » . اما الموقف الثـاني فيتجلى بالشعراء المتمردين الذين يريدون « الغوص تحت القشرة السطحية للواقـع ، والحس المشـترك (= العام) ، والادراك العقـلي ، كي يبلغوا عمـق الروح ... » . وبالتالي يرفض هؤلاء الأشكال المنتظمة ، والقيود النحوية المألوفة ، حيث « يجعلون الكلمات ترقص وكأنها ضائعة ، ملقين اياها على غير هدى ، محطمة على الشاطىء » ، وهو ما يمثله اثنان من كبار الشعراء الافريقيين هما : سنغور وسيزير . وقد اشـار إيميه باتري في الملخص الذي خصصه لسنغور أن «لدى سنغور : امتثال عميق لكافة قوى الطبيعة والحياة الانسـانية من جهة ، وتمرد وشقاق قاطع مع القدر من جهة ثانية» مضيفا ايضا : « يغلب عند سنغور ، الذي يحب ايقاعات الطبل الابح وهو يبعث صداه ، بشكل طبيعي هدوء الليل الحاني ، بينما يندفع سيزير ممجدا سعير الشمس الحارقة ، فيبدو سنغور إكثر قربا من حساسية نوفاليس بينما يبدو سيزير اقرب الى رامبو ... » . وفي الواقع فان اغاني « سنغور » (التي غالبا ما يكتبها لتؤدى في آلات كالناي والبلافونغ والخالوم) تنبني في ايقاعات منتظمة تقوم على التناظر والتكرار (كما في البناء المتناظر لـ « اغنية الربيع » وحركتها المتوازية التي تبدو توراتية) اما سيزير الذي يـرتقي بسورياليته الى مصاف رامبو ولوتريامون ، فيتحرر من استبداد « المعنى » و « الجملة » (وهي طريقة للتحرر من عقلانية العرق الأبيض) حيث تنبجس الكلمـات من هـذا « البركان الانفعالي » ــ وهو القصيدة ــ متفجرة في صور متاججة ، تقودنا بعيدا عن الزمان والمكان « فتتراكض الكلمات مندفعة بقوة الى السـماء والارض ، إلا ان العلو والانخفاض في الجغرافيا القديمة لا يتيح لها اللهو كما يحلو لها ... » ، وتتداعى الصور تلقائيا ، وقد اكتست بشيء من الغموض كما عند السورياليين ، إلا انها تبقى ديناميكية ، تنظمها بعنف الطاقة المتمردة ونزعة الاشـباع اللجوج للرغبات . « فالبحار القاحلة من الجزر ، تصطك اصابعها بالورود اللاهبة وبجسدي » . ليس هذا فنا وحسب ، ولكنه ايضـا ميتافيزيقا ثورية ، فكل شيء في « نثر » سيزير هذا يفسد نظام العالم القائـم ، ملهبا عالما من الـدم والنار حيث لا تكون الكلمات « كلمات انسانية ابدا » .

إن هذا الشكل الثاني من الشعر ـ الذي يسعى الى خلق اللغة من جديد ، وجعل أطر عالمنا تصطك ـ يستدعي ملاحظة هامة وهي : أن الشعر يحتوي في داخله على غموض جوهري (قدم لنا رامبو مثالا قاطعا عنه) ، فيبدو في الآن ذاته ، معلوما ومجهولا ، سريا وساحرا ، «مكتشفا» للمجهول و « خالقا » للمعلوم . حيث يجد الشاعر ـ الرائي نفسه محكوما ما بين المقتضى السري ، الذي يقوم على اعتبار الشعر وسيلة معرفة واكتشاف ، يبلغ بواسطتها ، واقعا محددا خارجا من نفسه(٤) ، والمقتضى الشعري ـ خصوصا ـ او بالاحرى السحري ، الذي يحمل الشاعر دوما ـ على حد تعبير ريفيير على « بدء سفر التكوين من جديد » ويعبر رامبو بشكل مدهش عن هذا التوق الرجيم ، فيقول « خلقت كافة الأعياد ، والانتصارات ، وكافة المآسي ، وحاولت ابتكار أزهار ، ونجوم، وشهوات ، ولغات جديدة ، فوجدتني أكتسب قدرات خارقة » .

مما لاشك فيه ان هذا الطموح الخالق الذي يدفع الشاعر عاجلا ام آجلا ـ بوصفه شاعرا ـ « الى توجيه جلده الازلي بدلا من يعانيه فيصاب غالبا بنوع من الزهو كما حدث لرامبو ، ما يلبث أن يقوده ايضا وبشكل حتمي الى شعور بالوحدة والعجز والاخفاق : ذلك أن الشاعر وقد حلم بـ « مجيء النجوم اليه » يجد نفسه عاجزا عن تغيير العالم و « تغيير الحياة » .

وقد كتب ايلوار حين زاره ميشيل كاروج الذي اشار الى خطرين من نوع الخطرين بين الشمالة الخالقة والياس : « اذا كان بودلير ولوتريامون ورامبو قد غرقوا في الندم ، فذلك لان وحدتهم لا حدود لها . لقد أقروا بأنهم لا يملكون نفوذا مطلقا مباشرا على العالم والناس . بيد ان هذا الاخفاق نسبي ، حيث ان الشاعر يتجلى كصانع لعالم جديد عندما يأخذ على كاهله العناصر الخام والساكنة التي يحملها اليه اللاوعي أو « تشويش الحواس ، فيضمها الى بعضها ، واضعا اياها في نظام ليس بالتعسفي ، ولكنه متصل بالبنية الداخلية لعالم الكلمات الذي يمثل عالمه وانعكاسه في آن واحد . وبذلك يوجد لدى الشعراء « الفوضويين » كما لدى الشعراء « الشكليين » ارادة « تدبير القصيدة » ينفصل بها الشاعر عما

هو سري ويتخذ موقفا ايجابيا وخلاقا . اي ان الفوضى ليست هنا الا تعزيزا للفردية الساخطة ، وزمنا اولا لاعادة تنظيم الكون من جديد . مما يحدو بنا الى القول ان الفوضى هي النظام الذي نود اقامته على نقيض « نظام الاشياء القائمة » . ولاريب ان شكلا ادبيا لا اجتماعيا يولد من جراء ذلك ، من دون ان يكون لاشكليا ولاعضويا .

يقودنا ذلك الى فكرة « الشكل الشعري » وهو الكلمة الاخيرة لأي جهد مبدع ، فاما ان يكون متناغما مع القوانين الكبرى للتعبير والمجتمع والكون أو متمردا على هذه القوانين ، وبالتالي يتأصل في عمق مفهوم قصيدة النثر اتجاهان مختلفان ، يوجهان المادة الفعلية ويشكلانها ، مولدين بذلك صيغتين فنيتين متباينتين وهما : « القصيدة الشكلية و « القصيدة الاشراقية » ، حيث سنرى تأرجح اعمال الشعراء النثريين ما بينهمـــا .

صيغتا قصيدة النثـــر

« القصيدة الشكلية » و « القصيدة الاشراقية »

يعمل الشعراء النظاميون على خلق عالم عضوي ، يعزز التواتر المنتظم للوقائع والاشكال فيه الشعور بالنظام الأعلى الذي يســود الكون ، بينما يعمل شعراء التمرد والفتح على تشويشه وخلقه في آن واحد . فكيف يتبلور هذان الطموحان المختلفان شعريا ؟ وكيف يبعثان الجريان الزمني للكتابة الخطية Linéaire في « الحاضـر الازلي » للقصيدة ؟ سنحدد الان هاتين الصيغتين اللتين اشرت لهما وهما : القصيدة الشكلية التي تفرض على الزمن بنية واشكالا ايقاعية منتظمة والقصيدة الاشراقية التي تبدد حدود المكان والزمان وتقضي عليها .

اذا ما استبعدنا الاساليب الخاصة بالنظم (التواقت ، والتناظرات التي تستوجبها الوقفة والقافية) فاننا نلاحظ على الفور ان الوسائل التي تتطلبها قصيدة النثر بغية فرض بنية وشكل على التدفق الزمني ، تتحدد في اثنتين وهما : الانقســام الى مقاطع ، والتكرار الذي يضم اللازمة واسترجاع العبارات أو الموضوعات والتناظرات من كافة الانواع . وقد

استخدم شعراء قصيدة النثر هذه الطرق بشكل فعلي منذ وقت مبكر ، حيث استعاروها من الشكل الموسيقي الذي كان يسعى على نحو دقيق لـ « اخضاع الزمن الى اللازمني » و « خلق ازلية الشكل في حركة الديمومة » .

ان المقاطع النثرية (التي تناظر «مقاطع» الأغاني، ومقاطع شعر الأبيات) تقطع الزمن بدقة الى أجزاء منتظمة بفصل « البياض Blanc او الصمت ما بينها ، واللذان (أي البياض والصمت) يخلقان ايقاعا ، ويشيران الى « الهيكل الروحي » للقصيدة ، كما يسمحان لايحاءات كل مقطع بامتداد وبتوالد موجاتها في اعماقنا . فهما في فصلهما المقاطع عن بعضها البعض بوضوح ، يسمحان بعزل مختلف « لحظات » القصيدة كما يسمحان باختيار اللحظات الدلالية باستمرار دون انقطاع عن الواقع ، مما حدا بالشعراء الى الاعتماد على التنظيم الايقاعي اللازم في المقاطع التي يعتبرونها وكأنها تقطع الزمن الى قطع متوافقة مشابهة للابيات . فباتوا يكتبون « اناشيد Ballades »(٧) طويلة ، حيث يظهر التقسيم الى مقاطع كمنصر وحيد للانتظام الايقاعي .

غير ان هذا التقسيم الى مقاطع في قصائد النثر ، غالبا ما يترافق مع بنية « دائرية » القصيدة ، وتنظيم ايقاعي يقوم على الاعادة والتكرار وتتنوع اشكال التكرار كثيرا كـ :

١ ــ اعادة اللازمة عبر مسافات منتظمة (وهي لازمة متشابهة دوما عندما نود ان نجعل ما هو ثابت محسوسا ، ونقف عمدا على مستوى الازلية الساكنة . او لازمة متنوعة عندما نود ان نصل الشبيه بالمختلف والتكرار بالتنوع) .

٢ ــ تكرار بداية الجملة في النهاية ، مما يتيح للفكرة الشعرية ان تلتف على نفسها وتغلق القصيدة ، مؤكدة بذلك الانطباع « الدائري » الحلقة المغلقة .

٣ ــ تكرار الكلمات أو الانطباعات لاسيما في بداية المقاطع أو نهايتها .

٤ ـ تكرار الصوتيات أي السجع أو الجناسات الصوتية المتواترة والبارعة على نحو خاص منذ الحقبة الرمزية .

ليس التناظر الا شكلا من أشكال التكرار مادام يقوم على تكرار البناءات المماثلة ، وهو ما ضربنا له عدة امثلة لدى برتراند . كما يمكن ان نذكر ايضا البناء « الثنائي المنشطر » لدى بودلير ، والبناء « الثلاثي » لدى دوميريميه (ويعتبر التوازي المتداول كثيرا لدى الشعراء الذين يستلهمون التوراة شكلا من اشكال التناظر) . فيما تمثل قصيدة الاسبيروس Y, Hespèrus ل. ج. تيليير شكلا خاصا ومعقدا وبارعا لتناظر ، المنضد المترافق مع تكرار التعابير وبناء « دائري مغلق » في كل قسم . ومن هنا تستخدم قصيدة النثر « الموسيقية » لاسيما في زمن الفاغنرية (= نسبة الى فاغنر) هذه البنى ، بل وتشالي في ذلك فما هو « الليتموتيف » Leitmotif اذا لم يكن تكرارا متنوعا بهذا القدر او ذاك؟

ان ما نعنيه هنا بشكل رئيسي هو التكرارات الشكلية التي تفرض بنية ايقاعيةعلى الزمن الواقعي للنص من حيث انه زمن ممثل Représenté بينما يمكن للرواية ان تتصرف بالزمن الممثل وان تظهر العود الابدي . النيتشوي في الاحداث نفسها ، خالقة بذلك زمنا خارج الزمن كما فعل توماس مان في معظم رواياته(٩) غير إن تكرار الكلمات او تناظرها يجر الى تكرار الافكار او الإيحاءات ، كالتكرار المسهب لكلمة «Chevelure» (١٠) في قصيدة بودلير النثرية ، حيث خلقت شعورا بالوسوسة (الذهان) ونوعا من الفتنة عبر « دائرة سحرية » الفت كل مفهوم للزمن ، ماضيا وحاضرا ، فامتزجت المراة القيدة والاراضي البعيدة في كل واحد ، في واقع سري لا يتجزأ . ومن هنا يمكن للشاعر القصيدة ، منظما بذلك الزمن الممثل كما فعل هوسمان . ومهما كانت الطرق التي يستخدمها هؤلاء الشعراء متنوعة ، فان مثالهم في « العود الابدي » يتجلى دوما بالسيطرة على الزمن حيث يطوعونه في انتظام ايقاعي وفي المكوث في زمن « موسيقي » معقلن ويرشح باستمرار فيالمجرىاللانهائي لصيرورة النص . اي ان الكمال الذي يلتمسونه هو جوهر ساكن بالنسبة لهم ، اذ يريدون ان يضعونا على مستوى واحد مع « الازلية » بواسطة أساليب تختلف عن أساليب النظم وتماثلها في اهدافها .

غير ان هناك وسائل اخرى لبلوغ « اللازمنية » وانتشال القارىء من الشعور بالتتابع (الرتابة) القاسي . فبدلا من ان نسعى للسيطرة على الزمن ، وصبه في أشكال دائرية ، نعمل على التحرر منه ، ونفيه ، حين نقفز خارج المقولات الزمنية : الماضي ، الحاضر ، والمستقبل . إنه « الاندفاع اللاشعوري واللانهائي » الذي بقي اسم رامبو مرتبطا به ، والذي يقودنا الى مفهوم القصيدة « الاشراقية » ، التي تجمع في آن واحد الزمنين : « الزمن الواقعي » و « الزمن الممثل » ، « الزمن الواقعي » الذي يتصاغر الى حده الأدنى مجسدا القصيدة تحت شكل « الكل » البالغ الاقتضاب كي تؤثر بالقارىء مولدة عنده انطباع الفجاءة والهزة الشعرية الفورية المكثفة التي حبذها « بو »(١١) . و « الزمن الممثل » الذي ينتشر مجازه ليس في خط مستقيم او دائرة مغلقة ، بل في نقطة مضيئة ذات بريق آني ولامع .

سندع جانبا المجال الموسيقي الذي لا يمكنه التطور إلا في الزمن ، مستخدما المقولات الزمنية (ما يجب ملاحظته هنا ان الشعراء الاشراقيين هم شعراء صورة اكثر منهم شعراء موسيقيين) . إذ تأكد لنا ان الشاعر لم يعد ينظم نصه بطريقة شكلية صافية ، ملتفتا الى الزمن الممثل وهو ما نسميه بـ « شكل من الدرجة الثانية » ، لكن كيف نلغي الزمن ؟ يجهد الشعراء لذلك بطريقتين ،حيث تقوم الأولى على الغاء المقولات الزمنية — بحصر المعنى — فيستطيع الشاعر وصف « رؤاه » الزمنية كما في قصيدة « صوفي » لرامبو او كما في « باربار » التي تتموضع « بعيدا عن الايام والفصول والكائنات والبلاد » بالفة بذلك وحدة Solitude لا توصف ، فاذا هي « بمعزل عن المكان والزمان ايضا » ، بينما تقوم الطريقة الثانية على تقليص الديمومة ، واحتضان القرون بنظرة واحدة — كما فعل هوغو امام « جدار القرون » — وتوحيد العناصر المتحدرة من الحضارات البعيدة ، في الزمان والمكان على حد سواء (كما فعل جيرار دونرفال في Mémorables)(١٢) ؛ ومن هنا كان « تيليسكوباج » الحقب التاريخية لدى رامبو في « المساء التاريخي » ، والانتقال العنيف من الماضي الى الحاضر ، ومن الواقع الى الممكن ، و« السرعة الرهيبة »

للحدث . بينما تجلى عند لوتريامون الغموض الزمني للأحداث épisodes والقفزات عبر الزمن ، ومط الديمومة المنكمشة تارة والمنبسطة للغاية تارة اخرى . فلدى الاثنين كما لدى اكثر الشعراء الحديثين ، تتجلى التحولات التي تضع تحت أعيننا التقلبات المتسارعة وكأنها «سينمائية» : الظهور والاختفاء الفوريين ، ودوامة كافة العناصر العنيفة في حركة تجرف كل المفاهيم الانسانية ، كمفهوم الثقل والديمومة والتجذر في الزمان والمكان ، وكأنها « انعطاف الهاوية واصطدام القطع الثلجية بالنجوم » على حد تعبير رامبو .

وفي الواقع ، ان الغاء المكان ما هو إلا طريقة اخرى لالغاء الزمان ، ما دامت المدة تقاس بالأيام والشهوروليس بالأمتار ، في حين يمكننا ادراك الزمان وكأنه « مكان ذهني » فـ « عمق المكان هو مجاز لعمق الزمان » كما يقول بودلير . فكما يضغط الشاعر الديمومة، يضغط المسافة، حيث يقترب من الأشياء التي يفصلها المنظور الدارج ، على طريقة الرسامين الانطباعيين ، فيرى القنوات المتدلية خلف البيوت الريفية ، والأذرع التي « تبني جسرا » من جانب الشارع الى الجانب الآخر ، و« يعتاد الصور غير المألوفة » على حد قول إيلوار ، ويخلص من كافة الوقائع الجغرافية الى واقع شعري يعيد تكوينه من جديد ، حيث يتجلى مكانه في كل مكان، دون ان تكون له جهة معينة، لـ « مجاله في اللازوردي والاخضر المشمسين، يعدو بأمواج دون مراكب على شواطىء تحمل اسماء يونانية وسلافية وسلتيكية عنيفة » .

إنه مجال اعتباطي ، ومتخيل على نحو نقي احيانا ، حيث لا يسوده العقل ابداً ، ذلك ان الشاعر (وهذه هي الوسيلة الثانية التي يتخذها للتحـرر) لا يكتفي بإلغاء المقولات الزمنية وحسب ، بل وايضاً إلغاء المقولات « المنطقية » : اذ ان مفاهيمنا المنطقية مرتبطة بمفاهيم الزمان والمكان ، فلا يمكننا هدم احداها دون ان تضمحل الاخرى .

أليس نقص الانتقال الذي يزعجنا في قفز الكاتب من فكرة الى اخرى بشكل قاس ، مرتبطاً بفكرة الزمن الضرورية لتهيئة هذا الانتقال ، وهو

الزمن الذي الفي على نحو مفاجىء ؟ اذا كان « منطق الحلم » يبلبلنا ، فهـذا يعود بشكل دقيق الى ان الزمن متسـارع او ملغى او ممتد على نقيض ذلك بشكل مفرط ، إن وجودنا الواقعي يتصل بالزمن اتصالا دائماً (وهو البعد الرابع في عالمنا) فيتضمن هذا المفهوم كافة استدلالاتنا ، ورؤيتنا للعالم برمتها ؟ واذا ما حذفناه على نحو مفاجىء فاننا نرى انقلاب سائر المظاهر المنطقية ، وتصدعا قاتلا يأخذ بالتوغل في قلب الواقع ــ وعلى عكس ذلك ، فاذا ما الغينا المبادىء الكبرى كالهوية(١٣) والسببية ، نرى ان الزمن يتلاشى في قلب كارثة كونية ، حيث يقف الشاعر وحيداً « في السماء العاصفة والرايات المشدوهة » معتقدا انه تحرر من المكان والزمان ، واصبح حرا خالدا كالله . ويكتب اراغون إبان الحقبة الطموحة للسوريالية « تبدأ الحرية حيث يولد المدهش » . فلمَ الاندهاش إذن مما يعمد اليه كثير من الشعراء الحديثين في عصر يكون الواقع اليومي فيه ثقيلا باستمرار . اذ يتعمدون (من جاكوب وبروتون الى إيلوار وميشو) الوقوف تحت دلالة اللاعقلاني . أي « ينتزعون » القارىء من الزمن ويحررونه في الآن ذاته من وطأته ، ومن غلّ العادات المنطقية ، منتشلين إياه من عبوديات هذا الكون وبائين فيه حدساً بعالم آخر غريب ومتوهج . حيث يتمتع الانسان بسلطات جديدة ، فيهيمن على المادة بدلا من أن يخضع لقوانينها(١٤) .

ونرى انطلاقا من السوريالية على وجه الخصوص تعمق الاتجاه الذي يقدم القصيدة ليس كإشراف مفاجىء أو حلم « مكثف سريع » بل وايضا كـ « سرد » خارج الزمن . اذ يستخدم هـذا الاتجاه الوسائل التقنية السردية (زمن الماضي ، تتابع الاحداث ، اعمال محملة بالموضوعية) لكنها تشوش هذه الوسائل بحثاً عن نهاية غريبة ، وشعرية بالضرورة أي غير زمنية . وذلك على غير ما الفته القصة أو الحكاية أو الرواية . ومن هنا يقيم الشاعر في اللاعقلاني ، ويقدم لنا « سرْديات » دون بداية او نهاية ، بل أفعالا تتلاحم بعيدا عن أي منطق دون رقيب او غاية ، في عالم هو عالمنا لكنه يتراءى لنا غريبا وفريدا . فنثرية الافعال والموضوعية الظاهرة للراوي تدعمان الانطباع بالاختلاف عن المألوف (ويخص ذلك باولو وميشو

ودو اوبالدريا) . وبالتالي يضعنا التخييلي الذي هو الحلم نفسه في زمن خارج الزمن ، حيث لا شيء ناجز أو مبرم . فالمقولات المنطقية ملغاة ، والخيال يتبدى شكلا من اشكال الجهد الفوضوي « المقتلع » للشعر الحديث .

وحيث ان القصيدة الفوضوية لا تخضع لعادات الفكر المنطقي وعادات اللغة ، فإن « ابتكار المجهول يقتضي اشكالاً جديدة » ، حيث لا يطوّح إعصار التمرد بأعراف « الاسلوب » الشعري وحسب ، بل ويطوح ايضاً بكل ترتيب فني او بحث عن الانتظام (كالتناظرات واللازمة والتوازنات الايقاعية . . .) . كما تبدد الريح نفسها تسلسل الافكار وصلاتها ؛ وكل ترابط منطقي في الوصف ومن ثمّ في السرد . فالشعراء الحديثون حسب رامبو يقيمون في (= عالم) « غير مترابط » وينفون العالم الواقعي نفياً حاداً . وقد كتب ميشيل كاروج في حديثه عن رامبو وإيلوار « بينما تشابه كل استمرارية شعرية العالم اليومي مباشرة ، فإن كل رؤيا غير مترابطة تظهر غريبة وحرة بحيث يستحيل مقاربتها (= مع العالم) . فلا تغدو الحرية الشخصية هذه المرة حلماً بل تملكاً » . فكيف لا نجد هنا هذا الموقف المخرب بالنسبة للزمن (غير المنفصل عن الفكر المنطقي) الذي يحكم مجرى جمل الخطاب وتسلسلاتها وتنظيمها ؟

إننا سنصل على وجه الخصوص بين الرغبة في إلغاء الزمن وبين كل اتجاه شعري حديث يعطي « الكلمة » أهمية أولية ـ لا سيما « الاسم » الذي يعتبر دلالة للشيء وإيحاء له في جوهره اللازمني . وحين يندرج الاسم في سياق الجملة ، يفقد قيمته جزئيا ، اذ لا يكون سوى عنصر في مجمل العناصر ، يأخذ شكله تدريجيا عبر سير الجمل . أما اذا عزلناه فانه يستعيد استقلاله وبريقه الخاص . ويصبح نواة مشعة تبث بحرية في كافة الايحاءات الحواسية او الفكرية التي ألقى بهـا الى الظل تقدم الجملة المستمرة . وقد كان رامبو أول من شعر بـ « دينامية الكلمة المتفجرة » واستخدمها ، والتي تشكل « دعامة أكيدة للشعر الفرنسي في القرن المنصرم » على حد قول ج. غراك . لقد بيّنت كيف كان استعمال

روابط الوصل والعطف الضعيفة وأسلوب « التنويط » والتعداد الصافي والبسيط ، يفصل الكلمة ويعزلهـا عن نسيجها الفعلي . فجمل مثل « آه .. المصلوبون وطواحين الصحراء ، الجزر والرحى » و « الموسيقا وانعطاف الامواج ، وتصادم قطع الثلج بالنجوم » لا تقيّم بـ « بالمعنى » العام للجملـة ، بل بسلسلة إشراقاتهـا المكثفة التي تضيئها لخيالنـا بالتدريج . وهنـاك نزعة ما زالت تتعمق في عصرنا الراهن وهي ان الكلمة التي تتمتع بكينونة مستقلة تصبح فردية فوضوية ترفض الامتثال لقوانين النحو ، والذوبان في الموجة الفعلية . حيث لم تعد تندرج في تنظيم الجملة لان المعنى يعبر فيهـا كما يعبر التيار في سلك كهربائي ، فاذا هي تلمع ببريقها الخاص ، الكوكبي والمنعزل .

ومما يجدر ملاحظته ان التقنية الراهنة للشعر الحر تسمح بعزل الكلمة اكثر مما يسمح به النثر . وهذا صحيح ، اذ يمكننا رؤية ذلك في قصيدة ريفيردي القصيرة التالية حيث « تعمل » الكلمات في البنية بمجملها على نقيض ما تفعله في جملة متصلة .

الظهر
الثلج يضيء
الشمس في يد
امرأة تحدق
عيناها
وحزنها
الجدار قبالتها كامد
التفضنات التي تحفرها الريح على ستائر السرير
هذه التي ترجف
يمكننا النظر في الغرفة
الصورة تتلاشى
الفيوم تمر
المطر

لا ريب أن النثر (حيث تكون الجملة وحدته وليس البيت Vers يحتفظ بسمة غنائية متماسكة . الا انه يجب ان نلاحظ مع ذلك ان الخطوط الصغيرة والبياض والكلمات المعينة(١٥) ما هي إلا وسائل تفصل الكلمة عن السياق ، وتطبعها بنوع من الدلالة الخاصة الى جانب دلالتها النسبية في الجملة . كما يؤدي فك الجمل والعطف واشارات التعجب وتكرار الكلمات الى الاثر نفسه (كما في جملة ايلورا) « بخفة تتحركين ، بخفة يتحرك الرمل والبحر . او في جملة ميشو الجريئة » كان على الباب الحزين المليء بالاسى ، الخريف ، التعب ، كنت انتظر جانب « الاقياء » ، وانتظر واسمع دبيب قافلتي المتدرجة من بعيد ، وهي تقبل نحوي في وهن تتزلج تسيخ في الرمل ، الرمل ! الرمل ! »

السنا بذلك امام « تفتت » حقيقي للجملة المبددة في غبار العناصر المنعزلة والفوضوية ؟ اذ يستحيل ان توجد قصيدة في مثل هذه الحالة . لكن هذه الفوضى في الحقيقة ليست الا الوجه الآخر لتنظيم العالم الشعري من جديد ، حيث لسنا امام فوضى وحسب ، بل وامام نظام غريب فتنطوي الكلمات التي يضمها الشاعر الى بعضها البعض على ، رابط تنشا بينها التبادلات ، والتطابقات المتنافرة والموقعة . فتندلع الكلمات وكانها « التبادل الجهنمي قبل الخمود » على حد تعبير مالارميه .

ومن هنا نرى في كل من درجتي التنظيم الشعري (التنظيم في جملة ، او في مقطع ، وتنظيم القصيدة) هذه الكلمات باشعتها الايحائية الصوتية المرئية الانفعالية ، مترابطة فيما بينها كـ « النجوم في السماء » .

فتتشكل في الدرجة الاولى « كوكبة الصور » وعناقيد الكلمات حيث يسهم كل منها اما في تعميق الانطباع ذاته ، اذ يخلق « جوا » خاصا (كما فيجملة ميشو الآنفة الذكر) . (فنشعر ان كلمات « الاسى » « الخريف » « التعب » قد مثلت كافة أوجه الفكرة الشعرية رغم انضمامها الى بعضها البعض على نحو بسيط ، وان « الخريف » يتصل بـ « الاسى » و « التعب » في استعارة ضمنية) . واما في انبثاق ومضات مفاجئة ،

تصطدم فيها الايحاءات المتناقضة كما في قصيدة بربار لرامبو « الجمر والزبـد » .

وتنتظم هذه الكوكبية في الدرجة الثانية وتترابط فيما بينهـا وفق قوانين كونيـة ـ خطية Cosmographique تخص كل قصيدة . ذلك أن كل نص ينطوي على منطق داخلي خاص رغم استقلاله عن الفكر العقلاني . « فيمكن للمنطق أن يتحالف مـع أكثر الغرابات جنونا » ، ويولد هذا التزاوج نصوصا عبقرية ، فكما يقول ريفيردي « اننا نحترم العقل السليم الا أننا نعجب بالمفاهيم الجنونية التي تنتظم في محيطها ومخططها على نحو منطقي » .

ان منطق القصيدة هذا الذي يمنحها بنيتها(١٥) ، ووجودها العضوي يجمع عناصر العمل ويوجهها ويديرها ، فارضا عليها غائية خاصة ، يمكن أن تظهر نقية على المخطط الشكلي ، عبر التناظرات والتوازنات التي تبرز هيكل العمل (كما في باربارا لرامبو) حيث « توالي الاحمر والابيض » على حد قول روشون كالوحشية والرقة ، اللهب والجليد ، فتتجاوب الموضوعات المتضادة وتتراكب « لتبلغ النهاية وتتلاقى مجمعة في «غائيتها Finale

غير أننـا غالبا ما نشعر عمقياً في مثل هـذه القصيدة « العبثية » و « المفككة » حسب المعايير الكلاسيكية ، بقيام صلات وعلاقات دقيقة بين الكلمات والصور التي تنتظم عبرها الفكرة الشعرية ، بحيث يظهر العمل المنجز وكأنه كل كامل ، وتركيب يضم في « اشراقة آنية »(١٧) كافة أنواع العناصر التي لا يستطيع الاستدلال الاستطرادي الامساك بها الا منعزلة . وتقودنا فكرتا التركيب والضم الى فكرة الرمز ، حيث غالبا ما تتصف قصائد النثر الجميلة بسمة رمزية ، وعلينا ان نأخذ كلمة « رمز » هنا ليس بالمعنى المصور الضيق للفكرة بل بالمعنى الاكثر اتساعا للتعبير المصور ، والذي يصعب تبسيطه بكلمات اللغة العقلانية عن التجربة الداخلية . فالشكل التعبيري والتجربة الداخلية لا يترجمان . وقد وصف كاروج قصيدة ايلورا الآنية بأنها « لا تنضب » اذ من المحال ترجمتها على نحو واضح :

« لقد داهمتني في البداية رغبة عارمة ، وافتنني من الابهة والعظمة كنت اشعر بالبرد ، وكان كل كياني الحي التالف يمتص قساوة الاموات وجلالهم . ثم اغواني السر ، حيث لا تلعب الاشكال اي دور . اغواني الفضول الى سماء باهتة ، الالوان هجرتها الطيور والغيوم . امسيت عبدا لكلية الرؤية المطلقة ، عبداً لعيني اللاواقعيتين ، العذراويتين ، الجاهليتين للعالم ولنفسهما . قوة هادئة ، حذفت المرئي واللا مرئي ، وتهت في مرآة لا اطار لها . لم أكن متلفا ولا اعمى » .

اننا نشعر ان مثل هذه القصيدة ممتلىء بالمعاني وكامل في حد ذاته . بل ان ما يبرر الانعدام الجلي لـ « الخاتمة » فيها ، هو انها ليست معنية بان تكون قصة او واقعة تقودنا الى نهايتها،بل تجربة داخلية تكاد ان تكون صوفية حيث يستحضر الشاعر ويعيد عبر الكلمات خلق « انغماره » « في الفراغ الصافي والمضيء الذي اصبح جوهرا له وجوهرا للعالم » .

ومن هنا فان للقصيدة منطقها الخاص الذي لا تنظمه الطرق الشكلية بل واقع داخلي التحمت به . ويمكن القول ان امكانية الالتحام الداخلي تنشأ نتيجة استخدام النثر (او الشعر الحر) والاشكال الاكثر مرونة ، ليس هناك اية زخرفة مسبقة تفرض نفسها على الفكر الشعري .

« سواء قال الشاعر « انا Je » او لم يقل (في الواقع لم يكن ميشو يحدثنا الا عن نفسه : عندما كان يروي بالتفصيل مغامرات « الريشة ») فان نثره يكون شعريا بقدر تجسيده للتجربة الذاتية . وينطوي العمل الشعري على واقعين : واقع خاص مستقل ، وواقع نسبي مرتبط بشخصية الشاعر . فالتبلور الشعري في كل منظم انبثاق بل « نسخة » عن الكينونة العميقة للشاعر . ومن هنا نجد دوما « نوعا من النغمية الجوهرية، واشارة بارقة او صامتة » من قصيدة الى اخرى،بل نجد نفس « المحيط الحي » وقد وصف بروست مختلف لوحات فيرمير بأنها « شظايا العالم نفسه » ويمكننا ان نقول ذلك ايضا عن نصوص كل شاعر حقيقي كبودلير ورامبو وابلوار وريفيريدي . فنجد مثلا في « باربار » اتحادا بين الماء والنار . بين الرقة والوحشية . وهي سمات يتصف بها المناخ

الرامبوي . وهو ما يتجلى في قصيدة « المرآة » لإيلوار (التي اتيت على ذكرها) ــ المرآة التي يجتازها الشاعر علّه يبلغ جوهر الاشياء . كمفتاح للكلمات التي تفضي بنا الى قلب العالم الذهني للشاعر . وسواء كانت القصيدة شعرا أم نثرا فاننا نجد هذه « النغمة الجوهرية » التي تكسب القصيدة أصالتها وتجعلها « ميكرو سكوب » يمكث في قلب عالم اكثر رحابة فإلى اي حد يمكن للكلمات ان تتنادى بطريقة عفوية ولا واعية ، كي تعيد من جديد خلق العالم المرتبط بالبصرية الخاصة لكل شاعر ؟ والى اي حد يختار الشاعر بطريقة واعية العناصر التي ستعيد تركيب واقع جديد ويضبطها ؟

انها مسالة اشكالية ، وموضع جدل بين النظريين والشعراء الذين اجاب كل منهم عن هذه المسالة بطريقة مختلفة . ويبدو في كل الحالات ان أي شاعر لا يقبل بان يكون تقنيا خالصا ، يحكم الكلمات ، متبعا حسابا دقيقا في سبيل الحصول على اثر محدد (كما اراد بو) . وعلى عكس ذلك ايضا ، فان اي شاعر مهما كان « ملهما » لا يمكنه أن يكتب بطريقة آلية محضة ، دون أن يوقظ في داخله بشكل لا واع ، الوعي الفني الصافي ، الذي ينظم ويختار .

ها نحن قد عدنا ثانية الى فكرة التنظيم ، الا اننا اذا كنا نعارض بين صيغتي قصيدة النثر :القصيدة الشكلية أو الدائرية (التي اخصها باسم القصيدة « الفنية ») ، و « القصيدة الاشراقية » (أو القصيدة الفوضوية) فاننا لم نعارض بين الشكل واللا شكل ، بين الفن واللا فن ، بل ما بين نموذجين مختلفين للابداع الفني يطابقان موقفين جماليين ميتافيزيكيين . فيمنح الاول النثر تنظيما ايقاعيا ودائريا صارما حيث يكشف عن اهتمام كبير بالتقنية الشكلية ، وعن موقف اكثر وعيا وارادة يقوم على النظام والقياس ، كنتيجة للاحساس بالنظام والتناغم الشامل ، والرغبة في التفاعل معهما . اما الموقف الثاني ، الذي يرفض المقولات الزمنية المنطقية ويرفع في وجه القيود النحوية والايقاعية جمالية القطيعة والاشراق ، فيصدر عن رفضه للعالم القائم ، مدعيا الفردية ــ من حيث الفوضى ، والاكتشاف الدؤوب لعالم آخر ، واعادة خلقه بواسطة السحر الشعري .

ومن البدهي أن هاتين المنظومتين الجماليتين اللتين قاد تفحص النصوص لهما كي تتجليا بوضوح ، ليستا صارمتين في الواقع ، اذ نجد أنفسنا وجها لوجه أمام عدد وافر من الحالات الخاصة ، على مختلف درجاتها وتطورها وأشكالها ، تفر من أي تصنيف Classification ومع ذلك علينا الا ننسى أن قصيدة النثر تنطوي في كل تجربة لها على ارادة تسعى لايجاد شكل جديد ، فردي فوضوي بالقياس الى الاشكال الفنية الثابتة وفني في تنظيم النثر في قصيدة في آن واحد . ورغم كل شيء فانه يمكننا الجزم بوجود قطبية Polarite محسوسة للغاية في قصيدة النثر ، حيث ينجذب الشعراء تارة الى قطب النظام ، وتارة اخرى الى قطب الفوضى اللذين يقودانهم اما الى الشكل الدائري او الشكل الاشراقي ، مشكلين بذلك مدرستين روحيتين .

هـوامش :

(١) ألوازوس برتراند « ١٨٠٧ ــ ١٨٤١ » شاعر فرنسي تميز بقصائده النثرية ذات الروح الرومنتيكية ، وتعتبره سوزان برنار من ممثلي القصيدة الشكلية أو « الفنيـة » في قصيدة النثر ــ المترجمة .

(٢) القارىء الذي يهزه البحر الشعري « يشعر أن النظام الازلي يتبنى حركاته وافكاره » كما يقول كلوديل .

(٣) يتطابق ذلك كما يقول ب. جوس مع قانون عميق في السلوك الانساني هو « قانون الاهتزاز الشامل » .

(٤) الواقع الذي غالبا ما يحاول بلوغه والالتحاق به في أعماق نفسه ، انه « اقاليـم داخلية تتواصل مع واقع كوني اكثر عمقـا مـن الـواقع الذي نبلغه في الحالـة النثرية اليقظة » .

(٥) يدعي الشاعر انه لاينشد لنفسه ، وانه ينفر من اية علاقة مع النـاس الاخـرين « اني وحدي مفتاح هذا الموكب الوحشي » .

(٦) المقصود هنا بـ « البياض » هو الفراغ الطباعي أو النصي على وجه التحديد ، ومن الملاحظ ان سوزان برنار ، تحلل الوظيفة الشعرية له من حيث هو شكل ــ المترجمة.

(٧) « البالاد » : قصيدة غنائية ذات تلحين ايقاعي ، كانت تؤدى لغناء ثم انشادا والقاء . واخذت في القرن الرابع عشر شكلها الثابت المؤلف من ٣ مقاطع متبوعة بـ « اهداء » من نصف مقطع ، ومنذ نهاية القرن الثامن عشر اصبحت قصيدة سردية مقطعية ، يتالف محتواها من أسطورة شعبية أو تاريخية أو تقليدية ـ المترجمة .

(٨) الليتموتيف : جملة أو صيغة تقوم على عدة تكرارات في عمل أدبي أو خطاب ـ المترجمة.

(٩) يظهر الزمن عند الروائي كالزمن عند الموسيقي ، زمنا خارج الزمن ، خاضعا لقوانين اخرى اكثر تعقيدا وبساطة ، واكثر غنى بالمطابقات والرموز »

(١٠) توحي كلمة Chevelure بدلالات متعددة كالشعر والراس والذيل والوفرة والفارع ـ المترجمة .

(١١) يمكن ان نلاحظ عموما ان قصائد هذا النمط اقصر من قصائد النمط الدائري ، اذ لا يحتمل « الاشراق » الطول .

(١٢) الترجمة الحرفية لهذا العنوان : مايجدر ذكره او جديد بالذكر ـ المترجمة .

(١٤) « يقطن المرء بواسطة السحر الشعري في عالم مدهش وحرا من اي قيد ، واي قانون».

(١٥) سبق لانزواس ان استخدم هذه الطرق ، وكذلك رامبو ومن ثم بو .

(١٦) يقول ربقردي « ان منطق العمل الفني هو بنيته ، ففي اللحظة التي يتــوازن فيها مجمل العمل ويتماسك يصبح منطقيا » .

(١٧) ان هانز لارسون هو الذي يعرف الحدس الشعري لـ « اشراق » .

(*) ترجمت المادة عن احد فصول كتاب :

Suzanne Bernard, Le poème en prose de Baudelaire
Jusqu'a nos jours, Librairie Nizet, Paris, 1959

والعنوان الاصلي للمادة هو :

L'esthétique du poème en prose

* * *